

س

قصة الحب والقدرة

تأليف

هدى عبد الرحمن النمر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

لا يُسمح بطبع أي جزء من أجزاء هذا المؤلف
أو إعادة طباعته أو تخزينه أو نقله على أي وسيلة
سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو شرائط
ممغنطة أو غيرها إلا بإذن كتابي صريح من المؤلف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

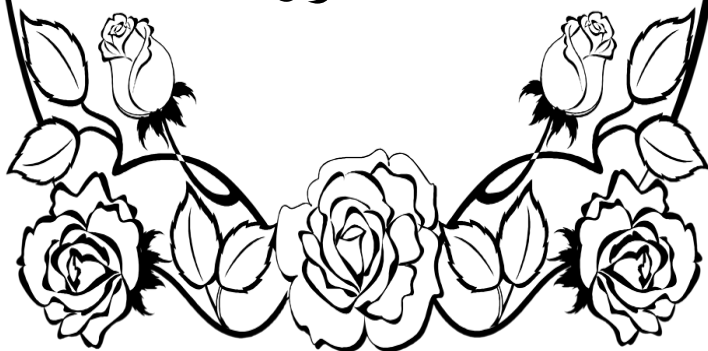
تقديم

هي قصة الحب،

وقصة القدر،

وبينهما قصص

أخرى.



الفهرس

٩	الفصل الأول
١٦	الفصل الثاني
٤٦	الفصل الثالث
٥٤	الفصل الرابع
٦٠	الفصل الخامس
٦٧	الفصل السادس
٨٧	الفصل السابع
٩٧	الفصل الثامن
١٢٦	الفصل التاسع
١٥٠	الفصل العاشر
١٥٨	الفصل الحادي عشر
١٦٩	الفصل الثاني عشر

١٨٥.	الفصل الثالث عشر
١٩٥.	الفصل الرابع عشر
٢١٣.	الفصل الخامس عشر
٢١٩.	الفصل السادس عشر
٢٢٨.	الفصل السابع عشر
٢٤٤.	الفصل الثامن عشر
٢٥٢.	الفصل التاسع عشر
٢٥٩.	الفصل العشرون
٢٦٦.	الفصل الحادي والعشرون
٢٧٣.	الفصل الثاني والعشرون
٢٩٥.	الفصل الثالث والعشرون
٣٠٧.	الفصل الرابع والعشرون
٣٢١.	الفصل الخامس والعشرون
٣٣٢.	الفصل السادس والعشرون

الفصل الأول

وتفتحت أكمال الهوى

زفرت سلمى للمرة العاشرة وهي تعيد مراجعة أوراق البحث، ربما للمرة العاشرة كذلك! لم تكن مادة الأدب العربي كغيرها من المواد، ولا تسليم بحث فيها كتسليم بحث في غيرها، لأن أستاذ تلك المادة لم يكن كغيره من الأساتذة، على الأقل في عينيها هي، أو بالأحرى في قلبها!

من كان يدري يا سلمى؟! من كان يدري بما سيجري؟

ثلاث سنوات مضت في كلية الآداب، وسلمى تبهر في عوالمها من الأدب واللغة، وتنهل من الدراسة التي تطلعت للتخصص فيها. فمن كان يدري أنك في تلك السنة الأخيرة بالذات وقد انصرف كل همك للتفوق في علم لطالما شغفك حبًا، سيظهر ذلك الفارس في حياتك ممتطياً أجنحة البيان عوضاً عن ظهر الحصان؟ بل ويتجرأ على غزو قلبك بغير استئذان، وهو الذي لم يلتفت من قبل لطارق؟ فإذا بالأوراق تتطاير، والكتب تتناثر،

والكلمات تتبخر حروفا في الهواء، فلا يستقر في فؤادك من ذلك كله إلا حروف أربعة، وأحسن بها من حروف.. "أحمد!"

كان أول عهدها به قرب نهاية السنة الثالثة، أستاذًا تلمع عليه غرة الشباب، عائدا من بعثة الدكتوراة، حضر كبديل عن أستاذهم السابق في مادة الأدب العربي. منذ دخل أول مرة، لفت نحوه العيون، كل العيون. فاستطاع بقامة مديدة، وخُطى ثابتة وَّييدة، وابتسامة هادئة ودودة، أن يبذر انطبعا حسنا في نفوس الطلبة. حتى إذا بدأ يحاضر، سكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير! فقد كان لأسلوبه أَخَذَة كالسحر، ففيه من طلاوة البيان بلا تكلف، وفورة الشباب بلا اندفاع، ورصانة العلم بلا تكبر، وولج بالمادة دون تحجّر فيها، ما كان كفيلا بإحكام انتباه الطلبة حوله كإحاطة السوار بالمعصم، طيلة ساعتين كاملتين بلا ملل ولا تملل. وتوالت الأسابيع تترى، والأستاذ الشاب يعلمهم ويوجههم، ويفتح أمامهم أبواب العلم وآفاق المعرفة، وما دار بخَلَدِه لوهلة أنه كذلك قد فتح أكمّام الهوى في قلبها.. سلمى!

وأنّى له أن يدري حتى باسمها، أو ينتبه لوجودها بين جمهور الطلبة، وهي منذ مجيئه قد امتنعت عن المشاركة في أي من محاضرات مادتها الأثيرة. كان يسأل أسئلة قلّ ألا تعرف سلمى إجاباتها، لكنها لم تكن لتجرؤ على المشاركة، لأنها لم تكن لتتحمل نظراته الآسرة بالنسبة لها إذا ما اتجهت إليها. كان زملاؤها وزميلاتها حولها يتجاوبون مع الأستاذ الرائع، دون أن

يكون لديهم حرج مما تتحرج منه، فلم يكن في قلوبهم ما كان في قلبها..
وآه من القلوب وخباياها!

فقط لو أتيح لأحمد الاطلاع على خواطر سلمى، التي لا تتجاوز دَقَّتِي
يومياتها، لألفى نفسه متربعا على أسطرها منذ أمد بعيد. كأنما كان
التجسيد الأمثل لتصوُّرها عن فارس أحلامها، الذي انطبع عليه قلبها
للاشعورِيا منذ بلغت سن الغادة التي اكتملت حريرتها وفاح عبيرها،
فأزهرت في حنايا نفسها أحلام القلوب، وشبَّت روحها عن طوقها الفرديِّ
لتتفتح طاقاتها لاستقبال أليفها، فتفسح له من بعد أعز مكان في شغاف
الفؤاد.

فأنى لفارس الأحلام أن يعلم ببطولاته وهي حبيسة مفكرتها وأسيرة
دواخلها؟ أنى له أن يسمح خفقات قلب فتى يرنو له على استحياء ولا يكاد
يُبين؟ فلا غرَّو والحال كذلك أن أسدل طبعها الهادئ الخجول عليها
الستار، وحال بين قلبها وقلبه، حتى حين.

سبحانك ربِّي! سبحانك مقلب القلوب!

أي مُضْغَة هذه التي اسمها القلب؟ كيف تَقَلَّب بنا في سُويعات ولا تكاد
تستقر على حال؟ فإذا الحب گرّه وإذا الودُّ بغض! وإذا الوعد غدر وإذا

الوصال غير ذي عهد! ثم تقلّب بنا في سُويعات أخرى، فإذا الإعجاب كلّف
وإذا الميل غرام، وإذا الانتظار لهفة وإذا الغياب عذاب!

سبحانك ربي! سبحانك مقلب القلوب!

وأَي شيء ذاك الذي اسمه الحب؟ ذاك الذي نتوقف لنتساءل كثيرا عن
معناه، وتعريفه، وكُنْهه! حتى إذا خفق القلب تلك الخَفَقَة الأولى، صار كل
تعريف هباء مَنثورا، ولم يبق إلا تلك الخفقة وذلك الشعور، لا يُحيط
بسَرِّهما وَصف، ولا يجري عليهما مِثال! لكن القلب لا يخطئ ذلك العابر
إذا ما وقع فيه، ولا يخطئ ذلك الشعور المُبهر، وذلك الوَهَج الساطع، وَهَج
الحب، كل الحب!

أو هكذا يخيّل للقلب حين يحلّ بساحته ضيف ما له به من عهد قَبلا، ولا
معه في استقباله مُعين. وخير من يستعان به على تقلّبات القلوب هو
مقلبها - سبحانه - فيجعل للحائر حين يَسْتَهديه نورا يبيّن له حقيقة ما
اعتراه. ثم إما أن يصرف الله ذلك الضيف عن قلبه إلى غير رجعة، أو يُثبته
ليقيم فيه ويصير بِضعة منه، إلى أجل مسمّى. والله بخبايا الصدور
وتقلّبات القلوب خبير بصير.

شهور عدة مضت منذ دخل أحمد في حياتها وغلبها على قلبها، فصارت فيه أخلاط من مشاعر لا تقف سلمى لها على كُنْه، ولا عرفت لها من قبل مَثيلاً. غير أنها أوتيت قدرة على كِتْمَانِ أمور قلبها وخاصة دواخلها، فما استبان أحد ما اعترأها من تغيير، ولا استراب أقرب الناس إليها بحالها. وأحكمت سلمى الغطاء على وَجِيبِ قلبها، حتى عن صفاء صديقة الشباب ورفيقة الدراسة، التي كانت تجلس إلى جانبها في كل المحاضرات، يستوي عندها الداخلون والخارجون، دون أن تدرك أن لذلك الأستاذ خاصة مكانة في قلب صاحبته سلمى. لقد كانت تلك دنياها لا يشاركها فيها أحد، وعالمها لا يزاحمها فيه سواها.

أما حين تَخْلُو سلمى إلى نفسها، فكأنما كانت نفسها تنقسم شَقَّيْنِ، شِقٌّ يَهيم في أودية الأحلام الزاهرات، وشِقٌّ يكاد يذوب حياء مما يَعْتَمِلُ في داخلها. وتجيئ في صدرها مشاعر أرق من نسيم الصباح تارة، وأعتى من عاصفات الرياح تَارَاتٍ أُخْرَى. لذا لم تَجَسُرْ سلمى على مفاتحة أحد بما اعترى قلبها. كانت تخشى مشاعرها بقدر ما لا تملك لها دَفْعاً، وتَحَارُ فيها بقدر ما تستيقن وجودها. فرأت التَكْتُمَ عليها سبيلاً، حتى ترى هي النور من تلقاء نفسها حين يجيء أوانها، إذا ما الله كتب لها أواناً.

ولكن حَتَّام يطوي القلب أيامه مثقلاً بِجَمْلِهِ دون بوح؟ وهل يرتوي الظمآن من جداول الأحلام؟ أو يكتفي المشتاق بعناق الخيال؟ وكذلك عند الخفقة

الأولى يَتَّقِدُ الْجَوَى وَتَلَدَّ النَّجْوَى، ولا بد ممن يصغي لحديث القلب كما تصغي الشيطان لحكايات الأمواج. فالتفت القلب المؤمن يرجو رفيقا يرفق به، ويدعو أنيسا يُسَرِّي عنه ، فما وجد خيرا ممن وسع سمعه الأصوات، ووسع نوره الحيازى، ووسعت قدرته الأكوان، ووسع كل شيء رحمة وعلما.

وكذلك كانت سلمى تخشى كل الخشية أن يفسد عليها قلبها، ويعلق في حبال الوهم وجدائل الخيالات. فما تفعل بالقلب في أعطاف الهوى إذا لم يُتَوَجَّ ميثاقا ينسكب عليهما رَحَمَات؟ وفيم يَخِيف القلب للقلب إذا لم يُكْتَب لهما الاجتماع المبارك على تقوى من الله ورضوان؟ لذلك ما فتئت تَبَثُّ همها إلى الله تعالى في ابتهاال وضراعة، تستعينه وتستهديه على ما هي فيه. وما أكثر ما كانت تردد في السَّحَر دعوة قرأتها في رواية "والإسلاماه"، من الإمام العز بن عبد السلام لسيف الدين قُطْر، لما هاج بالأخير الشوق إلى حبيبته جُلَنَار :

" اللهم إِنَّ في قلب هذا العبد مُضَغَّة تَهْفُو إلى إِلْفِها في غير معصية لك . فَأَتَمَّ نعمتك عليه ، واجمع شمله بِأَمَتِكَ التي يُحِبها ، على ما تحب وترضى، على سنة نبيك محمد عليه الصلاة والسلام " .

ليتني أعرف!

ليتني أعرف ما الذي حَلَّ بقلبي؟

حتى حين يغيب شخصه عن ناظرِّي لا تنفك صورته ترسم في خيالي،
وكلما جاهدت في صرف تلك الخواطر أمعنت في الحضور!

أهذا هو الحب؟

لست أدري!

حقيقة لا أدري!

إنها مشاعر لا عهد لي بها من قبل. أحيانا تُحكِم علي قبضتها حتى لتكاد
تُخنقني، وأحيانا أخرى تحوطني بحنان حتى لأكاد أرجوها أن تبقى!

أي ربِّي! إنني أسألك وأنت مقلب القلوب، وأنت العليم بخبايا الأنفس وذوات
الصدور، أسألك أن تتولاني بحفظك ولا تكلني للحيرَات. فإن يكن قَدَري
فاجمعني به على ما تحبّ وترضى، وإن يكن غير ذلك، فاصرفه عني
واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم ارضني به. يا مقلب القلوب ..
يا رحمن.

الفصل الثاني

اللقاء

"سلمى عادل بهاء الدين"

عاد أحمد ينطق الاسم ببطء، وهو يقرأ أوراق البحث المقدّم له للمرة الثانية. لقد صحّح العديد من الأبحاث قبل أن يصل لهذا، كان فيهم الرديء والمتوسط والجيد، لكن هذا كان مختلفا، لا ريب كصاحبته! ولولا أنه يصحح أوراق الطلبة لظنّ أنها أستاذة شابة أو زميلة في القسم!

ابتسم أحمد في قرارة نفسه لنجاح مسعاه، فهو ما طلب منهم ذاك البحث إلا ليتعرف على الأخفياء من أصحاب المواهب، وبما لحسن ما عرف! إن الأسلوب الفنّان الذي كتبت به تِلْكُمْ الأوراق ينضح بأن سلمى تلك أديبة من طراز فريد، وذلك الفكر الذي نسجته مُحكما يدلّ على ذهن متقد واطلاع واسع، وطوّق ذلك الحسن كله خط بديع مهندم، ينمّ عن إتقان لفن الخط وعلم برسمه. حاول أحمد جاهدا أن يتذكر وجوه من يعرف من الطلبة ممن يكثر المشاركة في محاضراته، فلا يكاد يتبين بينهم اسم .. "سلمى" !

نظرت سلمى لساعة يدها من طَرَف خفي، وهي تتظاهر بالانهماك في قراءة كتاب في مكتبة الكلية، ثم أتبعته بنظرة خاطفة لهاتفها المحمول، وهي تتوقع اتصالا من صفاء بعد انتهاء المحاضرة. تلك المحاضرة التي سلبتها هناة النوم أسبوعا كاملا، لأن الأستاذ أحمد كان سيشيد فيها بأسماء الأبحاث الممتازة! كانت أبحاثها في مصاف الممتازة فيما سبق من سِنِي الدراسة، لكن ما جَدَّ هذا العام أن "أحمد" هو من سيشيد بها، ويا له من جديد! حاولت مرارا أن تعد ردا ثابت الجأش، لكنها ما إن تتخيل الموقف حتى تتورّد وجنتاها وينعقد لسانها، وتتهيب من بين آلاف النظرات المُعلّقة عليها نظرته هو!

ومن ثم حسمت سلمى أمرها في السُّويّعات الأخيرة قبل المحاضرة، وغلب حياؤها من اللقاء على شوقها لسماع التعقيبات، فألحت على صفاء أن تعفيها من مرافقتها لتلك المحاضرة، متعللة بأنها لم تُنه قراءة النص المطلوب للمحاضرة التالية. وللوهلة الأولى، لم تدرِ صفاء أيهما تصدق: أن سلمى مستعدة لتفويت إحدى أحب المحاضرات إلى كل الطلبة، أو أن سلمى قد يفوتها تحضير نصٍّ ما حتى الدقائق الأخيرة؟! وفي كلتا الحيرتين، كان رجاء سلمى كفيلا بأن تسلم صفاء لدعواها دون مزيد من التحقيق.

ومن يعرف طباع الفتاتين وميولهما، يَعَجَبُ مما أَلَّفَ بينهما على تباينهما. كانت صفاء يتيمة الأب، من أسرة رقيقة الحال، أخذت أمها على عاتقها عبء تنشئتها بعد وفاة معيلهم الوحيد. فنشأت صفاء لا تعرف لها قريبا في الدنيا إلا أما تكدّ لتريحها وتجوع لتشبعها وتعمل لتكفيها، فكانت أمها لها بمثابة كل أحد وكل شيء في هذا العالم. غير أن والدة صفاء لم تكن قد أكملت سوى التعليم الأساسي، فلم تجد لها موردا للرزق إلا في أشغال محدودة، ومن ثم آلت على نفسها أن تعلّم ابنتها حتى الشهادة الجامعية، مهما لاقَت من عَنَتٍ في سبيل ذلك، لتكون لها سلاحا في وجه نائبات الدَّهر، ولتحظى بفرص أحسن مما توافر لها.

وحفظت صفاء عن أمها رسالتها في الحياة، فأكَبَّت على كتبها ولا همَّ لها سوى تحصيل شهادات النجاح ودليل كونها متعلمة، فكان لها ولأمها ما أرادتا. وها هي ذي قَارَبَت على إنهاء تعليمها، وليس لها من العلم سوى أوراق مزخرفة، مذيلة بأختام المُدَرَّاء، تشهد لها بما مرت به من سنوات التعليم! وغاية أمانِيَّ صفاء في هذه الحياة زوج طيب ذو دخل كافٍ، يرفع عن أمها عبئها، ويسكنَهما في مسكن أحسن، بعد ما ذاقته من ذل الفاقة. ولئن كان لصفاء ما يشفع لها فهو ما طُبعت عليه من حب غير مشروط، وعرفان صادق بالجميل، لمن يحسن إلى أمها وإليها.

وقد أحبت صفاء في سلمى تلك الروح المرهفة في غير تعالٍ، وشكرت لها مساعدتها في كثير من المواد الصعبة عليها. ورأت سلمى في صفاء صدقا في المودة، ووفاء في الصحبة، وفوق هذا وذاك كانت النفحة الربانية التي أَلَفَتْ بين قلبيهما على قَدَرٍ وإلى أجل..

سلمى وصفاء!

تناولت سلمى هاتفها بلهفة عندما ظهر اسم صفاء على الشاشة :

- هاه! خبريني!
- ألا تُسلمين أولا؟
- وعليكم السلام! كم كان التقدير؟
- (تُمنع في إغاظتها) لكنني لم أبدأ بالسلام لتردي علي!
- (بصبر نافذ) صفاء!
- حسنا! حسنا! ماذا تتوقعين غير "الامتياز" المعهود؟
- (في شيء من خيبة الأمل) فقط؟
- (في دهشة) فقط؟!

- لقد قصدت.. أعني.. تعقيب الأستاذ..
- آه، كدت أنسى..
- ماذا؟ هل علّق الأستاذ على البحث؟
- بل إنه يطلب رؤيتك في مكتب القسم لأنك كنت متغيبه اليوم!
- (غير مصدقة) لا بد أنك تمزحين!
- إن شئت ألا تصدقيني فالأمر عائد إليك!
- ...
- سلمى؟
- (تشرد ببصرها دون أن تنتبه لنداء صفاء)..
- سلمى؟! نداء من كوكب الأرض إلى سلمى عادل، حوّل!
- ولم تدرِ صفاء في تلك اللحظة كم كانت دُعابتها صادقة، كل الصدق!
- فسلمى لم تكن في ذلك الوقت على كوكب الأرض، ولا على أي كوكب من
- كواكب المجموعة الشمسية! لقد كانت على كوكب لا يُعرَف له اسم، وفي
- عالم لا يدرك له كُنْه، لكن الأكيد أن من دخله لم يعد على كوكب الأرض،
- ولا عاد ينتمي لهذا العالم!

وقفت سلمى أمام مكتب قسم اللغة العربية، وهي تقدم رجلا وتؤخر أخرى. وهمست لنفسها في ضيق : "ليتني لم أتخلف عن محاضرة اليوم، إذن لكان أعطاني درجتي كالآخرين وانتهى الأمر! ليتني تغلبت على خجلي، إذن لكنت في مأمن من كل هذا الحرج! ثم ماذا لو كانت الغرفة ملاءى بغيره من الأساتذة لأنه وقت استراحة؟ عونك يا إلهي!". وأخذت تتمتم بأذكار التثبيت والاستعاذة بالله، حتى لا تظهر أمامه بمظهر اللجوجة المتذبذبة.

وبينما هي كذلك، فُتح باب المكتب، وخرج بعض الطلبة والطالبات ممن كانوا يناقشون الأستاذ أحمد فيما كتبوه، فنظر إليها أحمد مستفهما عما إذا كانت تريده هو أم غيره من الأساتذة، كون مكتبه الأقرب لمدخل الغرفة، فلم تجد سلمى بُدًا من مجاوبة نظرته بالتقدم العسكري للداخل، والوقوف أمام مكتبه قائلة :

- أنا سلمى يا أستاذ!

تراجع أحمد في كرسيه مبتسما في سعادة، ثم نهض مرحبا ليشير لها بالجلوس قبالة، وقال :

- إذن أنتِ أستاذة سلمى صاحبة أفضل بحث طالعته لطالبة في هذه المرحلة حتى الآن. أين كنتِ منذ زمن؟ لستِ ممن يشارك في المحاضرات عادة؟

كانت سلمى قد استردت شيئاً من رَباطة جأشها، لكنها لم تشأ في ذات الوقت أن تتفرّع معه في الحوار أو تنقاد للحديث عن نفسها كثيراً، فأجابت في كلمات موزونة قدر استطاعتها :

- شكر الله لكم - أستاذنا - هذا التقدير لبحثي المتواضع، ولستُ عادة ممن يكثر المشاركة على الملأ.

ابتسم أحمد متفهّماً، وأوماً برأسه قائلاً :

- توقعت ذلك! هكذا أغلب الأدباء والشعراء لهم أجواؤهم الخاصّة.

لم تزد سلمى على أن أومأت برأسها دون أن ترفع طرفها إليه. فسكت أحمد قليلاً كأنما أيقظه تحفظها مما كان اعتاده في مجال عمله من ألفة الطلبة والطالبات معه في الحوار والنقاش، أمّا هي فنظراتها مكلفة بالأدب لا تكاد ترفعهما إليه، وجلستها تزيّنت بالوقار الهادئ، ووجهها اكتسى بحمرة الحياء أيّما اكتساء،

وكان كلامها إلى ذلك بيّناً موزوناً في غير لجلجة، وهي تشرح له اختيارها لموضوع البحث وأقسامه. ثم شرع يسألها عن مراجعها وقراءاتها، فأدهشه أنها قرأت في بداياتها من لم يقرأ لهم هو إلا متأخراً عن ذلك.

- وأراكِ ذكرتِ سلسلة الدكتور شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي،

هل قرأتها كلّها بأجزائها العشرة؟

- نعم، قرأتها كلها.
- (يومئ في إعجاب) وماذا غيرها طالعت في تاريخ الأدب؟
- تاريخ الأدب العربي للزيّات، وتاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي.
- وماذا قرأت عامة من كتب أدبية للمتقدّمين؟
- البيان والتبيين للجاحظ، والمثل السائر لابن الأثير ، وأدب الكاتب لابن قتيبة...
- (يستوقفها) ما شاء الله! وهل تطالعين في الآداب الأجنبية كذلك؟
- نعم، الإنجليزي والروسي خاصة.
- أطرق أحمد مفكراً وتشاغل بتقليب صفحات البحث بين يديه، ثم توجه لها سائلاً:
- وكم ترين درجتك المستحقّة لهذا البحث يا أستاذة سلمى؟
- (تنظر لأوراق البحث بين يديه مفكرة ثم تجيب) الحقيقة، أرجو العلامة كاملة!

- (يتراجع في كرسيه مبتسما من صراحتها) هذا عمل ممتاز فعلا،
لكن هل تدّعين له الكمال لتطمحي للعلامة الكاملة؟

- (تهزّ رأسها نفيا) لا، لا أدّعي الكمال مطلقا، وإنما هذا أحسن ما
استطعت تجويده في هذه المرحلة والتي بناء عليها يكون التقييم.
فالدراجات المرصودة لأعمالنا - كما أفهم - هي تقدير المجهود
الحالي ليس إلا، وليست حكما خالدا بالكمال!

رفع أحمد حاجبيه في تعجّب من منطق لم يطرق سمعه من قبل بتلك
الصورة، ثم أطرّق في تفكير وهو يتأمل خانة العلامة على ورقة الغلاف أمامه،
وبعد هنيهة صمّت تناول قلمه وكتب العلامة الكاملة مبتسما، ثم نهض
وهو يناولها البحث قائلا :

- تستحقين العلامة الكاملة فعلا يا أستاذة سلمى، سدد الله فهمك
وقلمك.

تناولت سلمى بحثها، وأومات برأسها في شكر دون كلمة أخرى. وتوجهت
للباب على مهل لتحتوي ارتباك دواخلها، بينما قلبها يكاد يشب من بين
ضلوعها ليسبقها للباب سبقا. وما ابتعدت عن مكتب الأساتذة حتى
جلست عند أقرب مدرج تلتقط أنفاسها وتستعيد المحاورة. وابتسمت
وهي تستعيد قوله "أستاذة سلمى". صحيح أنها عاداته المميزة في مناداة

الطلبة بالألقاب لا الأسماء المجردة تشجيعاً من جهة، وحرصاً على حدود الأدب من جهة أخرى، لكن وقعها على نفسها هي كان مختلفاً، سيّما لما حقّها به من نظرات الإعجاب والتقدير.

ولئن كنّ بنات حواء مفطورات على التنبه للفتات الصغيرة والدقائق المغفول عنها، فقلب ذات الهوى أرقّ تلقّتا وأشدّ انتباهاً. وصدق تحذير أمير الشعراء أحمد شوقي للعابثين بالقلوب بما يرمون من الكلام على عواهنه، ويظنونها قلّتات هيّنة :

فاتقوا الله في قلوب العذارى ** فالعذارى قلوبهنّ هواء

ولئن كانت سلمى كغيرها من بنات حواء، فقد أنعم الله عليها بمحاسبة نفسها وقطّمها عن الاسترسال في أحلام اليقظة وأوهام الخيالات، لذلك سارعت تنفض عن خواطرها آثار اللقاء وهي تجمع أوراقها في الحقيبة، وهمست لنفسها بقول أبي فراس الحمداني :

أنا الذي إن صبا أو شفه غزلّ ** فللعفاف وللتقوى مآزره

وأشرف الناس أهل الحب منزلة ** وأشرف الحب ما عفت سرائره

جلست صفاء ساهمة في قاعة المحاضرات، وانتبهت عندما أقبلت عليها سلمى، فناولتها بحثها وقد علا وجهها شيء من الوجوم. كانت العلامة التي

حصلت عليها صفاء هي "جيد"، مع ملاحظة "العناية بالإملاء والخط".

تناولت سلمى البحث وشرعت تقلب فيه، ثم ابتسمت وهي تقول:

- جُل أخطاء الإملاء لديك في الخلط بين همزتي القطع والوصل، وكتابة الهمزة المتوسطة والمتطرفة.

- قواعدها كثيرة وصعبة!

- أنا عندي لك قاعدة واحدة للفرقة بين همزة القطع وألف الوصل!

- أسعفيني بها إذن، بالله عليك!

- انطقي الكلمة وقبلها حرف الواو، فإذا أدغم صوت الألف في الواو فهي ألف وصل، وإذا نطقت الهمزة صريحة فهي همزة قطع!

- (تحدّق في سلمى لوهلة، كأنما القاعدة تقطّر من مصفاة دقيقة إلى عقلها) طيب، أعطني مثالا؟

- مثلا هذه الكلمة هنا (تشير لها على الصفحة) "اتّصلت بها حياتهم"، كتبته همزة قطع وهي ألف وصل، جربي أن تنطقي كلمة "اتّصل" وقبلها حرف الواو.

- واتّصل.. (في سعادة) نعم، نعم، الآن فهمت!

- وهالكِ كلمة أخرى "فإستقى الشاعر قوله"، الهمزة في "استقى" أي نوع هي؟

- (تجرب الطريقة السحرية!) إستقى، واستقى، واست... ألف وصل؟

- (تضحك) نعم هي ألف وصل، أحسنت. وبالنسبة لكتابة الهمزات، سأطبع لك ملخصا كنت أعدده في صفحة واحدة!

- (تصفق في جذل) صفحة واحدة فقط! كم أعشق المختصرات!

- (تغمز لها ضاحكة) نعم، أعلم ذلك جيدا!

وبينما الطلبة مسترسلون في أحاديثهم الجانبية دخلت أستاذة اللغويات، فاتخذوا أماكنهم سريعا، وبدأت ضوضاء القاعة تخف قليلا مع بدء الأستاذة في التحيات ومراجعة أسماء الحاضرين. ومع أن درس اللغويات كانت من دروسها المفضلة إلا أن سلمى شردت في أجزاء كثيرة، وشعرت بشيء من الهم يثقلها، جزاء تلك المشاعر التي تجاذبت حنايا قلبها، وتلك الهواجس التي بدأت تجيش في صدرها، تُنبئها أن ذلك اللقاء لم يكن لقاء عابرا والسلام. وما كانت تدري أن أحمد كان يشاطرها ما يسبح في خلدِها من خواطر، وربما زاد عليها!

- تبدو اليوم ساهما على غير العادة يا أحمد، هل جدّ جديد في الكلية يا بني؟

- (ينتبه من سُروده) لا أبدا يا أمي، كل شيء على خير ما يرام بحمد الله. كنت أركز انتباهي على الطريق فحسب.

- اعذرني يا بني لشغل وقتك باصطحابي لتلك الزيارة، وعندك من الواجبات ما يكفيك ويزيد.

- فيم الاعتذار يا أمي الحبيبة، عفا الله عنك؟ (يبتسم) تعلمين كم أحب الخروج معك يا أماه وأنت تمتعين سمعي بدعواتك العطرة.

- (تبتسم وهي تميل عليه لتطبع على خده قُبلة) غَمَر الله قلبك بالرضا واليقين، وبارك في عملك وعمرك، وأدام علي مرأى ابتساماتك الغالية يا بني الحبيب.

ولم تدرك والدته كم أن ابتسامته الهادئة تلك إنما كانت تخفي خلفها قلبا مضطربا، خفقاته حيرة ونبضه إنذار!

إنذار بالحب!

كيف لم أنتبه لها قبلاً؟

أي جوهرة كنت أدرسها طوال العام دون أن أنتبه؟

أتكون هي هي؟

أهي من رسمتها في آمالي وأحلامي، منذ بلغت السن التي تزهر فيها أحلام
القلوب؟

إن الكلمات لتنسكب منها على الورق فإذا به يذوب من حلاوتها وبيانها،
وما كلامها حين تتكلم بأقل روعة، ولا فكرها حين تُنصّده شفاهة بأقل منه
إحكاماً حال الكتابة. أي أديبة انطوت عليها تلك الشابة النابهة؟ وأي حياء
ذاك الذي كلل سكناتها ونظراتها؟ وأي تؤدة اشتملت عليها نبرتها التي
جمعت الهدوء في غير خفوت والإبانة في غير صحب؟ ونكاد إلى ذلك
نتشارك الاهتمامات كلها، وأسماء الأدباء، وتوجهات الاطلاع! بل إنني
استشعرت في سويغات صحبتها تلك جواً من الانسجام والألفة استعذبتة
روحي، ولم أشعر بمثله قبلاً تجاه أحد!

سلمى.. وما أدراك ما سلمى!

- (تَمَّتَمَ الحاج عادل بغيظ وهو يضع الأكياس تَلَوَ الأكياس في صندوق السيارة) : كل هذه مشتريات يا فاطمة!

غير أن تمتمته بلغت سَمَحَ الحاجة فاطمة، فقالت وهي تعاونه في نقل الأكياس إلى السيارة :

- إنك تبالغ يا أبا سلمى!

- قولي هذا لأكياسك المنتفخة!

- وما ذنبي إن كانت هذه الطلبات الأساسية؟!

- كل هذا الطلبات الأساسية لأسرة من ثلاثة أفراد يا فاطمة؟! لو أعلم أنك ستشترين كل هذا، لوجَّهْتُ دعوة إلى أهالي الصومال ليشاركونا!

- (تنظر لأكياسها في شيء من التردد) ليس لهذه الدرجة! ربما.. ربما قليلا فقط!

- (مستنكرا) قليلا؟! اتقِ الله يا فاطمة!

- من يسمعك يحسبني ارتكبت ذنبا أو إثما مُبِينا!

- أولسنا نُهيننا عن الإسراف وكل هذا التبذير؟!

- ما لن نحتاجه اليوم سنحتاجه غدا! ثم إن سلمى صارت عَروسا ومعظم المقتنيات لها. (لا يرد عليها، فتُردِف مدافعة) لقد كان أغلبها بنصف الثمن! (يَتَمَتِّم بكلمات مُبْهَمَة، فتضيف غاضبة) إذا كنتُ مسرفة هكذا فلا تتركني بعد ذلك أتسوق لوحدي وتذهب للصلاة! إنك تعاملني كطفلة أفسدها التدليل!

- (يرفع رأسه راسما ملامح الانبهار على وجهه، وقد كان منحنيا على الأكياس يرتبها في صندوق السيارة) أحسنتِ يا فاطمة!

- (تنظر إليه مندهشة وتحسبه قد سامحها) حقا؟

- هذا بالضبط التعبير الذي كنت أبحث عنه منذ عشرين سنة!

- (تضرب كتفه برفق غاضب، ثم تستدير وتتجه إلى السيارة، فتجلس في المقعد الخلفي بدل الأمامي)!

- (ينهي ترتيب الأكياس، فيخلق الصندوق ثم يتجه إلى زوجته، مستمتعا بمداعبتها) أغضبتِ يا فاطمة؟

- (لا ترد!) -

- قد كنتُ أمارحك!

- (تنظر إليه معاتبة) ما عدتُ أفَرِّق بين مزاحك وجِدك! فأنت في جدك مازح، وفي مزاحك جاد!

- أنا آسف! (يلوّح لها بمفاتيح سيارته) ما رأيك أن تريني مهارتك في القيادة طالما الطريق هادئ هنا؟

- (تخرج من السيارة على الفور، وتأخذ منه المفاتيح مسرورة) أحقا ستسمح لي؟ (يبدو عليها القلق) لكنني ما زالت حديثة عهد بدروس القيادة.

- لا تقلقي. سأجلس بجانبك وأوجهك.

- (تجلس في مقعد السائق وتَهْم بإدارة المفتاح غير أنها تتوقف فجأة)

- ما الأمر يا فاطمة؟

- (تنظر إليه برجاء) أَلستَ غاضبا مني يا أبا سلمى؟

- (يبتسم لها ابتسامة حانية) لا يا فاطمة! إنني أسامحك وأسامح أكياسك المتَوَرِّمة كذلك على شرط!

- وما هو؟

- أن تسامحيني أنتِ كذلك!

- (تبتسم علامة السماح والرضا، ثم تدير المفتاح في السيارة)
- جيد، أحسنت، والآن اضغطي على دواسة البنزين برفق... (يَبْثُر عبارته مع الانطلاقة العنيفة للسيارة، فيصيح) برفق، برفق يا فاطمة!
- (تضغط الفرامل بقوة وهي تشهق) بسم الله الرحمن الرحيم! أسيارة هذه أم صاروخ!
- (يَزِفِر في توتر) بل هي سيارة! وفي يدك أنت يا فاطمة، قذيفة مدفع من الحجم العائلي! (تضحك) والآن مرة ثانية يا فاطمة، برفق.. برفق.. (السيارة واقفة) ما بك يا فاطمة؟ اضغطي على دواسة البنزين!
- ولكنني بالفعل أضغط عليها برفق!
- (ينظر لموضع قدمها) قلتُ "اضغطي" يا فاطمة وليس "المسي" (تبدأ السيارة في التقدم ببطء) نعم، هكذا.. على بركة الله. (يرفع يديه، ويهمهم)
- بم تدعو يا أبا سلمى؟
- كنت أتشهد، وأدعو الله أن يحفظ سلمى إذا لم نعد للبيت الليلة!
- هكذا إذن! ستري! (تضغط على دواسة البنزين بقوة قليلا)
- برفق يا فاطمة، لا تتعجلي!

- (تزيد سرعة السيارة شيئاً فشيئاً) لا تقلق، فالطريق منبسط أمامنا.. (تَبْتَرُ عبارتها مع صوت الانفجار المفاجئ، ثم تنحرف السيارة بسرعة)
- (يصيح بها) الفرامل، اضغطي على الفرامل يا فاطمة!
- (في هَلَجٍ أين هي؟ أين الفرامل؟) (تضغط بقوة من شدة الذعر)
- لا، لا هذا البنزين! اضغطي على الأخرى!
- (تضغط بأقصى قوة على الدواسة الأخرى، فتقف السيارة بمِيلٍ مُحَدَّثَةٍ صَرِيرًا عاليًا) رباه! ما الذي فعلته؟! (ينزلان من السيارة)
- (يفحص الإطار الذي انفجر، ثم يمسك شيئاً مَعْدِنِيًّا لامعاً فيُرِيهِ لها) لم تكن غلطتك! إنه مسمار كبير في عُرْض الطريق!
- (تضع يدها على صدرها) الحمد لله!
- حقا، الحمد لله الذي لَطَفَ بنا.
- إنما قصدت الحمد لله أنها لم تكن غلطتي!
- (ينظر إليها مندهشا، وتنتظر إليه هي الأخرى متوقعة أن يرد عليها، ثم يضحكان معا. بعد قليل تتراءى لهما من بعيد أنوار سيارة قادمة، فيضيء الحاج عادل أنوار السيارة الخلفية، لتُومِضَ إشارة الإنذار)

- انظر يا أحمد! كأنهم تعرضوا لحادث!

- لا حول ولا قوة إلا بالله! (يوقِف سيارته قريبا من سيارة الحاج عادل) فلتنتظري هنا يا أماء، وسأنزل أنا لأتحقق من الوضع.

- (يخرج من سيارته متوجها للحاج عادل والحاجة فاطمة) السلام عليكم يا عمي، هل أنتم بخير؟

- (الحاج عادل) نحن بخير والحمد لله، ولكن أحد إطارات سيارتنا انفجر.

- إذن تفضلوا معنا نوصِّلُكم لمنزلكم، ثم نُصلِح السيارة فيما بعد (تَحِين من الحاجة فاطمة نظرة إلى السيدة الجالسة داخل سيارته) ليس معي سوى والدتي في السيارة، وهي ترحب بذلك.

- جزاك الله خيرا يا بني، هذا كرم ومُرُوَّة منك (يلتفت لزوجته) هيا يا فاطمة.

- (يبدو عليها التردد) والمشتروات؟ هل سنتركها في صندوق السيارة هكذا؟

- (ينظر إليها معاتبا، ويهمس في غَيْظ) أهذا وقته يا فاطمة؟!

- (يتدخل أحمد متفهماً) إنها محقة يا عمي، هناك مُتَّسَع في سيارتي، لحظة واحدة (يسرع أحمد يحدث والدته في حين يتجه الحاج عادل والحاجة فاطمة لسيارتهما لإحضار الأكياس)

- أعتذر يا أماه إذ عَرَضْتُ ذلك قبل استئذانك، ولكنني أعلم أنك مسارعة في الخير.

- معك حق يا بني، (تنزل من السيارة) افتح لي الصندوق لآخذ أكياس في حِجْرِي، وضع أكياسهم هم في الصندوق.

- أواثقة أنك ستكونين مرتاحة يا أماه؟

- لا تقلق يا عزيزي، إنها ليست أكياسا كثيرة (تأخذ أم أحمد أكياسها وتجلس في المقعد الخلفي).

- (يضعان الأكياس أمام سيارة أحمد) حسنا، سأرتبها أنا مع الشاب، واجلسي أنتِ يا فاطمة مع السيدة في المقعد الخلفي (تذهب الحاجة فاطمة، ويأتي أحمد لمعاونته) نعتذر لما سببناه من إزعاج لكم يا بني.

- لا إزعاج على الإطلاق يا عمّاه.

- جزاك الله خيرا يا..

- (يبتسم له) أحمد، اسمي أحمد.

- (يصفاحه) وأنا الحاج عادل، سررت بالتعرف إلى شاب مثلك يا أحمد!

دق جرس الباب في منزل سلمى، فسارعت تفتحه مرحبة بعودة والديها،
وإذا بأمها تستوقفها قبل الكلام وتدفعها برفق إلى الداخل، هامسة وهي
ترسم حول رأسها دائرة :

- بسرعة! اصعدي وارتي حجابك، معنا ضيوف.

- (تهمس متعجبة) ضيوف؟ من هم؟

- (تدفعها ناحية الدَّرَج في عجلة) أحمد، أستاذك في الكلية.

- (تتسمر مكانها كتمثال من رخام) أحمد؟ الأستاذ أحمد؟!

- (يتناهى لسمعهم صوت الحاج عادل مع الضيوف، فتدفعها أمها بضيق)
هيا يا سلمى، أسرع!

أغلقت سلمى باب غرفتها وهي تلهث، ثم وضعت أذننها على الباب عليها
تتبين الأصوات في صالة الاستقبال. لم يكن عسيرا عليها أن تتبين نبرة
أحمد عن بعد على خفوتها، أو لعله لم يكن عسيرا على أذننها هي! أليست
الأذن تعشق قبل العين أحيانا؟

سارعت سلمى لدولابها، وأخرجت عباءة استقبال، وراحت تبدل ملابسها في عَجَل، وهي لا تكاد تصدق ما هي فيه!

الأستاذ أحمد في بيتنا! في الدور السفلي! كيف؟!

أيعقل.. أيعقل أنه.. جاء يخطبني؟! بهذه السرعة؟ مستحيل!

قَطَعَتْ عليها والدتها سَيْلَ الأفكار الهادر وهي تفتح باب الغرفة، وتطل برأسها هامسة في ضيق:

- لماذا تأخرت يا سلمى؟ إننا ننتظرك!
- (تُعَدِّل حجابها وهي تهمس بدورها) لماذا جاء؟
- لأن أباك دعاه، هيا أسرع!
- ولماذا دعاه؟
- (تأخذ بيد سلمى في حماستها المعهودة) دعي التحقيق جانبا وتعالى الآن.
- (تحاول تخليص يدها من قبضة أمها) انتظري يا أماه ولا تتعجليني، لست جاهزة بعد!
- (تتأملها) ماذا ينقص أكثر من هذا! هيا، لا تماطلي.

ولم تدرك والدتها أنها حقا لم تكن جاهزة!

وأن قلبها هو الذي كان يماطل لا هي!

جلست سلمى إلى جانب والدتها وبصرها لا يكاد يفارق موضع قدميها، فتولّت والدتها التحيات والتعريفات نيابة عنها، إذ لم تكن المسكينة لتقدر على أكثر من أن تغمغم بكلام مبهم، لا يكاد يفارق شفثيها حتى يقح في منتصف الطريق، قبل أن يبلغ أيا من الأسماع.

ثم ساد صمت قصير بعد أن خفّت زوبعة التعارف والسلام، ربما لم يزد على ثوان، قبل أن تلتقط الحاجة فاطمة طَرف الكلام مرة ثانية، فتدير حوارا مع والدّة أحمد. كان ذلك النوع من الجِوارات الذي تتولى الوالدات عبء الاضطلاع به في أوقات ارتباك الأبناء، فيتكلمن دون أن يقلن شيئا، ويكثرن عبارات المجاملة والترحاب، حتى تَثْقُل على الأسماع. ثم يختمنه بنظرة خفيّة يودّعنها معاني الرجاء المغلّف بشيء من التهديد، إذا لم يحاول أحد الأبناء التقاط طرف الحديث قبل أن يَهْوِيَ في وديان الصمت مرة أخرى.

إنّه ذلك النوع من الصمت الذي تَمُجُّه الأسماع، وتُهرَع إليه القلوب، قلوب المحبين!

كان الحاج عادل أسبق من سلمى وأحمد في تَلَقُّف الإشارة من زَوْجته، التي كانت بدورها أسبق في تسديد النظرة الختامية لزوجها قبل والدة أحمد لابنها، فالتفت الحاج عادل إلى أحمد مكررا شكره، ثم قال :

- سبحان الله! تأمل تقدير الله أن تتعطل بنا سيارتنا في ذات الطريق والوقت الذي مررتم فيه، حتى نتعرف إلى أستاذ ابنتنا.

- الشرف لنا يا عمّاه، جُزيتم خيرا فقد أحسنتم ضيافتنا.

- وكيف سلمى في دراستها يا أستاذ أحمد؟

توجهت كل الانظار إلى سلمى تلقائيا، فرفعت ناظريها إلى والدها فيما يشبه العتاب من شدة الحرج، وقد تصاعد الدم إلى وجنتيها حتى كادت تنفجران بحمْلِهِما، واشتد وَجيب قلبها كأنه قَرع طبول حرب على وَشْك الاندلاع. وما حَفِي على أحمد ما تُكَابِده، فما زاد على أن ابتسم في تفهّم وهو يُحوّل بصره إلى والدها :

- أقل ما يمكن أن يقال هو أنها ممتازة، ولها أسلوب رصين وفكر محكم التنضيد، لو لم يكن لطالبة لظننته أسلوب أستاذة.

- (تندفع الحاجة فاطمة في زَهو) طبعاً، طبعاً، لقد ورثت هذا عن أبيها فله مكتبة عارمة يعكِف فيها أغلب وقته.

- (ينظر لابنته نظرة فخر) بل سلمى - ما شاء الله - متعلمة نجيبة، تفوقني كثيرا في اطلاعي.
- (أحمد متوجها لسلمى) هل تكتبين نثرا أو شعرا يا أستاذة سلمى؟
- للمرة الأولى في حياتها رنّ اسمها في قلبها بدل أن يرن في أذنيها، كم بدا الوقع مختلفا حين صدر عنه هو بالذات، في جو الاجتماع العائلي ذاك في بيتها. وعلى الرغم من بساطة السؤال، فقد ارتجّ على سلمى واحتبس لسانها في حلقها، فهو لم يوجه لها سؤالاً صريحا منذ جمعهما المجلس. وكأنما أشفقت أمها مما اعتراها أن يرسل عنها رسائل سلبية أمام الضيوف، فسارعت تقول بابتسامة عريضة :
- سلمى تكتب في كل شيء!
- (مبتسما من حماسة والدتها) إذا كان الأمر هكذا فليسوف يسرني أن أطلع على كتاباتها. ولي صديق يرأس تحرير مجلة أدبية، وهي بعد في أعدادها الأولى فليس لها صيت ذائع حتى الآن، لكن لو أحبت الأستاذة سلمى أن تنشر فيها كبداية، يمكنني أن أصليكم به إن شاء الله.
- (يرد والدها شاكرا) سيكون هذا كرما منك يا أستاذ أحمد.

- (يومئ أحمد لوالدته) وإذ ذاك فنحن نشكر لكم كرم ضيافتكم،
لكن لا بد لنا من الانصراف الآن. (ينهضان)

- (فاطمة) ألا تبقون حتى العشاء؟

- (تسلم عليها والدته أحمد شاكرة) جزاكم الله خيراً، لكننا تأخرنا
وأطلنا عليكم، في وقت آخر يأذن الله تعالى.

واختتمت الجلسة بالتحيات كما بدأت بالتحيات. وبين تحيات الولوج
وتحيات الخروج، وقفت سلمى كمن هو في حُلُم بين النوم واليقظة، فلا هو
قادر على تصديق الحلم في المنام، ولا هو يقدر أن يكذّبه في الواقع.
واستأذنت بعد انصراف الضيوف لتبدل ملابسها قبل العشاء، في محاولة
لتخلو بنفسها، وإلى قلبها.

وأما ما كان من أمر والديها، فقد جلس الحاج عادل مستغرقاً في خاطر ما،
في حين أرسلت الحاجة فاطمة نفسها على سَجِيَّتِها، تفكر بصوت
مسموع، وهي تُعدّ مائدة العشاء :

- أرايته يا أبا أحمد؟! شاب يملأ العين بهجة والقلب سرورا، ووالدته
سيدة قمة في التهذيب والمودة..

ثم سكتت قليلا علّ زوجها يشاركها خواطرها، فلمّا لم يرد التفتت إليه متسائلة : أبا سلمى؟

- (ينظر إليها كمن انتبه من حلم) هه؟ نعم يا فاطمة؟

- ألم تسمع ما قلت؟

- (كأنّما لم يسمع سؤالها) هل رأيّت كيف كان ينظر لسلمى؟

وكأن الحاج عادل وقرّ عليها عناء البحث عن مدخل، فسارعت ترد عليه، قبل أن يستعيد دفعة الحديث منها:

- ابنتنا صارت عروسا يا أبا سلمى!

أطرق الحاج عادل ساكتا، فما كان له أن ينكر ما استشعره بقلب الأب. غير أنه لطالما طوى قلبه على أمنية، عزّ عليه أن يأتي من يُعكّر صفوها. كان الحاج عادل يرجو أن تتزوج سلمى بعد تخرجها من ابن أخيه قاسم.

وقد كان قاسم بحق زين شباب الأسرة خلّقا وخلّقا. وزاد على ذلك أنه صار رجلا وهو بعد في بكرة الشباب، إذ تُوفّي والده وهو في السابعة عشرة من عمره، فقام بمكانه خير قيام ما استطاع، وكان لأمه وأخواته خير مُعيل ومعين من وقتها. وما كان الحاج عادل ليرى هدية أثمن من من ابنته وقرة عينه سلمى، ليسبغها على ابن أخيه الأثير عنده.

وكان زوجته استشفّت ما يعتَمِل في صدره، وقرأت على جبينه المُطَرِّق ما يجول في فكره الساهم، فجلست إلى جانبه ووضعت يدها الحانية علي يديه وهي تقول : "هَوْن عليك يا أبا سلمى، فإني لأعلم كم ترجو أن تكون سلمى لقاسم، ووالله إنه لكفاء كريم.."، وسكتت كأنما لم تجرؤ على النطق بما قال قلبها.

لقد كانت بقلب الزوجة تؤيد زوجها، ولكنها بقلب الأم رأت في أحمد - لَمَّا ظهر - صهرا لا يقل كفاءة عن قاسم، بل لربما كان يفوقه بما حصّل من درجة علمية مرموقة. فقد كان قاسم يشتغل بتجارة الاستيراد والتصدير، ولم يكن صاحب شهادة علمية ذات وجهة، لأن تفكيره انصب على رعاية أمه وأخواته، وسدّ الثغرة الناجمة عن وفاة والدهم. فكان لقاسم هموم وأولويات رأى التفرغ للدراسة والتفوق العلمي إلى جانبها ترفاً، لم يكن له أن يقدر عليه وقتها.

وكان زوجها فهم عنها ما دار بخلدها، وجمع إلى ذلك شعوره بأن قلب ابنته مال لغير من اختاره لها، فرأى أن يترك الخوض في أمر هو بعد في ضمير الغيب. ثم رَبَّت على يدي زوجته، وقال مبتسما :

- قومي نتناول العشاء يا فاطمة، ودعينا من هذا الحديث، فبين غمضة عين وانتباهتها، يغيّر الله من حال إلى حال. كلاهما صهر كريم، والخيار لسلمى وقلبها، فلن أجبرها على ما أريد، ولن أعارضها فيما تريد.

تنفست زوجته الصعداء في ارتياح، ونهضت تقبل رأسه، فما أرادت هي أكثر مما سمعت، وما كان ليسعدها أحمد أو يسوؤها قاسم إلا بقدر ما يسعد قلب ابنتها الوحيدة.

وما درت أم سلمى أن سلمى في ذلك الوقت كانت هي نفسها تبحث عن قلبها، فإذا هو تارة يخفق حتى ليكاد يقفز خارج صدرها، وإذا هو تارة هادئ ساكن حتى لتشك أنه في موضعه.

وكذلك المحبون ..

بين وجيب قلب وخفقان هوى،

وابتسامة ولهان ودمعة جوى.

وما يكون في النهاية لقلبين أن يجتمعا ..

إلا أن يشاء الله رب العالمين.

الفصل الثالث

سر من الماضي !

تحلقت الأسرة الصغيرة حول المظروف الأنيق، الذي وصل لسلمى منذ دقائق معدودة. راحت سلمى تَفْرُكُ كَفَّيْها في تَرَقُّبٍ بينما والدها يفتح الظرف بعناية، في حين كانت الحاجة فاطمة تتلمل من بطء زوجها حين يكون الكل متلهفا. وانشق المظروف أخيرا عن المجلة الأدبية، التي وعد أحمد بالكتابة لرئيسها لتنشر سلمى فيها. وسارع الأب يقلب الصفحات بحثا عن اسم ابنته، حتى إذا وصلوا للصفحة المنشودة تعالت صيحات الفرح، واحتضنت الحاجة فاطمة سلمى طويلا، في حين كان الحاج عادل يتمتع ناظريه فخورا باسم ابنته مكتوبا بالخط العريض وسط الصفحة : "بقلم : سلمى عادل بهاء الدين".

وكانت الحاجة فاطمة أول من تَنَبَّهَ إلى الرسالة المطوية بعناية داخل المظروف الأنيق، فناولتها لسلمى. كانت رسالة ثناء من رئيس التحرير، يُشيد فيه بأسلوب سلمى ويصدِّق على تزكية أستاذها صديقهِ العزيز أحمد. أما سلمى، فقد كانت جُلَّ سعادتها نابعة من علمها بأن أحمد لا بد قارئ ما

كَتَبَتْه! وكذا قلب المُحب، يختلف تقدير الناس أجمعين في عين صاحبه عن تقدير الحبيب المُجْتَبَى.

صَعَدَت سلمى لغرفتها برسالة التزكية، وقلبها يموج في بحور من السعادة. ألقت بنفسها على فراشها وخبئت وجهها في وسادتها، وقد تَصَرَّجَ خداهما بالحُمرَة كأنهما وردتان بديعتان. وطاف بخاطرها طيف العروس فضحك قلبها سرورا. لقد رأت من معاملة أستاذها الشاب وحفاوته بها ما يقوّي أملها فيما وَقَرَّ في قلبها، من أن أحمد يُكِنُّ لها أكثر مما يَكُنُّ أستاذ لطالبة، تماما كما أنها تُكِنُّ له أكثر مما تكن طالبة لأستاذ.

أحقا يرى فيها أحمد شريكة العمر؟ أحقا سيكون لها أن تقاسمه قلبها ويقاسمها عالمه؟ متى يأتي ذلك اليوم الذي تطرق فيه باب منزلي كما طرقت باب قلبي يا أحمد؟ تدخله وحيدا، ثم تخرج منه وأنا معك، يدا بيد! تحت سمع وبصر العالم أجمع!

انتهى أحمد من صفّ أوراق طلبة الفرقة الرابعة في صندوق سيارته، وانطلق متجها للمنزل، ليبدأ حملة تصحيح أوراق بحث التخرج. حانت منه نظرة إلى المقعد المجاور، فألقى عليه أعدادا من المجلة الأدبية، فابتسم إذ تذكر مقال سلمى المنشور فيها. لقد قرأه مرارا وتكرارا حتى كاد يحفظ أكثره.

لله دُرُّها تلك الشابة! لقد مَلَكْتَ عليه لُبُّه وهو الذي كان غارقا في الدراسة حتى أذنيه، فلم يطرق طارق الحب قلبه، ولا هو أجاب النداء حتى عرفها. صبرا يا أحمد! شهران وتنتهي من امتحاناتها، وتنتهي أنت من أمور التصحيح، ثم تتقدم لِخِطْبَتِها رسميا! نعم سأخْطِبُها! وستصير سلمي عروسي، وزوجتي، وحليلتي.

ولم يخطر له على بال ما ستحملة له تلك الأوراق من مفاجآت!

ولا بالرياح التي ستهب.. بما لا تشتهي سفنه.. ولا سفنها.

اعتادت أسرة أحمد طقوس تلك الفترة من كل عام دراسي، فأخته الوسطى أروى تعتني بالصغرى رؤى لتَحُدَّ من لَهْوِها في أنحاء المنزل. وتتولى والدتهم شؤون أحمد وترتيب غرفته، ولا يُسمح لغيرها بدخولها جِرسا على أوراق الطلبة من الصَّياع أو التلف.

الشيء الوحيد الذي جَدَّ على طقوس الأسرة تلك العام ولم يكن في الحُسبان، هو إصابة والد أحمد بمرض القلب. كانت صحته قد رَقَّتْ مع كِبَرِ سنه، ففاجأه هذا المرض ليلزمه الفراش في أغلب الأحيان. وقد جاهد الوالد ليبقي على جو الأنس والمرح في المنزل، فكان يمضي كثيرا من وقته

في مداعبة رؤى، وقص الحكايات لها ولأروى، خاصة قصص البحارة والسندباد باعتبار أنه كان كثير الترحال بحرا في شبابه.

الوحيدان اللذان لَحِظَا مَسْحَة حزن دفين جَلِيَّة في عينيه هما زوجته وأحمد. وقد كان أحمد منذ صغره يَلْحَظ تلك النظرة، لما تميز به من رَهافة الشعور ودقة الملاحظة، غير أنه كلما حاول أن يسأل أمه عن سر والده، امتنعت عن الإجابة، لأنه أمر خاص بوالده ليس لها أن تُفْشِيَه إلا أن يفعل هو. ولم يَجْسُر أحمد على مفاتحة والده في ذلك الأمر، خَشْيَة أن يثير لديه شُجونا يتحاشاها. لكن تدهور صحته وشعوره بِدُئْوِ أَجَلِه، زادا والد أحمد شعورا بالذنب، وبدأ ذلك السر المحبوس يجاهد للخلاص.

تنهد أحمد للمرة العاشرة وهو يصحح أوراق الطلبة الجامعيين، التي لم يكن كثير منها يتميز عن كرايس تلاميذ الابتدائية في شيء! نفسُ الأخطاءِ الإملائية رغم كثرة تنبيهه عليها طوال العام، مُطَعَّمَة بشيء من الأخطاء النَحْوِيَّة، مجموعة كلها في بَوْتَقَة من الخط السيء، كأنما الورق لطفل يتعلم الإمساك بالقلم! "واها عليك يا ابنة الضَّاد!" . قالها أحمد في نفسه، ثم اتَّبَعها بأبيات من قصيدة حافظ إبراهيم :

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَاتَّهَمْتُ حَصَانِي ** وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ** فهل ساءلوا الغواص عن صدفاقي

قطع عليه تَرْتُّمَه بالأبيات طرق حَنون على الباب، فتبسم أحمد ونهض يفتح باب الغرفة متوقعا رؤية والدته، وكم كانت دهشته إذ رأى والده، فبادر يقدم له كرسيًا ليجلس، وجلس هو قُبالة مرحبًا :

- أسعدتني بزيارتك يا أبتِ!

ابتسم والده في إعزاز وهو يتأمل ولده الشاب النابه وقد صار أستاذًا وحوله أكوام الكتب والأوراق، ثم تناول أحد الأبحاث من الكومة المُكدَّسة على المكتب، يتشاغل بالتقليب فيها، كأنما يبحث عن مدخل مناسب لما يود أن يقول :

- كيف هو مستوى الطلبة يا أحمد؟

- (يبتسم) متوعك قليلًا!

ابتسم أبوه وهز رأسه متفهمًا، ثم عاد لإطرافه كأنما تردد فيما جاء يتحدث بشأنه. فالتقط أحمد طَرَفَ حَيْرته، وبادره بما شعر أنه يود أن يبوح به :

- أسمح لي أن أسألك سؤالًا يا أبتِ؟ ولك ألا تجيب إن رأيت فيه تطفلا مني.

- (يضع أوراق البحث الأول من يده، ويتناول أخرى يقلبها، كأنما يحاول أن يبدو متشاغلا) تفضل يا بني.

- (يتأمله مَلِيًّا في قلق من ردة فعله، ثم يسأل بحذر) هل لي أن أسأل عن سر نظرة الحزن التي أراها في عينيك يا أبي؟ كأن.. كأنك تحمل منذ زمن هَمًّا ناء بثِقَلِه كاهلاك.

- (يسكت فترة، ثم يضع البحث الثاني، ليتناول الثالث ويعود لتقليبه كسابقاته، متحاشيا نظرات ولده)..

- (في قلق) لو أن سؤالي أزعجك يا أبي فإنني أعتذر..

- (يتنهد وهو لا يزال مُطَرِّقا) لا يا ولدي. لقد أصبت كبد الحقيقة.. (يغمض عينيه ويرفع رأسه، كمن يسترجع أمرا طال عليه الأمد فنَسِيَه) إنه دَيْن قديم، أخفقت في تأديته، فلست أدري كيف أجيب حين أسأل عنه يوم الدَّين!

- (مستغربا) دَيْن؟

- (يفتح عينيه ببطء كمن يتألم مما رأى في خياله) نعم يا ولدي.. (يقع بصره على ورقة البحث التالية أمامه فيتسمّر للحظة، ثم يختطف البحث ليحدّق في الاسم المكتوب على غلافه) إنها هي.. هي.. (ترتعش يداه بقوة، ويعجز عن النطق إذ يبدأ جسده في الارتجاف)

- (ينهض من كرسیه فزعا، ويَهَب لیسند أباه الذي تهاوى في مقعده) أبي!
أبي! (يصيح مناديا) أمي! أروى!

وقف أحمد أمام باب الغرفة التي يرقد فيها والده في جناح العناية المركزة،
وقد حمل رؤى النائمة بين ذراعيه، في حين جلست أمه تنشج وتبكي، وإلى
جانبها ابنتها أروى تشاطرها البكاء.

- (تنظر لأحمد بعينين دامعتين) ألم يقل الطبيب ألا نعرضه لمفاجآت أو
صدّامات لأنه لن يحتمل؟! ماذا قلت له يا أحمد؟! ماذا فعلت؟!

- (ينظر لوالدته بعينين ملؤهما الندم) صدقيني يا أماه، إنني لم..

بتر أحمد عبارته إذ أدرك أن لا اتهام ولا دفاع سيرد ما حدث وانقضى،
وأنه لم يبق إلا الدعاء والتسليم. وإذ ذاك، خرج الطبيب المناوب من الغرفة،
فسارعت نحوه الأسرة، وكلهم يستنطقه الإجابة السحرية لذلك السؤال
الخالد: هل سيكون بخير؟ خفض الطبيب بصره في أسي، ليتحاشى تلك
النظرات المعلقة به تعلق الطفل التائه بتلابيب أمه، وغمغم في مواسة:
"لقد بذلنا ما في وسعنا والشفاء بيد الله وحده، فعليكم بالدعاء".

انهمرت الدموع من عيني والدة أحمد وهي تسترجع، وتبعثها ابنتها بنشيج
متقطع، في حين نكّس أحمد رأسه مُحوقلا. فبادر الطبيب كأنما يطمئنهم

أنه ما زال على قيد الحياة : "الأستاذ ناصف يطلب مقابلة ابنه أحمد على انفراد". فتبادل ثلاثتهم نظرة قلقة، ثم ناول أحمد رؤى بحرص إلى أروى، ودلف إلى حيث يرقد والده.

ولولا أن أمه وأخته كانتا غارقتين في البكاء، لربما تمكنتا من سماع تلك الشهقة التي ترددت بعد حين في جنبات الغرفة!

شهقة مُحِبِّ مُلتاع!

ومحتَضِرٍ مودّع!

الفصل الرابع

طلحة نجلاء !

انهمك أحمد ظاهريا في جمع حاجياته في صناديق استعدادا لنقلها لبيته الجديد، بينما قلبه هائم في أودية الحسرات. كان يعمل بحركات آلية وينقل الأشياء بتثاقل، كأنما يدها مُكَبَّلَتان بالأغلال. مرّت خمسة أشهر منذ وفاة والده، وما زال غيابه مثار حزن للعائلة بأسرها. لكن السرّ الذي باح له به والده قبيل وفاته كان صاعقة نزلت عليه بالذات، فأصابته أحلامه في مقتل، وقطعت عليه أمانى الزواج بمن أحبها وأحبته.

طرقت والدته الباب بحنان شابه انكسار مكلوم، فأذن لها بالدخول في نبرة حملت نفس الرنين، ووقف كلاهما يحدق في الآخر برهة، وفي العيون رسول عن القلب حين تعجز الكلمات. لم تكن تعلم بطوية قلبه، ولم يعد يرى من نفع في الكشف عنها، بعد أن حيلَ بينه وبين سلمى بسور، ظاهره الوفاء وباطنه العذاب. كانت تحسب أن منبع حزنه البادي وفاة والده، وفي ذلك كثير من الصحة، وإن لم يكن كلها.

- (تغمغم) سامحنا يا بني إذ تجري استعدادات العرس في جو الكآبة هذا..

- (يهز رأسه وهو مستمر في تغليف الصناديق) ما باليد حيلة يا أماه. إنها وصية أبي.

وكأنما فجّر وقع الكلمة دموعها التي لمّا ترقأ بعد، فجلست على كرسي قريب، وهي تجهد لتكتم صوت بكاءها. لم يحتمل أحمد مرأى أمه على تلك الحال، فنهض واحتواها بحنان دون أن يقول شيئاً، إذ لم يكن من الكلمات ما يمكن أن يقال، أو يكفي إذا قيل.

سبحانك ربي! سبحان الخالق الوهّاب!

أي رحمة وأي مودة تلكما اللتين تجمعان قلبين طوال سنوات لا يعلم عددها إلا الله، فتتوالد عنها قلوب صغيرة، وتكبر تلك الصغيرة ويكبران معها، ويهرمان، وما يزالان متحابين، بل ينصهران في بوتقة لا مثيل لها، إلا في ظلال ذلك الرباط المبارك وفي أمان ذلك الميثاق الغليظ. حتى إذا كتب عليهما الفراق من بعد الاجتماع، فكأنما مُزق القلب الكبير، لكن دون أن يعود لذلك الصغير الذي بدأه فرداً، بل يظل ما امتدت به الحياة وكتب له البقاء يشعر أنه ممزق، وأنه فقد بضعة منه لا بديل له عنها.

ترك أحمد والدته ترسل دموعها على صدره الحاني، وفي قلبه هو كذلك من الأحزان ما الله به عليم. وتتابعَت الرَّقَرَات تتردد في صدره تَتَرَى، فأمسكها كُلَّها في تَجَلُّد، لا يقدر عليه إلا من سَلَّمَ لأمر الله، وأحنى قلبه لِمَا جرى به تقدير العليم الخبير، وإن خفيت الحِكمة والأسباب حتى حين.

وعاد بذاكرته ليوم أمس، اليوم الذي طالما مَنَى نفسه به، والباب الذي طالما رجا أن يطرقة، فيدخله فردا ويخرج منه اثنين. فإذا اليوم غير اليوم، وإذا الباب ليس الباب، وإذا به يتقدم للزواج من صفاء، صديقة سلمى ورفيقة دربها!

وإذ مرَّ بمخيلته وقع الخبر على تلك الأخيرة، شرع عَقْلُه يفكر فيما يقول لها، وكيف يشرح لها ما حصل، فلا ريب أن دعوة حفل الزفاف وصلتها، ولعلَّها صارت مثله مكلومة الفؤاد! لا بد أن يصارحها بحقيقة ما جرى، فعسى أن يكون في بعض الصدق كثير من العزاء، والله المستعان.

أغلقت سلمى باب غرفتها على نفسها، رغم علمها بأنها وحيدة في المنزل، فوالدُها لن يعود من عمله قبل ساعة على الأقل، ووالدتها ذهبت لزيارة جارتهم. ووقفت جامدة تحديق ببطاقة الدعوة لحفل الزَّفاف التي وصلتها من صفاء، ويدها ترترجان في عصبية. فلما أيقنت أن البطاقة لن تخرج عن

صمتها لتبرر لها ما جرى، قذفت بها على الأرض وألقت بنفسها على فراشها، وتفجرت دموعها كعين ماء صغيرة تبلل وسادتها، وهي تشهق شهقات عنيفة، يخال سامعها معها أن روحها ستزهق لا ريب.

لقد تهشَّم قلبها وتناثر قطعاً صغيرة بين ضلوعها. قصورها التي بنتها طوال العام دكت دكا في دقائق معدودات، وصارت هباء تذرّوه الرياح.

أكان يعبث بها طوال تلك المدة وهو يرسل لها أمارات إعجاب وحفاوة لا تخفى؟

أكان إعجاباً بطالبة نابهة فحسب لا بزوجة مستقبلية؟

مستحيل!

لا يمكن!

فكيف تكون صفاء هي ملكة قلبه إذن وبينهما بُعد المشرقين؟

ما الذي يميز صفاء عنها لتظفر بفارس أحلامها هي؟

ما الذي تملكه صفاء وتفتقر هي إليه؟

صفاء الخائنة!

لا! إنها لتعرف من نبل صفاء وخلقها ما يربأ بها عن هذا الوصف. وإنها لتعلم يقينا أن لو كانت صفاء تدري بمشاعرها لرفضت أحمد لأجلها، على حاجتها الماسة لزوج يستنقذها وأمّها من صَيِّق العيش، ولآثرتها به إبقاء لمودتهما.

بل هو!

نعم هو!

هو الخائن العاثر!

"أيها الغادر!"

صرخت بها سلمى في أعماقها، ودموعها تنهمر بحُرقة، لتحفر أخدودين على خديها الملتهبين..

لماذا يا أحمد؟! لماذا!؟!

انتزع سلمى من بحيرتها الصغيرة صافرةً خافِةً من هاتفها معلنة وصول رسالة إلى بريدها الإلكتروني. جَفَلت في البداية، ثم عادت تدفن رأسها في وسادتها، غير أن خاطرا دفعها لتنهض متثاقلة، راجية أن تكون منه، وقد كانت!

"إلى الأستاذة الكريمة سلمى ..

يشهد الله كم لاقيت من عنت حتى كتبتُ هذه الرسالة أخيرا، لأبرئ نفسي
أمامك، ولتعلمي أنني لم أكن عابثا فيما أوصلتك لك من أمارات وصالٍ مرجو.
قد علمتُ من صفاء أنك عرفت أخيرا بالخبر، ويعلم الله ما كنت أريد أن
تعلمي على هذا النحو لئلا تذهب بك الظنون بعيدا، غير أنني كنت أبحث
عن طريق مناسب أبلغك به. فها هي ذي حجتي بين يديك، ولتحكمي في
أمري بحكم من عهدتها عاقلة متفهمة..."

الفصل الخامس

قادرًا مقدورًا

"قبل أربعة أشهر، تسلّمت أوراق أبحاثكم لأبدأ بتصحيحها. ويشاء الله أن أن يدخل أبي في نفس اللحظة التي جلست فيها إلى مكتبي، والأوراق بين يدي. فأخذ يقلب الأبحاث واحدا تلو الآخر وهو يحادثني، فوالله ما هي إن وقعت عيناه على اسم صفاء حتى انتزع ورقتها انتزاعا، وقد اتسعت حدقتاه كمن مسّته صاعقة من السماء، ثم شهق شهقة عظيمة وهوى إلى الأرض، وقد كان - رحمه الله - مريضا بالقلب. نقلناه إلى المستشفى فورا، ولكن الطبيب قال إن الصدمة كانت أقوى من أن يحتملها مُسنّ في مثل حالته، وأوصانا بالدعاء والأمل في رحمة الله. ثم طلب أبي رؤيتي منفردا، فدخلت عليه، ورأيت غشاوة الموت تكتنفه، وقد شحّب وجهه، وخفّت بريق الحياة في عينيه. جلست بجانبه أرتجف هَلَعًا عليه، وأكبّبت على يديه أقبّلها، ثم سكنتُ بإشارة منه. ومضى أبي - رحمه الله - يروي لي قصة صفاء :

"كان الأستاذ عامر - والدُ صفاء - صديقَ والدي المقرب ويَعُدُّه أخاه في الله، وقد دعم والدي في مشروعه، وأعاناه على المُضَيِّ قُدْمًا والتصدي لحييتان

المال، لأنه كان أكثر يُسرًا من والدي حينها، دون أن يقبل على معونته لأخيه أي مقابل أو مردود. ثم تفرقت بهما السبل بعد زواج كل منهما، ومع ذلك اتصلت بينهما أسباب الود على بعدهما، حتى جاء يوم انقطعت فيه أخبار أ. عامر، وتوقفت رسائله تماما، بعد سفره بزوجه إلى خارج البلاد لعمل مشروع ضخّم، أودع فيه جُلَّ ثروته.

"أرسل أبي إليه الرسائل تلو الرسائل، وحاول الاتصال به، لكن دون جدوى. ثم وصلت أخيرا آخر رسالة من أ. عامر، يقول فيها إنه خسر ثروته بعد انهيار المشروع بكامله، وإنه أصيب بالشلل إثر تلك الصدمة وهو الآن على فراش الموت، ولم يبق له سبب في الدنيا إلا زوجته الشابة، وابنة اسمها صفاء عمرها سنتان، وهو يتركهما أمانة في عنق والدي، إذ لا معارف له غيره، ويستحلفه بالله أن يستوصي بهما خيرا.

"غير أن الرسالة وصلت متأخرة إلى أبي بعد أن كان أ. عامر قد انتقل خلالها إلى الرفيق الأعلى، وانتقلت زوجته بابنتهما إلى مسكن آخر أكثر تواضعا وأقل كلفة، دون أن تترك ورائها عنوانا ولا أثرا، بعد أن قطعت الرجاء في نجدة صديق زوجها، ولم تعلم بتأخر الرسالة عنه. اجتهد والدي في التَّقَصِّي عنهما مدة زادت على العامين، ولكن دون أدنى نتيجة. فنذر لله إن أمكنه من العثور عليهما قبل موته، أن يزوج ابنته صفاء من ابنه الوحيد – أنا - وهذا ما كان.

"وما إن انتهى أبي من قصته حتى استعبر وبكى، وصار ينشج وهو يحدثني عن مناقب صديقه وحبيبه في الله. وطَفِقَ يسألني عن معيشة صفاء ووالدتها، فلم يكن لي بذلك من علم إلا أنهما كانتا في صَيِّقٍ من العيش. فاشتد بكاؤه وهو يتضرع إلى الله أن يسامحه على تقصيره، ومضى يستحلفني بالله ويأخذ علي العهود والمواثيق أن أفِيَ بنذره. ووالله ما بَدَرْتُ مني بادرة لمراجعتة إلا غضب وثار، وأقسم لِيَمُوتَنَّ ساخطا علي، فلا يبارك الله لي بعدها أبدا. ومضى هكذا تارة يتوعدني، وتارات يرجوني ألا أخيب رجاءه، وهو الذي أفنى عمره وأبلى شبابه ليصنع مني رجلا، وحقا لأبي عليَّ يَدٌ لا تُجحد. وكذلك راح يتوسل إليَّ ألا أخيبه أمام أخيه حين يلقاه، بل نادى أُمِّي وأختي واستحلفهن ألا تمضي العِدَّة إلا ويُقام حفل الرَّفَّاف بعدها مباشرة!

"ولو رأيته في النزع الأخير وهو يبكي متوسلا إلي، لَرَحِمْتِهِ أَنْتِ كما رَحِمْتُهُ أنا، ولما وجدتِ غَضَاصَةً في إثاري طاعته والوفاء بنذره وتأدية أمانته، وإن لم يكن ما اختاره أبي هو اختيار قلبي. والله وحده يعلم مبلغ ما أعانيه وأنا أكتب إليك هذه الكلمات، ويعلم مبلغ ما أَكُنْه تجاهك ، ولكن قَدَّرَ الله وما شاء فعل .

"ولا أملك في الختام إلا أن أدعو لك الله صادقا أن يرزقك الزوج الصالح، الذي يكرم صحبتك ويقدر جوهرك الثمين. والله تعالى الكفيل بتضميد الجراح والآلام، ومن يتق الله يُعْظِم له أجرا ، فلنصبر ولنحتسب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أحمد ناصف مصطفى .

لم تستطع سلمى النوم تلك الليلة. وأخذت تتقلب في فراشها تقلّب المحموم وهي تبكي بكاء مريرا، حتى بدأت الساعة تشير لقرب الثلث الأخير من الليل، فألقت عنها الغطاء ونهضت ترجو الأنس بمناجاة رب العالمين، ليخفف عنها ما اشتد عليها من كُرب.

توضأت سلمى، ووقفت تصلي، وترتل القرآن بصوت كسير، وتسكب دموعها بين يدي بارئها. وراحت تبتهل لله أن يلهمها الصبر والرضا بما قضى. ومضت على هذا الحال شطر الليل الآخر، بين زفرات الوجد وشتات الفقد.

قد جرت المقادير بأن يكون أحمد - فارس أحلامها هي - زوجا لغيرها! وأن تكون صفاء رفيقة الصبا وصديقة العمر هي صَرة أحلامها! وقد أرادت، وقد أراد، وأراد الله غير ما أراد، فلم يبق إلا تسليم ورضا، عن يقين واحتساب.

قد ذهب أحمد إلى غير رَجْعَةٍ، ولم يَعدْ لأَيٍّ منهما على صاحبه من سبيل،
فما أرادته إلا بالحلال، وما تمنته إلا تحت كَنَفِ الرباط المبارك، فلما انفصم
الرباط وآلَ لغيرها، ضُربَ بينهما بسور له باب، ليس لأحدهما أن يفتحه، إلا
أن يشاء الله شيئاً.

وما يدريها ألا يكون في فراقهما خير لهما؟ بل لعل صفاء أحوج منها إلى
زوج حليم كريم السجايا مثله. وما تدري هي وما يدري هو، لكن الله يدري
وهو علام الغيوب، ومقسم الأرزاق يقسمها بحكمته كيف يشاء، فلعل الله
يرزقها خيراً مما تمت، وإن كان غير من تمت. وهكذا راحت سلمى تنتقل
من خاطر رباني إلى آخر، حتى سكنت أعاصير نفسها قليلاً وهدأت
عواطفها المتلاطمة هَوَنا ما.

ثم أَبْرَمَت سلمى أمرها!

لسوف تحضر حفل زفافهما!

إنها كالأخت لصفاء، ولن تكسر قلبها في يوم سعادتها لأنانية جوفاء،
فحزنها لن يعيد ما كتب الله أنه ليس من نصيبها، ولا سيمنح عنها ما قَدَّرَ
الله أن يكون نصيبها. ستحضر عُرْسَهُما، وستشهد بعينيها صفاء وهي
ترفُل في الثوب الذي تمنته لنفسها، وقد تشابكت يدها مع فارس أحلامها
هي. ستحضره لتتد بيدِها الحُلُم الذي حَمَلَتْهُ وَلِيداً، فسَقَط قبل أن

يَکتمَل خَلْقًا سَوِيًّا. سَتَحْضَرُه لِتَسْطَر بِیَدِهَا فَصْلَ النِّهَایَةِ، وَتُسَدِّلُ السَّتَارَ عَلَی قَلْبِهَا الْمَکْلُومَ، الَّذِی تَرْدَدُ فِی جَنْبَاتِهِ قَوْلَ مَجْنُونٍ لَیْلِ فِی مُؤَنَسَتِهِ :

قَضَاهَا لِغَیْرِی وَابْتَلَانِی بِحُبِّهَا!

لَکَ اللَّهُ یَا سَلْمَى!

إِنِّهَا سَتَسْتَعِینَ بِاللَّهِ وَتَسْتَصْبِرُ، وَتَسْتَوَاعِلُ حَیَاتِهَا کَمَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهَا أَنْ تَکُونَ. وَلَسَوْفَ یَتَأَلَّمُ قَلْبُهَا حِینًا وَلِرَبْمَا تَدْمَحُ عَیْنَاهَا حِینَ تَذْکُرُهُ، وَلَکِنْهَا سَوْفَ تَتَحَمَّلُ وَتَجْهَدُ أَنْ تَنْسَاهَا، وَتَدْعُو اللَّهَ أَنْ یَرْبِطَ عَلَی قَلْبِهَا وَیُثَبِّتَهَا فِی مَصَابِهَا.

وَمَا تَمْلِکَ غَیْرَ التَّسْلِیمِ یَقِینًا فِی اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَالصَّبْرَ الْجَمِیلَ احْتِسَابًا بَلَا سَخَطٍ وَلَا شَکْوَى، إِلَّا مَا یَکُونُ مِنْ بَثٍّ لِرَبِّ الْعَالَمِینَ. وَأَکْرَمَ بِهِمَا مِنْ عُدَّةٍ لَکُلِّ مَکْلُومٍ، وَعِزًّا لَکُلِّ مَحْزُونٍ.

ثُمَّ شَقَّ الصَّمْتَ أَخِیرًا صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ الرَّخِیمِ، وَعَلَا أَذَانَ الْفَجْرِ یَنْسَابُ مِنْ بَیْنِ أَنْفَاسِ الصَّبَاحِ الْأَوَّلِ، فِیَطْفِئُ حَرَّ قَلْبِهَا وَیَهْدِئُ مِنْ رَوْعِهَا، وَتَسَلَّلَتْ أَشْعَةُ الْقَمَرِ خَارِجَةً فِی ثُوْدَةٍ، لِتَفْسِحَ لِخِیُوطِ الشَّمْسِ الذَّهَبِیَّةِ مَکَانًا، وَتَسْکُنَ الْکَوْنَ فِی خَشْوَعٍ، وَالْمَخْلُوقَاتِ کُلِّ یَسْبِیحُ بِحَمْدِ اللَّهِ.

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ..

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

"وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا" [الأحزاب : ٣٨]٠

وكان أبوهما صالحا

سيارة العرس مزدانة بالورود والأزهار. إنه يوم زفاف أحمد وصفاء! جلست والدة أحمد إلى جانبه، وأخته أروى ورؤى في المقعد الخلفي. وكعادته منذ بدأت تجهيزات ذلك الزفاف، كان أحمد يبدو ساهما شاردا، كأنما قلبه يساق للذبح، ولا يزال حتى اللحظة الأخيرة يرجو معجزة قلب الموازين.

لم يخفَ على والدته ما اعترى ابنها من تغيير، ظنته في البداية صدمة فقدان أبيه. وكانت تعلم معارضة أحمد لإقامة أفراس في مثل هكذا ظروف، لولا إصرار والده - رحمه الله - . غير أن الشك داخل قلبها لما كثر شروده و طال صمته. ولربما وجدت البسمة أحيانا سبيلها إلى وجهه من ضحكة أو أصوات طفولية مرحة تصدرها رؤى، التي لا تعي بعد معنى أن يغيب من الأسرة عضو غيايا لا إياب منه، أو يضاف إليها عضو جديد لا رجعة عنه، لكن تلك البسمة لا تلبث أن تتلاشى إذا ذكر اسم صفاء، أو أشير

لتجهيزات الحفل .."أواه عليك يا ولدي الحبيب! أأتكون في قلبك أخرى؟
فتلك إذن والله مصيبة أخرى! وأحسن الله عزاءك مرتين!" ..

غير أنها لم تلمح لابنها من قريب أو بعيد بما استشعرت، ولا ألححت على استبانة ما اختار أن يكتّمه. فلئن كان في حديث القلب بعض العزاء، ففي كثير من الصمت والتناسي دواء أي دواء. وإنها لن تفيد إلا أن تنكأ جرحه، أو تزيد مصابه. فخير له وللكل أن يستعين بالله ويصبر، فقد ألزمه والده في عنقه يمينا ما له من إنفاذه بُد، وليقضي الله أمرا كان مفعولا.

أخيرا أوقف أحمد سيارته الفارهة أمام قاعة الحفل، والتفت لأروى ورؤى في المقعد الخلفي :

- هيا يا وردتاي! تكّرّما بالنزول والانتظار في القاعة، وسأذهب مع أمي لاصطحاب صفاء وأمها.
- (الأمّ) انتظري يا أروى (تلتفت لأحمد) خذ أروى معك واسبقانا لاصطحاب صفاء والحاجة لمياء، وأنا سأبقى مع رؤى.
- لكن يا أماه..

- سامحني يا بني، لكنني لست بعد في حالة تسمح لي باصطناع البهجة أكثر من هذا، فدعني هنا عسى ألا أثير جوا من الكآبة بينكم.
- كما تشائين يا أمي.. (تنظر إليه نظرة ذات مغزى، فيلتفت لأخيه) هل تتركنا فقط بضح دقائق على انفراد؟
- طبعاً يا أخي، (تطبع أروى على خده قبلة قبل أن تنزل) هيا يا رؤى، (تمتنع وتصيح مطالبة بحقها في تقبيل أخيها، فترفعها أروى قريباً من أحمد، فتطبع على خده قبلة مبللة وهي تضحك)
- (يضحك) الله! (يقبّل رؤى الصغيرة) هذه أجمل هدايا حصلت عليها اليوم! (ينظر لأروى شاكراً) انتظريني مع رؤى ريثما أتحدث مع أمي، ثم ننطلق معاً.
- خرجت أروى ورؤى من السيارة، ووقفتا غير بعيد في انتظار والدتهما. لدقائق، عمّ السكون جو السيارة إلا من صوت المحرك الدائر، ثم لم تلبث الوالدة أن أخرجت من حقيبتها مصحفاً صغيراً، ذا حوافّ مُدْهَبَةٍ، وقد بدا من حالته أن صاحبه كان ممن يداومون على تلاوته. نظرت والدّة أحمد إلى المصحف بين يديها طويلاً، ثم قالت أخيراً بصوت داعم :
- هذا المصحف أهده إليّ والدك ليلة زفافنا، ولم يفارقني منذ ذلك الحين. (تمدّ يدها بالمصحف إلى أحمد) ولست أجد عندي هدية أغلى ولا أحب إلى قلبي، لأهديها لك في مثل هذا اليوم.
- (ينظر إلى المصحف بتأثر)

- (تردّف وهي تنظر في عيني أحمد) وإني لا أقول لك إلا ما قاله لي والدك يوم أعطانيه : "إنّه شفاء لِمَا في الصّدر".

لثوانٍ ظل كل منهما ينظر في عيني الآخر، والمصحف بينهما، نظرات كانت كقيلة بكشف خبايا القلوب. فقد أدركت أن شكها في محله، وأن قلب ابنها بيد أخرى. وقد عرف هو أنها عرفت، وعرفت هي أنه فهم عنها. ثم مد أحمد يده وتناول المصحف شاكرا، وقبّل يدها، فانحنت على أذنه هامسة : "وعسى أن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا".. ولم تَزِدْ.

ثم خرجت أمه ودَلَفَتْ أروى إلى جانب أخيها، وأدار المحرك متجها إلى بيتها! من بيتها سيصطحب صفاء وأمها، من بيت ملكة القلب ورفيقة الأحلام .. بيت سلمى!

جلست الحاجة لمياء والدة صفاء تنتظر في الصالة، وقد تركت صفاء مع سلمى في غرفتها، في حين تولى والداها الإشراف على ما بقي من تجهيزات الحفل. تلفتت حولها بحذر قبل أن تُمَدَّ يدها إلى حقيبتها فتخرج منها مظروفاً، ثم فتحتة وأخرجت منه ورقة طَبَحَ عليها الزمن بصمته.

كانت تلك رسالة كتبتها حين اشتد عليها المرض ذات مرة، واستشعرت دنو الأجل، تشرح فيها لصفاء ما خفي عليها من أمر والدها. فلم تكن قد زادت على أن أخبرتها أن والدها توفي إلى رحمة الله وهي طفلة، وأنه كان

محسنا كريم السجايا. ورأت ألا تخبرها بما كانوا عليه من سعة لئلا تورثها غمًا على ما صاروا إليه من ضيق، ولأنها تعلم بأن قصة والدها كان خليفة بأن تثير شجونها هي وتحزن ابنتها.

لكنها لم تعد بحاجتها اليوم، فقد تحققت دعوة والدها ورجاؤها هي في صهر كريم، ولذا ستمزق الرسالة وتتركها قصة لم تكتمل. ولكنها قبل أن تمزقها أعادت قراءتها للمرة الأخيرة :

"أكتب إليك يا ابنتي وأنا أشعر بدنو أجلي، لأنبيئك بما أخفيتُ عنك من قصة والدك عامر، لا لشيء إلا لأكون قد صدقتك في الأمر كله، ولتدركي كم كنتُ محقة إذ قلتُ لك حين سألتيني عن سر عْزوفي عن الزواج، إن أباك قد ملك عليّ قلبي وملأه، حتى لم يعد فيه متسع لآخر في حياتي. إن ذكره حاضرة في قلبي حتى لكأننا افترقنا بالأمس فحسب.

"والدك عامر كان من خيرة الرجال يا صفاء. كان ذا هممة عالية وروح وثابة، لا تعرف الكسل ولا الخمول، وكان ودودا عطوفا، يأسر الناس بحسن خلقه. فلم يكن بدعا أن حظي بالترقية في عمله سريعا، واستطاع بحمد الله أن يفتتح عملا خاصا به في أشهر معدودات. وأشهدُ الله يا ابنتي أنني ما رأيته أجود منه منذ فتح الله عليه في عمله، فكان حريصا على فعل الخير كثيرا

من الصدقات. وما كان يخشى في سخائه على مستقبلنا، فقد كان دوماً يتمثل حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام : "ما نَقَصَ مال من صدقة".

"ثم حدث أن تعرّف في أحد أسفاره إلى سيد كريم - لا يحضرني اسمه الآن بعد مرور كل هذه السنوات -، أحبه والدك كأخ في الله لِمَا رأى فيه من أمارات التدين ونُبُل الخِصال. وكان ذلك السيد يعمل في تجارة القماش إلى جانب أنشطة دعوية وخيرية، أشرك فيها والدك، الذي قبل بكل حماسة - كما عهدي به دوماً رحمه الله تعالى.

"وَحَدَّثَ أَنَّ ذلك الصديق وقع ذات مرة في ضائقة مالية، وكادت تجارته تغلّس وهو بعدُ في بداية حياته الزوجية، فوقف والدك إلى جانبه من طريق خفي لئلا يوقعه في حرج أو يُشِعره بِمِنَّةٍ، فكان يدفع لمن يعرف من زبائنه وعمّاله ليشتروا من أقمشته، ثم يتصدق بها إذ لم تكن لنا بها حاجة. ومرت الأيام، وعاد لذلك السيد ازدهاره، فعزَم على السفر بزوجته لأداء العمرة شكراً لله، وسافرنا نحن برفقة والدك لعمل له في الخارج بعد أن تمت تصفية الشركة التي كان يعمل فيها. وأحسب أنهما ظلا يتراسلان فترة قبل أن تنقطع أخباره وتتوقف المراسلات بينهما.

"وفي أثناء اغترابنا، كانت طيبة أبيك المتناهية قد جمعت حوله الطامعين والمحتالين، ولكم كنت أحدثه بمخاوفي من كثرة تبرعه للجانب وجهات

تدعي الخيرية ولا تُعرف لها هوية، غير أنه - رحمه الله - كان يؤمن بأن صدقته في يمين الرحمن كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام، فما يبالي بعدها لمن دفعها. ورغم اختلافي معه في رؤيته، إلا أن سماحته كانت تغلب على حذري، وتلك مشيئة الله ليقضي أمرا كان مفعولا.

"ولست أدري من أين ظهر ذلك الثعلب الماكر الذي قلب حياتنا شقاء، جازاه الله بما يستحق. تعرّف إليه أبوك في المسجد الكبير، واتّصلت بينهما أسباب الود لما أظهره لوالدك من مخايل التدين وعلم بالشرع وسعي في نفع الخير. وفي ظل اغترابنا وغياب صديقه الأول، اتخذ والدك من هذا الثعلب صفيّا مقربا لا يرتاب في صلاحه. وبمرور الوقت أقنع أباك بمستندات مزورة عن مشروع ضخّم للتعريف بالإسلام، وأنه ينوي إنشاء مسجد ومدرسة للمسلمين الجدد، في منطقة في مجاهل إفريقيا، ويود أن يشاركه والدك في المشروع كمساهم رئيس ومدير تنفيذي، لما له من خبرة سابقة. سعدت بهذا الخبر حين حكاه لي والدك، لعلمي بمدى تطلعه لهذا التوجه، وكان ذلك سبب سفرنا في الأصل.

واستطاع ذلك الثعلب أن يزخرف لنا المشروع وحلم التفرغ لخدمة الدين، حتى جعل والدك يوقع أخيرا على أوراق، دفع ثمنها شطر مدخراته ويزيد.

وما أفاق أبوك على حيلة ذلك الشيطان بعدها ببضعة أيام حتى أقام الدنيا وأقعدھا بحثا عنه، لكنه اختفى بماله كما لو كان سراپا أو نسجا من خيال، أشكوه إلى الله تعالى.

"لم يتحمل أبوك - رحمه الله - هول الصدمة، فأصيب بشلل جعله طريح الفراش. كنتِ وقتها لا تزالين طفلة في نحو الثانية من العمر، فسارعنا في إجراءات العودة للوطن. وانشغلنا زما بعلاج والدك مما استهلك ذلك الكثير من النفقات، لكن حالته النفسية لم تسعفه، فكان يكثر ملامة نفسه على ما انتهينا إليه. وإنني لأذكر كيف قضى والدك آخر أيامه، يمليني الرسائل تلو الرسائل لأخيه في الله ذاك، ليستنقذنا من غائلة الديون وكربة الفقر، لكن دون مجيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله. واشتد المرض على أبيك باشتداد الكرب، وهو - رحمه الله - لا ينفك عن الدعاء بلسانه بعد أن فقد القدرة على تحريك أي جزء من جسده. كان يدعو لنا، ولأخيه في الله، بل حتى ذلك المحتال، كان يدعو له بالتوبة لئلا يؤذي آخرين كما آذاه!

"ثم توفي أبوك إلى رحمة الله تعالى بعد تلك الواقعة الأليمة بشهرين. ولم يتبق معي من مال أنفق به عليك، إلا الحُلِّي التي كان أبوك يهديها لي أيام يُسرّه، جزاه الله خيرا ورفع قدره في عليين. انتظرت أي بارقة تواصل من صديق والدك ذاك عدة أشهر، لكن دون جدوى. وفي النهاية فوّضت أمري

إلى الله، وعَزَمْتُ أَنْ أَشُقَّ طَرِيقَنَا فِي الْحَيَاةِ بِعَوْنِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِنَا مَا تَعْلَمِينَ.

"هذه يا ابنتي مِحْنَةٌ عُمُرُ سِرْدَتِهَا لَكَ فِي سَطُورٍ. وَلَئِنْ أَلْحَقْتُ بِأَبِيكَ، فَإِنِّي أَكِلُ أَمْرِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَتَقُّ أَنْهُ حَسَبْنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ. سَتَجِدِينَ فِي صَنْدُوقٍ صَغِيرٍ مَخْبِئٍ تَحْتَ فَرَاشِي بَقِيَّةً مِنْ حُلِيِّ اشْتَرَاهَا لِي وَالِدُكَ يَوْمَ خَطْبَنِي، فَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَبِيعَهَا مَعَ مَا بَعْتُ، وَأَثَرْتُ أَنْ أَسْتَبْقِيَهَا عَسَى أَنْ تَظَلَّ ذَكَرِي أَوْ تَنْفَعَكَ بَعْدَ رَحِيلِي .

والدتك المحبة، لمياء".

أَخْرَجَتْ سَلْمَى طَرَحَةَ الْعُرُوسِ مِنْ مُغْلَفِهَا بِعَنَاقَةٍ، وَرَاحَتْ تَسْوِيهَا عَلَى سَرِيرِهَا، وَهِيَ تَبْتَسِمُ. لَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ هُوَ مَنْ اشْتَرَى ثِيَابَ الْعُرُوسِ كُلِّهَا وَانْتَقَاهَا بِنَفْسِهِ! لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ الذَّوْقِ الرَّفِيعِ، لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِمُسْتَغْرَبٍ عَلَيْهِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْحَسِّ الرَّهِيْفِ، حَسُّ الْأَدِيبِ وَالْفَنَانِ.

ابْتَسَمَتْ سَلْمَى فِي أَلَمٍ وَهِيَ تَسْمَعُ صَدَى اسْمِ "أَحْمَدَ" يَتَرَدَّدُ فِي قَلْبِهَا، وَجَاهَدَتْ لَتَمْسِكَ عِبْرَاتِهَا، فَقَدْ حَدَّثَتْ نَفْسَهَا مَرَارًا وَتَكَرَّرًا أَنَّهَا لَنْ تَلْتَفِتَ إِلَّا لَصَفَاءٍ. إِنَّهَا لِحِظَةُ التَّحْوِلِ فِي حَيَاةِ صَدِيقَتِهَا الْمُقَرَّبَةِ، بَغْضِ النَّظَرِ عَمَّنْ سَيَصْحَبُهَا مِنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

- انظري يا صفاء! ما أجملها! إنها من المخمل الناعم، حقا رائعة! (تلتفت لصفاء مستغربة عندما لا ترد عليها) صفاء؟ (ترى انعكاس وجه صفاء الجالسة أمام المرأة في ثوبها الأبيض البديع، فإذا بها تبكي!) ما بك يا صفاء؟ (تحتضنها في تفهم) لا بد أنها دموع الفرح!

- (تبعد يديها وهي تهز رأسها نفيا) لا!

- (مندهشة) لا تقولي لي إنها دموع حزن!

- (تنظر لسلمى طويلا) بل هي دموع الذنب يا سلمى!

لثوان سكنت سلمى وقد بهتها الرد! صفاء تشعر بالذنب؟! أ تكون صفاء قد علمت بما بينها وبين أحمد؟! أو تكون قد اكتشفت أنه يتزوجها إنفاذا لوصية أبيه لا إجابة لنداء قلبه؟

- (تتناول منديلا لتجفف دموعها) سامحيني يا سلمى، لكن لا بد أن أقولها وإلا سأنفجر في داخلي.

- (تجلس إلى جانبها وترتبت على شعرها) تعلمين أنك تستطيعين مصارحتي بما شئت يا صفاء.

- (تطرق طويلا قبل أن تقول بشفتين مرتجفتين) إنني أشعر أنني آخذ ما ليس حقي يا سلمى!

- !!

- أعلم أنني لا أستحقه يا سلمى! (ترمي نفسها في أحضان سلمى وهي تبكي) لو كنتِ أنتِ مكاني لتفهمتم، لكن ليس أنا! ليس أنا!

سبحان الله يا ابن آدم!

تارة تُمنع "ما تستحق"، وتارات تُعطى "ما لا تستحق"، فتسخط عند الأولى ولا تحمد عند الثانية، وإنما هي أرزاق يا ابن آدم وأعطيات، من لدن لطيف حكيم خبير.

وإن كان يتاح لبعض أن يشهد وجه حكمة فيما مُنح هو وأعطى غيره، فالله - سبحانه وتعالى - يظل أبداً بعباده خبيراً بصيراً، وفي تدبيره لهم لطيفاً حكيماً. وإنما الشأن كل الشأن في تمايز القلوب الصادقة التي تظن بالله ما الله أهله، سواء خفيت حكمة التدبير عنها أم تبدت لها، ذلك "لتعلموا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً" [الطلاق : ١٢]•

فمقاييس العطايا والحرمان بمعيار البشر ليست كالمعيار العلوي، وليس للبشر أن يحيطوا بإدراكهم المحدود ماهية تلك المعايير، لكنهم أعطوا في المقابل طاقات قلبية إيمانية لا محدودة بالتسليم والرضا عن يقين

واحْتِسَاب، "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [سبأ: ٣٦]، سبحانه، هو خير الرَّاَازِقِينَ.

طافت تلك الخواطر بقلب سلمى، فاحتضنت صفاء بقوة، ثم أبعدتها عنها بحيث تتلاقى عيونهما :

- إنني دونه في كل شيء يا سلمى! هو أستاذ ومثقف وأديب، وأنا عكس كل ذلك! أنا لا أستحق شخصا مثله!

- (تمسح دموعها وتنظر لها في حنان) يا صفاء، "ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ" [الحديد: ٣١].

- قد قالت لي أُمِّي مثل ذلك. وقالت إنها لا بد بركة دعوة والدي، رحمه الله تعالى .

- هي كذلك يا صفاء. أليس الله لا يضيع أجر من أحسن عملا؟

- بلى.

- فاحمدي الله واشكري فضله يا صفاء، ذلك أدنى أن تدوم النعمة.

- الحمد لله رب العالمين.

- والآن كفكفي دمعك وابتسمي، وإلا أحزنت والدتك.

- (تكفكف دموعها) لن تتخيلي يا سلمى كيف كان حالنا لما جاء أحمد ووالدته!

- (تبتسم ابتسامة واهنة)

- (تضحك) كنا نتخبّط أنا وأمي ونحن نعيد ترتيب وضع الشقة بكاملها، لتظهر بمظهر أحسن. حتى إننا اصطدنا ببعضنا حين دق جرس الباب أخيراً.

- بل انتظري حتى أخبرك ما قال (تنهض من على الكرسي أمام المرأة، وتقلد جلسة أحمد على السرير بحركة مسرحية) لو ترين الهيبة التي كانت عليه يا سلمى، كان مختلفاً تماماً عن ذلك الأستاذ في الكلية، كان.. كان..

- (تبتسم وهي تتخيل المشهد) أميراً؟!

- أمير وأي أمير يا سلمى! كالذين نقرأ عنهم في الروايات! بل حتى والدته على قلة كلامها كانت نظراتها تفيض رقة ورحمة. تصوّري يا سلمى لم أشعر في وجودهما بالخجل الذي تخيلته من هيئة شفتنا المتواضع...

- (تقاطعها في اهتمام) وكيف.. كيف تقدم أحمد إليك؟

- كانت والدته هي المبتدئة بالحديث إلى والدتي، عن أمنية والده أن يراه مستقرا في بيت الزوجية، ثم بدأ أحمد الكلام.. (تضع يدها على جبهتها كمن يحاول التذكر) لقد قال كلاما كثيرا.. لكنني لا أتذكر (تنظر في سقف الحجرة كأنما تستلهمه العبارات) ربه! ماذا قال بالضبط؟.. المهم.. المهم أنه ختم خُطْبته بتلك الجملة الرائعة (تعقد كفيها أمامها كالحالمة) : "إنني أطلب يد كريمتك الآنسة صفاء للزواج على سنة الله ورسوله".. أتصدقين يا سلمى؟

وكيف لا تصدق؟! وهي التي توقعتها مرارا وتكرارا، لكن بإحلال اسم "سلمى" محل "صفاء"! لو تدرين يا صفاء كمّ الخناجر التي تطعن قلبي مع كل كلمة تتفوهين بها، لكن لا بأس عليك، إنه يومك ولن أفسده عليك، عسى الله أن يأجرني في مصيبتني ويخلف لي خيرا.

لم تزد سلمى على أن ابتسمت ابتسامة هادئة، وأمسكت عن الرد تماما، لأنها كانت تعلم يقينا أنها لو همست بحرف واحد، فستنفجر باكية. أما صفاء فكانت محلقة في عالم لا تشعر بسعادته إلا صاحبتة.

- (صفاء) لكنني لم أتوقع أن يقرأ أحمد أفكاره بتلك السرعة!

- ؟

- في نفس اللحظة التي تقدم فيها ووافقنا أنا وأمّي، داخلني القلق بخصوص والدتي، إذ لم أكن أتخيل الانفصال عنها، فبادرني إلى ذلك وعرض عليها أن تقيم معنا، تخيلي!
- (تغمغم) حقا؟!
- بل والأروع، أن أمي لما امتنعت عن ذلك احتراماً لخصوصيتنا واستقلالنا، عرضت والدته عليها أن تقيم معهم في منزلهم الكبير!
- (تتسح عيناها في دهشة) أحقا فعلتُ؟ وماذا كان رد والدتك؟
- لقد امتنعت وقالت إنها راضية بعلمها أنني سأكون سعيدة، وذلك غاية ما تتمنى. وأصررت ألا تكلف أحدا عناء استضافتها رغم نظراتي المتوسلة.. (تطرق وقد تورّد خذاها) لكن أحمد كان غاية في الشهامة..
- (تبتلع ريقها وتغمغم) بالتأكيد!
- لقد أصر بدوره أن يشتري لها شقة قريبة منا ويؤثثها على حسابه!
- وهل وافقت والدتك عندها؟
- حاولت أن تمتنع لكنني حسمت الموقف!
- كيف؟

- قلت لهم إن ذلك سيكون مهري ولا أريد سواه!
- (تنظر لها بشيء من الذهول)
- (تضحك) كلهم نظروا إليّ نظرتك تلك، لكن صدقيني إذ أقول لك يا سلمى إنني لم أقدم أية تنازلات. ذلك المهر هو أغلى وأثمن مهر حلّمت به! (تدمع عيناها) لا أستطيع أن أصبر حتى أبدأ في تأثيث شقة أُمي الحبيبة! إنني حتى لم أسعد بتقدم أحمد إلا بقدر ما رأيت السعادة تتوهّج في عينيّ أُمي! آه يا سلمى، لقد حُرّمنا مثل ذلك الرّعد طويلا، لكنني كنت واثقة أن الله الكريم لن يضيع ابتهالات أُمي ودعوات أبي يرحمه الله.
- (تنظر إليها في تأثر) صفائي العزيزة..
- (ترفع إليها عينيّن راجيتين) سلمى؟ هل لك أن تتركيني وحدي بضع دقائق فحسب؟
- (تنظر لها بدهشة، ثم تنهض) نعم، بالتأكيد. سأنتظر خارج الغرفة. نادني حالما تنهين ما تودين عمله.
- خرجت سلمى وأغلقت الباب، فنهضت صفاء وتناولت الحجاب الأبيض ولَفَّتَه بعناية حتى غطى شعرها المصفف، ثم حَرَّتْ ساجدة سجدة شكر

لله العلي العظيم، ذي الفضل العظيم. وسبحان الله الوهّاب، مقلب القلوب ومقسم الأرزاق، وإن انقلبت الموازين حتى حين.

أوقف أحمد سيارته أمام منزل سلمى، وطلب من أروى الذهاب لإعلامهم بوصوله. نزلت أروى من السيارة، وتركته غارقاً في خواطره. تحسس بيده المصحف الذي وضعه في جيب بدلته الداخلي، لعل السكينة تغمر قلبه المضطرب. بالمشيئة الله وتقديره تعالى! لقد نوى أن يأتي بيت سلمى ليخطبها، فإذا به يأتيه بعد بضعة أشهر ليتزوج صديقتها!

أوقف أحمد محرك السيارة، ثم نزل ووقف مستنداً إليها ينتظر العروس، وإذا بأخته أروى تعود ومن خلفها والد سلمى مقبلاً عليه :

- (ينظر أحمد لأخته مستفهماً)

- إنهم يدعونك للداخل ريثما تتم صفاء زينتها.

- (ينظر في قلق لوالد سلمى المُقبل) لا، لا داعي..

- (يصل والد سلمى ويمدّ يده إليه مصافحاً) أهلاً وسهلاً بالعريس، وزوج صفاء العزيزة، تفضل ادخل يا بني! (يحاول أحمد الامتناع فيصر الحاج عادل) لا يصح أن نتركك واقفاً هنا، والدّة صفاء ووالدة سلمى تنتظرانك في الداخل.

ما كاد أحمد يدخل بيتهم، حتى عَلت حناجر المرأتين بزغاريد الفرح، وشرعت الحاجة فاطمة تنثر عليه شيئاً من الورد الذي أعدته للعروسين. وقف أحمد بينهم وقد علاه الارتباك، وفي الدور العلوي كانت سلمى تضع اللمسات الأخيرة على زينة صفاء، وهي لا تكاد تملك يديها المرتجفتين من التوتر، لما صكَّت سمعها تلك الزغاريد!

- (تعينها على ضبط التاج الأنيق فوق الحجاب) وبهذا انتهينا.

- (تأمل نفسها في المرأة بشيء من الإحباط) لست أدري، كان الثوب يبدو أجمل وهو معلق على الشماعة!

- (تستعجلها وهي تدفعها نحو الباب) لكنه الآن يبدو بشعا وقبيحا! نعم، أعرف! هذه المرة الألف التي تكررين فيها هذه الجملة!

- (تطرق الحاجة فاطمة الباب وتفتحه قليلا بقدر ما تطل برأسها) هيا يا بنات.. (تقطع حديثها حين تقع عيناها على صفاء) ما شاء الله، تبارك الله! يالجمال!

- (في راحة عظيمة) حقا؟ شكرا لك يا خالتي!

- (تمسك يدها) هيا ابنتي، والدتك وأحمد ينتظران في الصالة.

- (تراجع سلمى التي كانت ستصحبها في توجّس) أحمد؟! (تسترد رباطة جأشها) إذن اذهبي أنت يا صفاء معهما، وسألحقك مع والديّ.
- (تلتفت لسلمى وتأخذ بيدها في رجاء) لكنني أريدك أن تكوني معي.
- (تبحث عن مخرج) لم أصلح هندامي بعد ولا ارتديت حجابي، اسبقيني وسألحق بك مع والديّ.
- (تدخل الحاجة فاطمة لتنهى المسألة) لا بأس، هيا يا صفاء فهم ينتظرونك، وسنلحقكم سريعا إن شاء الله.
- وأخيرا خرجت صفاء من الغرفة مع الحاجة فاطمة، تاركتين سلمى وحدها. خرجت صفاء من غرفتها، وبخروجها كذلك خرج أحمد من حياتها.. إلى الأبد!

تنفّس أحمد الصّعْداء إذ رأى صفاء تنزل الدرج بصحبة والدّة سلمى، لا سلمى نفسها. وفي ذات الوقت كان يشعر بقلبه يشاطر قلبها تلك الأفكار. ها هو ذا يدخل بيت سلمى، ويخرج بصفاء، وتتعالى زغاريد تطرب لها أذناه ويبتئس لها قلبه، وها هي ذي العروس تدنو، وهو يرى صفاء بعينيّه، ويأبى قلبه إلا أن يرى سلمى.

وقبل أن يخرج من المنزل مع صفاء ووالدتها، حانت منه التفاتة خاطفة لباب غرفة سلمى، ولولا الباب الفاصل بينهما، لرآها واقفة خلف الباب تتسمع وقع أقدامه وهو يمضي بعيدا عنها، تصحبه دموعها وتباريحها. ومضى كل منهما، وفي قلوبهما ما الله به عليم.

الفصل السابع

كل في طريق !

- (ترفع الحاجة فاطمة رأسها عن شغل الإبرة في يدها لتنظر للساعة) ..

- (يرمقها مبتسما) أراك معجبة اليوم بساعة الحائط وتكثرين التطلع لها يا فاطمة!

- (تغمغم وهي تعاود شغلها دون أن تنتبه لدعابته) لقد تأخرتُ سلمى.

- (يقرر في هدوء) بل يُخَيَّل إليك ذلك، لأنك تنتظرين رجوعها منذ خرجت!

- (تنظر لزوجها بغیظ) أنت هكذا دائما بارد الأعصاب!

- (يتابع قراءة الصحيفة في هدوء) على أحدا أن يكون مستعدا لإخماد النيران!

- (يَغِيظُها رده) لا أدري كيف أُصِبتُ في عقلي وقبلتُ الزواج بك!

- تماما مثلما طُمِسَ على قلبي واخترْتُكِ زوجة (تَهم أن ترد عليه غاضبة، فيستدرِك) ولم أندم على ذلك أبدا!

- (تبتسم في رضا، لكن تتصنع الغضب) أنت تجاملني!

- لا أقول إلا حقا!

- (تضحك مسرورة)

- تبدين أجمل حين تضحكين يا فاطمة!

- (يحمّر وجهها وتطرق في حياء) كأنك نسيّت أنني جاوزت الأربعين!

- لا زلت على عهدي بك كأنك في العشرين!

- (تضحك في رضا) يا لك من رجل! وتَدّعي أنك لا تقول إلا حقا! (يسود بينهما الصمت قبل أن تقطعه الحاجة فاطمة) أتعلم يا أبا سلمى أنني في البداية حزنت لخبر زواج أحمد من صفاء؟ وعجبتُ كيف آثر صفاء على ابنتنا!

- (ينظر إليها متفكرا) وأنا كذلك في البداية تحيّرت من اختياره، فالشاب وقور ورزين وواسع الثقافة، وصفاء خلاف ذلك كله، فسبحان مقلب القلوب.

- (في نبرة اعتداد) لكن قاسما واللّه لأجدر بها، إذ قدّرها حق قدرها، ولم يتطلع لغيرها طوال هذه السنوات!

- ويبدو أن سلمى لم تَكُنْ تُكِنُّ لأستاذها من المشاعر ما كنا نظن.

- (تومئ برأسها) تماما كما قلت لك، إنها ابنتي وأنا أعرفها!

- (مستنكرا) أنتِ قلتِ ذلك؟!

- (في زهو) نعم أنا!

(يَهْمُ بالرد، فيسمعان صوت سلمى تدير المفاتيح في الباب، فيعودان للتشاغل بما في أيديهما. ثم تدخل سلمى فتسلم عليهما و تقبلهما في حنان، فيردان السلام والتحية، ثم ينتظران حتى تصعد غرفتها لتبدل ملابسها)

- حسنا، أعدي لنا بعض الشاي يا فاطمة ريثما أذهب وأحادثها.

- (تنهض) لا! بل أنا من سيحادثها. أَعِدِّي الشاي!

- (مستنكرا) أنا أُعِدُّ الشاي؟؟ ماذا تقولين يا فاطمة؟ أعدي أنت الشاي وأنا من سيحادثها!

- لا، بل أنا! أنا أمها!

- وأنا أبوها!

- (تصعد الدَّرَج متجهة لغرفة ابنتها غير آبهة باعتراضه) وإن يكن! هذه أمور لا يصلح لها الرجال! (يحوّل زوجها مبتسما في سماحة صدر، ويعود لقراءة الصحيفة).

جلست سلمى ساهمة أمام المرأة في غرفتها. لقد مضى على زواج صفاء بأحمد قرابة الشهرين. ذلك الزواج الذي خَلَف بداخلها فراغا عميقا، جاهدت لتملأه بأنشطة وأشغال تنسيها حَرَّ ما تلقى. فعكفت على كتاباتها وتوسّعت في اطلاعاتها، واشتركت في أنشطة ترفيهية للصغار في المسجد القريب، وصارت تواظب على صلاة الجماعة مع جارات لها، لما تجده من الأُنس في بيت الله تعالى.

وقد وافقها والداها على ما تفعل لِمَا لمسا فيها من شرود حزين، ظنوا سببه غياب صفاء عن حياتها بعد صحبة دامت سنين. حتى إذا رأيا أن الوقت قد حان لمرحلة تحول مماثلة في حياة ابنتهما، قررا مفاتحتها في مخططاتهما المُعدّة سلفا، منذ كانت طالبة في الكلية.

طرقت الحاجة فاطمة الباب طرقا خفيفا، انتزع - على خِفَّتِه - سلمى من شرودها انتزعا، فابتسمت وهي ترى أمها تَطُلّ طلّتها المعهودة برأسها من الباب.

- (مبتسمة) أسمحين لي بالدخول؟
- طبعاً، تفضلي يا أماء.
- لك عندي أخبار ستفاجئك!
- (تبتسم وتداعبها) تفضلي يا أماء، وأعدك أن أظهار بأنني تفاجأت!
- (تتابع في حماسة) أعلم أنك تشاقين لصفاء بعد زواجها..
- (تطرق ولا تجيب)
- لكنها سنة الحياة..
- (تغمغم) ومشية الله!
- (تبتسم في ترقب إذ قاربت الهدف) أنا سعيدة بأنك تتفقين معي.
- (تنتبه) أتفق معك فيم يا أماء؟
- في أنك.. لا بد.. أعني أن تفكري في هذا الأمر كذلك.
- أفكر في الزواج؟ ألم نتفق أن نترك الكلام في هذا الأمر لأوانه؟
- (تقاطعها وهي تبتسم في ثقة) وأنا عند وعدي!
- (في شيء من الدهشة) أتعنين أن هناك...

- (تومئ في سعادة) نعم! أعني ذلك حَرْفياً!

- فمن يكون؟

- (تندفع مُسْتَرَسِلَةً كأنها تلقي خُطبة عَصماء) هو زَيْن شبابنا، ودرة أسرتنا،
ومفخرة عائلتنا، وليس مثله من يُرد!

- (تبتسم دون أن ترد)!

- (تزفر في ضيق) ما بك يا سلمى؟! إنه ابن عمك قاسم!

- قاسم؟!

- كأنك لم تعرفيه من وصفي السديد البليخ؟ (في شيء من الزهو) لقد
أَمْضينا الليلة أنا وأبوك نُعِدُّه ونتراجعه، حتى حفظته!

- (تضحك من حماسة أمها) بلى! قد دار بَخَلْدي أنه هو!

- (في سعادة) إذن فأنت موافقة!

- (متردة) لم أقل إنني موافقة!

- (في خيبة أمل) أترفضينه يا سلمى؟

- لا، لست أرفضه يا أمي، ولكن..

- (في قلق) ولكن ماذا؟

- أتمهليني لأفكر قليلا؟

- فيم تفكرين يا سلمى؟ إنك تعرفين أن ليس في بنات العائلة من هي أحق وأجدر به منك، وتعلمين تطلعنا جميعا لارتباطكما منذ زمن، ففيم التفكير؟!

- رجاء يا أمي، أمهليني أخلو إلى نفسي قليلا.

- (تنظر إليها غير مصدقة ثم تهز كتفها وتنهض) حسنا.. كما تشائين!

لَكَ اللهُ يَا سَلْمَى!

إنه لا يخفى عليها أمر ابن عمها قاسم، فقد درجا معا في طفولتهما كأخ وأخته. ولما رزئت الأسرتان بوفاة عمها عبد الملك وقاسم بعد في المرحلة الثانوية، ترك الدراسة وانصرف ليُعيل أسرته، حيث لم يكن لها مُعيل غيره. وكانت أسرة عمها متوسطة الحال، فآثر تعليم أخوانه الثلاثة وإحسان تربيتهم على شؤون نفسه، خاصة وأن والدته لم تكن لتقدر على العمل لرقه صحتها.

حاول والدها مساعدتهم بطبيعة الحال، غير أن قاسما ورث عن أبيه عزة نفس صلبة عنيدة، تأبى أن يكون لها عند أحد فَضْل ولو كان من ذوي القربى، وتَعَف عما في أيدي الخلق ولو كان عمّه، طالما كان هو قادرا على الكد بنفسه والأكل من عمل يده.

ولم يكن شيء ليجرح كرامته ويخز قلبه أكثر من أن تشعر أمه أو إحدى أخواته بنقص لا يستطيع ملء فراغه، أو أن يستشعرن الفارق بينهن وبين أسرة سلمى، التي كانت أكثر يسرا بفضل الله. فاجتهد في السعي والعمل كل اجتهداد، لا يَصْنُ بشيء من صحته ووقته، ولا يَمُنُّ به عليهن. وآلى على نفسه ألا يحوج أحد من أهله لشيء ما دام فيه نَفْس يتردد.

واستطاع قاسم أن يحصل على وظيفة في شركة مرموقة للاستيراد والتصدير، حيث قامت خبراته الحياتية ومهاراته المتعددة مقام الشهادات الحكومية، ولا يخفى ما كان لدعوات والدته في الأسحار، وتضرعه هو لله أن ييسر له الأمور، من عظيم الفضل في توفيقه.

ومذ صارت أسرته شغله الشاغل، قلّت زيارات قاسم لبيتها. وما وقع ناظرها عليه في السويعات القليلة التي كان يُلْمُ فيها بهم، إلا رآته قد ازداد بهاء في الطلعة بما يَشع من وجهه من نور رباني. ولا ينزل قاسم مُنْزَلاً، ولا يجلس

مجلسا، إلا وَحَقَّتْهُ دَعَوَاتُ أمه وأخواته الثلاثة، وأسهبته والدته في وصف محاسن أخلاقه ومدى تديّنه.

وما شعرت سلمى في يوم أنها تفوقه درجة بما حَصَلَتْ من شهادات علمية أكثر منه، بل كانت تراه قويا أَمِينا، بما استمسك به من طاعة الله وبرّ كل من حوله.

فلم يكن قاسم إذن بالذي يُرد كما قالت أمها، وما وزنت الأمر بعقلها إلا رَأَتْه كُفأ كريما. غير أنها لا تكاد تعرضه على قلبها، حتى تشعر بشيء من الفتور، فهي كانت تعزه كقريب مقرب وأخ صدوق، وقلبها لم يعرف له ساكنا حقيقيا من قبل إلا.. أحمد!

ويحك يا سلمى! أمازلت تفكرين فيه؟!

فإن الذي أَسْكَنْتِه قلبك قد أَسْكَنَ بَيْتَهُ امرأة أخرى، وليس يَضُرُّه زواجك ولا يُفِيدُكَ انتظاره..

وقاسم ليس بالذي يُرد، بل هو من الذين يُرْتَضَى دينُهم وخلقُهم، ويكفيه وساما بَرُّه بأمه وأخواته، والتضحية في سبيلهم عن طيب خاطر واحتساب أجر، وهو مفخرة العائلة عن حق وزَيْن رجالها، ففيم زهدك فيه يا سلمى؟

إِعْزَازَكَ لَهُ كَأَخٍ لَيْسَتْ عَائِقًا عَنْ ارْتِضَائِهِ كَزَوْجٍ، بَلْ لَعَلَّهُ يَعْينُكَ عَلَى حَسَنِ عَشْرَتِهِ وَيَزِيدُ مَوَدَّتَهُ فِي قَلْبِكَ مَعَ الْوَقْتِ.

وَلَئِنْ كَانَ هُوَ قَلْبُكَ الْأَوَّلُ هُوَ الْعَائِقُ، فَإِنَّكَ لَتَدْرِكِينَ أَنَّهُ عَلَى خَطَأٍ!

وَقَدْ عَرَفْتَ أَصْلَ الدَّاءِ.. وَأَنْ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ..

إِلَّا النِّسْيَانُ .. أَوْ التَّنَاسِي.

وَأِنْ هِيَ إِلَّا دَقَائِقٌ حَتَّى شَقَّ سَكُونُ الْمَنْزَلِ زُغْرُودَةً طَوِيلَةً أَطْلَقَتْهَا الْحَاجَةُ

فَاطِمَةُ، وَأَسْمَعَتْ جِدَّتَهَا مَنْ كَانَ بِهِ صَمَمٌ!

الفصل الثامن

أحمد وقاسم !

- أرجوك! فقط دقيقة واحدة يا أحمد!

- كفى يا صفاء، لا تكثري على زوجك! لقد تجولنا كثيرا اليوم.

- لا بأس يا أمي، تفضلا أنتما واسبقاني. تفقدا تصاميم الأثاث حتى أوقف السيارة، ثم ألحق بكما إن شاء الله.

شكرته صفاء في سعادة، ثم أخذت بيد أمها، ودخلت معها إلى المحل السادس من محلات الأثاث! سار أحمد بسيارته قليلا حتى إذا وجد فُرْجَةً مناسبة، تقدم وأوقف سيارته، ثم أطفأ المحرك، واستند برأسه إلى مقعد الكرسي، وزفر زفرة حارة.

إيهِ يا أحمد! هاقد تزوجتَ أخيرا، وها هي ذي زوجتك تجلس إلى جانبك وتتجاذب معك أطراف الحديث. ولكنه زواج غير الزواج! وزوجة غير الزوجة! وحديث غير الحديث! حانت منه نظرة إلى المقعد الخلفي في السيارة، فابتسم وغمغم : "لقد نَسِيتَ حقيبتها كالمعتاد".

لا أستطيع أن أكرهها وإن كنت لم أخترها! إن صفاء في عبارة موجزة دوماً "على سجيته"، ولكن ذلك لا ينفي أن سجية صفاء محبوبة. أكثر الأشياء بساطة تدخل في قلبها فرحة عظيمة، فهي لا تقدّر الأشياء إلا بحجم ما تحمل من عاطفة، وهي كذلك فياضة في عواطفها تُغدّقها على من تحبهم بصدق وبكرم.

وقد كان لصفاء تلك الميزة التي قد تهوّن ما عداها: صادق عرفانها بالجميل. فما تتحدث معه عن أمها إلا وتُسهب وتُطنّب في وصف أفضالها وتضحياتها. ولا يخرج هو معها في مصلحة يقضيها لها، إلا وتحفه طوال الجولة بنظرات الامتنان ولسانها يلهج بشكره كلما وجدت لذلك سبيلاً. ولم يكن أحمد بطبيعته ليقدر على تجاهل عاطفتها تلك أو يمتنع عن الاستجابة لها.

وبقدر ما حمل قلبها من عواطف جيّاشة وفطرة نقيّة خلا رأسها من أي تفكير جاد، فهي تسمع له و تنبهر بحديثه، كما ينبهر الطفل بحجارة من الأحجار الكريمة، تعجبه ألوانها وزخارفها، ولا يرى فيها أبعد ذلك. ولربما كتب الخاطرة أو المقال فأطلعها عليه بعد إلحاح، ثم لا تلبث أن توجه إليه تلك النظرة الحائرة البسيطة! لم تكن تفهم إلا يسيراً مما كتب، لكنها كانت تؤمن بروعته لأنه كاتبه!

وكلما حاول أن يأخذ بيدها إلى عالمه، انتهى به المطاف أن يصيبها بالصداع! فما كان لها صبر على المطالعة ولا يستهويها شغفه بالعلم، ولا طاقة لها على تفهّم صمته المفكّر، أو تفكيره الصامت. ولربما حاول أن يجد لهما اهتماما مشتركا، أو دعاها لتشاركه مشاهدة برنامج، فلا تلبث سويغات هادئة حتى تشرع في الأخذ بأطراف الحديث معه بلا انقطاع. وصفاء تتحدث وتنصت لنفسها، فلا تنتبه إن أثقلت عليه طالما لم تثقل على نفسها! ولما حاول هو مشاركتها عالمها، وجده خاويا إلا من التفكير في اللحظة، وأمها! بل كان ينبغي عليه أن يضع أمها في المقام الأول، فهو لم ير في حياته مثل تعلق صفاء بأمها، حتى إنه ليعتقد أن حياة صفاء معلقة بوالدتها.

لم تكن صفاء اختيار قلبه ولكنه لا يملك أن يكرهها. ولو شاء لأوجد فيها ما يُسوّغ له كرهها، بل ويشوه صورتها في عينيه. لكن لم يكن له أن يكرهها، لأنها جاءت بأمر الله، وكانت حظه وكان حظها بقدر الله، الذي تجري المقادير بحكمته ورحمته وعدله، وإن خفي عنا كل ذلك.

وكذلك قلب المؤمن يسلم بما قضى الله، ويوقن بوعد المصطفى عليه الصلاة والسلام أن "في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا".

انتفض أحمد لا إراديا حين سمح طرّقا رقيقا على النافذة، وإذا بصفاء واقفة إلى جانب السيارة. فتح أحمد الباب ونزل معتذرا.

- تأخرتَ علينا يا أحمد!

- (يفتح الباب الخلفي ليتناول لها حقيبتها) أنا آسف، لحظات لأحضر الحقيبة، و.. (يلتفت إليها ليناولها الحقيبة، فإذا عيناها تدمعان، فيرتبك ويكرر) إنني حقا آسف.

- (تأخذ الحقيبة منه وهي مطرقة) أنت من يعتذر، مع أنني أنا المخطئة!

- مخطئة؟

- أعلم أنني أثقلت عليك في موضوع تأثيث شقة أُمي، أنا التي تعتذر إليك.

وقف أحمد ساكتا هنيهة يتأمل صفاء المطرقة أمامه. لم تكن تلك وقفة سلمى، لكن كان فيها لمسة صفاء، التي - وإن اختلفت عمن أحبها - كان لها طابعها، طابع الزوجة، والحليّة.

وضع أحمد يده بحنان على كتف صفاء وهمس قريبا منها : "لو أنك حقا تحبينني يا صفاء، فلا تعودى لمثل هذا الكلام، إنك زوجتي ومن حقك عليّ أن أسعدك وأساعذك، ما استطعت إلى ذلك سبيلا". نظرتُ إليه صفاء

نظرتها الممتنة، ممزوجة بمزيد من الامتنان! فابتسم لها أحمد، وأخذ بيدها ومشيا معا. وما مضيا يسيرا حتى كانت صفاء استردت عافيتها الكلامية، فراحت تكلمه فيما عنّ لها من انطباعات عن الكون والحياة، وهو يسمع لها مبتسما.

غمرت الضحكات الرقيقة سيارة قاسم وهو يقودها ذاهبا لبيت سلمى ليخطبها. عن يمينه جلست والدته، ومن ورائه أخواته : الكبرى هالة والوسطى هويدة والصغرى هند. كانت والدته تتأمله كل حين لتعدّل شيئا من هندامه، وأخواته من ورائه مسترسلات في إبداء النصائح والتوجيهات. تقبّل قاسم كل ذلك بصدر رحب، مازحا حيناً وجاداً أحيانا، وبين ذاك وتلك كان قلبه لا ينفك يخلق في آفاق أخرى.

أخيرا حلّ اليوم الذي تمناه أعواما طويلا، لم يعلم فيها بطوايا قلبه ومبالغ أشواقه إلا ربه تعالى وهو يناجيه في كل صلاة، ويجعل لذلك الحلم نصيبا في كل قيام. كانت سلمى حلمه، وأي حلم! قد رُزق حبها منذ تفتّحت على معرفتها مداركه، فحفظ قلبه بكرة من أي تطلع لغيرها، وأفسح لها من عرش قلبه لتترى عليه ملكة مُجتبة.

منذ بلغ قاسم تلك السن التي تزهر فيها أحلام القلوب، وقلبه يهفو إليها. كان هو بعد في فجر الشباب وعنفوان الحياة العملية، وهي بعد طالبة على أبواب الجامعة وشابة كالريحانة تَفْتُحُ ونداوة وعبيراً. فلم يجسر أن يفتح أحداً بما طوى عليه قلبه، إذ كان يعلم أن مثلها يمكن أن يكون محط الأنظار، ولعلها ترزق بمن هو خير منه ثقافة وعلماً، وإلا تكن من نصيبه فليس يمنعها عنه شيء، لذلك أحكم الغطاء على وجيب قلبه، وتوجه بكليته لله يستحفظه أمنيته.

ولكم غلبته دموعه وجداً وشوقاً في تضرعه لربه، تطلعا إلى اليوم الذي يجمعه فيه بابنة عمه، رفيقة صباه ومليكة قلبه. وكم زار بيتهم فحفض عنها بصره وقلبه يتبعها أينما ذهبت، حتى إذا انفصّ الجمع خلا بأخته الكبرى هالة أقرب أخواته لسلمى، وراح يسألها في حذر عما تحدثتا فيه، علّه يتسقط من حنايا الكلام خبايا الصدور، ويستبين دلائل الحب في قلبها تجاهه، أوليس قد جُعِلَ اللسان على الفؤاد دليلاً؟

وتخرجت سلمى أخيراً سالمة له، خالصة لقلبه لم يتقدم لها أحداً! فتقدم لها وما تكاد تسعه من فرحته أرض ولا تحوطه سماء، وقلبه يسجد شكراً للرحمن أن أجاب دعاءه، وحفظ له حبيبته.

ويظل أمر الله تدبيرا محكما، وقدرا مقدورا، إلى أجل هو بالغه وبقدّر هو مقدّره، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط.

ولمّا دَنَت القافلة أخيرا من ديار الحبيبة، راحت أخواته يعدّلن هندامهن، ووالدته تذكّر كل واحدة بالتوجيهات الختامية. ونزل الركب من السيارة متوجهين للمنزل، وإن هي إلا دقائق حتى علت أصوات التحيات والمودّات، وتعاقبت الأحضان والقبلات، ثم تلتها الزغاريد والتكبيرات. واستمر ذلك الاحتفاء ما شاء الله له أن يستمر، حتى استقر المجلس أخيرا بالخاطب وأهله والمخطوبة وأهلها، وإذ ذاك بادر الحاج عادل قائلا:

- يا ابن أخي، إنك ممّا حيث قد علمت من المكانة، فأنا أطمع منك الليلة في هدية خاصة نفتتح بها هذه الخطبة المباركة، اتفقت عليها مع عروسك المقبلة بإذن الله.

- (تشرق أساريه إثر كلمة "عروس"، ويختطف نظرة لسلمى المطرقة في حياء) حبا وكرامة يا عمي.

- هلاّ تلوت علينا شيئا مما تحفظ من كتاب الله؟ اشتقت كثيرا لسماع تلاوتك الخاشعة (ينظر لسلمى مبتسما) وهذا يطمئن العروس على مدى أهلية إمامها في الصلوات.

اعتدل قاسم في جلسته، وتنحنح ثم شرع في تلاوة سورة (مريم). سكت الجمع كأن على رؤوسهم الطير، ولم تمض دقائق حتى كانوا جميعا قد استغرقوا بكلياتهم في نداوة الترتيل وخشوع التلاوة وسكينة المعاني. فما أتم قاسم السورة حتى سرت في أعقابها تمتعات بدعوات ذات اليمين وذات الشمال، ونهض الحاج عادل يحتضن قاسما في تأثر، فنهض الأخير وقبل رأسه إكراما. وشعرت سلمى بقلبها يسبح في سكينه دافئة، وأعاد لها ترتيب قاسم الندى ذكريات طفولتهما وأنسهما معا، فانخرطت في جو الاحتفال البهيج، وانسجمت مع الأجواء في يُسر رحماني.

- (تنضم هالة لسلمى التي وقفت في شرفة منزلهم المطلة على حديقة صغيرة) فيم تفكرين وأنت واقفة هنا وحدك يا عروس؟
- (تلتفت سلمى لها مبتسمة) كنت أفكر في تسنيم وعبد الملك، لماذا لم تصحبيهما معك اليوم في مناسبة كهذه؟
- (تلوّح بيديها بالله عليك يا سلمى! أمهليني قليلا لألتقط أنفاسي، كدت أنسى ما شعور أن يتحرك المرء بحرية دون كرتين صغيرتين متعلقتين بتلابيبه طوال الوقت!

- (تضحك ثم تردف معاتبة) إنهما طفلان وديعان بديعان، كيف طاوعك قلبك أن تقولي عنهما ذلك، بل وتغيبي عنهما كل هذه المدة؟
- (تهز كتفيها في ثقة) أجزم أنهما لم يلحظا غيابي في ظل صحبة والدهما، لا تتخيلين كيف ينقلب جو البيت حين يندمجون في اللعب، كأنهم ثلاثة أطفال لا اثنان!
- (تضحك) كم هذا مبهج!
- (تجاريها في نبرتها) وأي بهجة! فقط انتظري حتى تعيشي الأجواء بنفسك، ويصير عليك أن ترتبي كل شيء وراءهم بعد أن يتساقطوا في فراشهم واحدا تلو الآخر !
- حفظ الله لك أهلك، وأنبتهما نباتا حسنا.
- (في نبرة حنان) اللهم آمين، هم قرّة عيني وثمرّة فؤادي.
- (تومئ) بالتأكيد.
- (تحين منها التفاتة فتجد قاسما واقفا قريبا منهما، فتغمز له وتلتفت لسلمي) سأذهب لأتصل بحامد وأطمئن عليه وعلى الأطفال. أترككما إذن لأجوائكما!

- (تلفت سلمى بدورها إثر إشارة هالة بيديها لمن خلفها، ثم تعتدل في وقفها وتعذل طرف حجابها حين يقترب قاسم)
- (يتنحج، ثم يفتح خيط حديث بعد هنيهة صمت) النسيم عليل هذا المساء.
- (تومئ) صحيح.
- (يعود فيسكت في شيء من الحرج باحثا عن خيط آخر، ثم تحين منه نظرة لخاتم الخطبة في إصبعها) هل أعجبك الخاتم؟
- (تمرر إصبعها عليه) أعجبني كثيرا، جزاك الله خيرا.
- (في انشراح) لقد انتقيته بنفسه!
- (بتلقائية) نعم، أعلم!
- (مستغربا) كيف عرفت؟ (يلتفت للصالون في الداخل حيث وقفت هالة تحادث عمها) هل أفشت هالة لك السر؟
- (مبتسمة) لا، لم تقل هالة شيئا، وليس في الأمر سر بالنسبة لي.
- كيف ذلك؟

- (تعبث بالخاتم في شيء من الحياء) لأنني أعلم عنك عنايتك بتفاصيل من يهملك أمرهم.
- (يبتسم) "يهمني أمرهم" فقط؟ هذه عبارة رسمية بالكاد تؤدي ثقل ما في قلبي تجاه الخاتم.
- (تبتسم ولا ترد)
- (مستدركا) طبعاً تعلمين أن الخاتم مجاز وليس مقصوداً لذاته!
- (تغمغم وقد تورّد خدّاه) نعم أعلم.
- (تتسع ابتسامته في انشراح، ثم يرفع نظره عنها ليتأمل الخضرة المنبسطة أمامهما) سبحان البديع!
- حقا وصدقا.
- هذا المنظر يذكّرني ببيت شعر أعجبني فحفظته.
- (تنظر له في فضول) ما هو؟
- رَبِّ ورقَاءَ هَتُوفٍ فِي الضُّحَى *** ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ
- (في دهشة) من قصيدة أبي الحسن النّوري؟ (يومي برأسه فتدرف) هذا من أبياتي المفضّلة كذلك!

- (مبتسما في ثقة) نعم، أعرف ذلك!
- وكيف عرفت؟
- (يضع كفه على صدره في حركة مسرحية) لي مصادري السريّة كما تعلمين!
- (مبتسمة) هالة، أليس كذلك؟ هذا مصدرك السري مذكّنّا أطفالا.
- (في زهو) صحيح، لكن مصادري تنوّعت الآن!
- (تنظر له في تعجّب) مثل ماذا؟
- (يتلفت يمينا وشمالا كأنما سيذيع سرا خطيرا، ثم يخرج من جيب بدلته الداخلي كتيبا صغيرا يناوله لسلمى)
- (تقرأ العنوان على الغلاف) "أجمل أبياتٍ قالتها العرب"، (تلتفت لقاسم مندهشة) لم أتوقع أن لديك وقتا لمثل هذه المطالعات.
- (يحوّل بصره عنها ويطرق بأصابعه على سور الشرفة) وما الذي قد يشغل وقتي غير إدخال السرور على قلب من "يهمني أمرهم" بكل سبيل أستطيعه؟

- (تحوّل بصرها هي كذلك وقد أثارت فيها بادرتة شعورا بالتقدير والإكبار، ثم تسأل بعد هنيهة صمت) ألا يرهقك أحيانا كون وقتك دائما مشغولا بغيرك؟

- (مبتسما) أنا لا أرى الأمر هكذا.

(يرفع بصره للسماء المنجومة كأنما هو فيلسوف عريق) ربّما يظن من يظن أن في العطاء وغيره من الفضائل تضحية بسعادة المرء، لكنني أراها عين السعادة، وأعتبرها غاية تحقيق الوجود لا وسيلة لغيرها من حظوظ النفس. إنني أرى أن الفضيلة مثوبة نفسها ومكافأتها الحقيقية إنما هي التوفيق إليها، تماما كما أن السكر تحلية نفسه! ومن ثم فأنا لا أشعر حقيقة أنني "أسير" العطاء للغير إلا بقدر ما أنا أسير فضلهم كذلك في قبول عطائي والمساهمة في مثوبتي، فحلاوة العطاء ليست بأقل من سرور الأخذ بالنسبة لي. وإذا كان هذا الغير هو أمي وأخواتي فأنا لا أكون أصلا بغيرهم. وإذا كان هذا الغير هي.. (يسكت هنيهة كأنما يزن الكلمات بما يسمح به المقام، وتطرق سلمى على استحياء وهي تتوقع من سيسير إليه) وإذا كان هذا الغير حليلتي في الله، فهي منّي وأنا منها. (يسكت قليلا ثم يردف) هكذا أرجو أن أكون عندها.

- (ارتجّ على سلمى تحبير رد مناسب لذلك الفيض النبيل من الشعور، فلم يسعها سوى أن تتمتم) زادك الله برا وإحسانا وإخلاصا.
- (يومئ برأسه) اللهم آمين. (بعد هنيهة صمت) لكنني الليلة بالذات أرحّب بمكافأة العطاء بعطاء مثله!
- (تلفتت إليه مستغربة) ماذا تقصد؟
- (يدخل يديه في جيب بنطاله ثم يتنحج) قد أسمعك تلاوتي، وأطمع في أن أمتع سمعي بشيء من إنشائك البديع وبيانك البليغ!
- (ترفع حاجبها وقد فهمت مرماه، ثم تحوّل بصرها عنه وتطرق بأناملها على سور الشرفة) ماذا تحب أن تسمع؟
- (يأخذ نفسا عميقا ويبتسم) يطيب لي أن أسمعك تصفين لي تصوّرك عن مفهوم الزواج!
- (تلفتت له مندهشة) هذه مادة بحث كامل لا إنشاء عابر!
- (يضحك وينظر لها بإعجاب) هنالك واحدة أعرفها كل إنشائها العابر مواد بحث كامل!
- (تتنهد في شيء من الاستحياء وتغمغم) أمهلني قليلا إذن لأحبر لك شيئا.

- (يستند بكوعه إلى سور الشرفة في انشراح، ويرد بعفوية) أمهلك عمري كله إذا لزم الأمر.

- (تعدّل حجابها وقد غمرها فيض شعوره، فترد في إكبار) بارك الله لك في عمرك وعملك، وأنا أردّه لك مضاعفا بامتثاني.

(يهم قاسم بالرد لكن تحين منه التفاتة لأخته هند وهي مقبلة لتناديهما لتناول العشاء، فيشير لها بيده من وراء سلمى أن تنصرف حالا ولا تقطع انسجامهما. تقف هند برهة تحدّق فيه مستاءة، ثم تزم شفيتها وتشير له أن يسرع في إنهاء حوارهما لأنهم جائعون! فيومئ لها قاسم برأسه، ثم يبادر حال انصرافها لئلا تنتبه سلمى)

- تفضلي، كلي آذان صاغية.

- (تعود فتعدّل حجابها في تأهّب، ثم تطلق بصرها في الخضرة المنبسطة أمامهما كأنما تستلهمها مادة التعبير) إنني أرى التصرّو الرّبّاني للزواج أنه مؤسسة تعاونية على أمر الله، تعبدية بشرع الله، وقفية ابتغاء وجه الله. فلا عجب أن وصف الله تعالى ميثاق الزواج بـ "الغليظ"، وهو وصف لم يوصف به ميثاق آخر في القرآن سوى الميثاق الذي أخذه الله على الأنبياء! ومن ثمّ فالزواج بالنسبة لي ليس روضة المحبّين ونزهة المشتاقين فحسب، بل هو في الحقيقة قمة المسؤولية الرّبّانية وأعظم أبواب الجنة العلوية. وحقوق

أفراده كما قرّرها شرع الله تعالى في ذلك المجتمع المصغّر، إنما هي تبع لواجباتهم وأدوارهم كما وزّعها بينهم بارئهم والمؤلف بين قلوبهم. (تسكت هنيهة).

- (يستمتع لها مطرقا في انتباه شديد، حتى إذا وقفت بادرها في اهتمام) أنتِ أول من أسمع منها هذه الجديّة في تصوّر الزواج، وقد غلب على ظني أنني سأسمع تخيلات ورديّة وصورا حالمة. (يرفع رأسه مندهشا كمن تذكر شيئا) حتى إنني لم أسمع ألفاظ المودة والرحمة والسكن في سياق هم أشد ما يكونون لصوقا به!

- (تبتسم في ثقة) لبيّك وسعديك، التفصيل قادم إليك!

- (يعود فيتكئ على الشرفة في انسجام) إذن ما سبق كان الإجمال العام فحسب؟

- (تومئ برأسها وتردّف) لا مراء في أن الله سبحانه وتعالى أراد هذه العلاقة سكنا على أساس من المودة والرحمة، للتعاون على البر والتقوى، ابتغاء وجهه الكريم. وإنما بدأت تصوّري بالجانب الجاد لا الوردى - كما وصفته - لأنني أرى الحاجة لتغليب استشعار عظم المسؤولية التي تقوم عليها مؤسسة الزواج، وطبيعتها الوقفية في المقام الأول، والإعداد بالتالي لكم التفاني اللازم من كل طرف قبل توقع المردود من صاحبه. وحرّى بمن

يتصوّر هذا التصور أن يستقيم عنده اعتقاد أن نفسه وأهله وماله وكافة ما ملكه الله تعالى عارّة مردودة. فكل أفراد هذه المؤسسة إنما يعاملون الله أولاً وأخيراً، ولا يتخذون مسمّى الله وشرعه مطيّة لتحصيل مصالح الذات أو التهديد والتلويح بها في وجه البقية.

(تبدو في نبرتها وحركاتها حرارة التفاعل مع ما تقول) تخيّل لو تسلّط الزوج – مثلاً - باسم حقه الشرعي في الإذن لزوجته بالخروج، فمنعها من صلة رحمها أو برّ صديقاتها أو تحصيل علم ينفعها، وذلك لمجرد التسلّط فحسب بغير سبب مانع أو ضرر لاحق أو بديل مُجزي. وكانتقام في المقابل رفعت الزوجة البطاقة الحمراء بامتناعها عن الخدمة المنزلية إلا في حدود الواجب "الشرعي" منها، أو راحت تمنّ عليه وتريق ماء وجهه لقبولها مشاركة السكن مع أسرته، وتنازلها الكريم عن حقها الشرعي في سكن منفصل! قل لي إذن أنّي تتأتى لمثل هذه الأنفس مودة ورحمة في نفسها قبل غيرها؟ وأين التعاون على البر والتقوى الذي هو غاية هذا الاجتماع؟ بل أين تعظيم الله وتقواه في مؤسسة لا تقوم ولا تدوم إلا بتوفيق الله؟! لو فقه كلا الزوجين حقيقة الزواج وكونه مَعْبَرًا لأشواق أُسمى، لما اتّخذ أحدهما مطيّة لمآرب وفتيّة فحسب، أو غاية في ذاته لمصلحة في نفسه. ولمّا رأينا استهتار التلويح بالطلاق والتهديد بالخلع عند كل منعطف، كأن

الزواج نزهة أطفال لا مكان فيها إلا للهو والتمتع والطلبات، ثم الانصراف بلا مسؤوليات ولا تبعات ولا مروءة، كما يليق براشدَيْن اجتمعوا لبناء رشيد!

(تتوقف قليلا لتلتقط أنفاسها بعد تلك الحماسة، ثم تستدرك في نبرة أهدأ) وهذا لا ينبغي أن يقع بين الزوجين انفصال أو طلاق لأسباب وجيهة، لكنه يصير خروجاً بالمعروف كما كان دخولاً بالمعروف في البداية.

- (كان قاسم قد استقام واقفاً من اتكائه، وقد اتسعت حدقاته وهو يتابعها باستغراق)

- (تلفتت إليه وتراه مأخوذاً، فتبتسم في حرج) اعذرني، لقد جرفتني الحماسة واستغرقت في الإنشاء أكثر مما ينبغي!

- (يمرر يده في شعره ويأخذ نفساً عميقاً) لا، لا، إطلاقاً. بل إنني في قمة السعادة والانبهار بهذا الطرح. وصدقيني إذا أقول لك إنني في أعماقي أتبتى هذا التوجه قلبياً، وإن لم أحلم يوماً أن يسعفني لساني لينظمه كما تفعلين.

- (تسعددها رؤية معالم السعادة مرتسمة على قسماط وجهه البهيّ) إذن أرجو أن تكون قد متعت سمعك بما يكفي في ليلتنا الأولى كمخطوبين، فلندع شيئاً للقاءاتنا المقبلة وإلا سنصاب بالملل!

- (يضحك) أُصاب بالملل معك؟! إنني حين أكون معك لا يصيبني إلا..
(يتوقف هنيهة ليسترد رباطة جأشه ويزن كلماته، ثم يبتسم في هدوء)
خير، كل خير.

- (تبتسم وتطرق لتداعب بأناملها الزخارف المنقوشة على سور الشرفة)

- (كأنما تذكّر شيئاً) صحيح، أذكر أنه مرّ بنا قبلاً مفهوم "عارية مردودة" في قصة حكاها لنا أبي - رحمه الله - ونحن صغار. كانت عن صحابية توفّي طفل لها واحتارت كيف تبلغ زوجها، أو شيئاً كهذا. للأسف نسيت التفاصيل وبقيت معالم القصة. هل تذكّرينها أنت؟

- (تومئ برأسها) هي أم سليم بنت ملحان رضي الله عنها، وزوجها أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه. كان لهما ابن يشتكي مرضاً، حتى توفاه الله يوماً وأبو طلحة خارج البيت في حاجة، فقالت أم سليم لأهلها: "لا تُحدّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أُحدّثه"، فلما رجع أبو طلحة سأل أول ما سأل عن ابنه قائلاً: "ما فعل ابني؟"، فردّت "هو أسكّن مما كان"، وفي ذلك تورية بارعة لا تخفى، فظاهر العبارة يحمل على أنه نائم في هدوء أو حاله مستقرة، وهي تقصد أن روحه فاضت. فصدقت في كلامها وأصابت في مغزاها، رضي الله عنها وأرضاها.

- (يغمغم في تأثر) بالصبرها ورجاحة عقلها، رضي الله عنها وأرضاها.

- (تتابع) ثم قربت إليه العشاء، فأكل وشرب، ثُمَّ تَزَيَّنْتَ له كأحسن ما يكون التزين فوقع بها. فلما رأَتْ أنه قد شَبَعَ وأصاب منها، قالت: "يا أبا طلحة، أَرَأَيْتَ لو أن قوما أَعَارَؤا عَارِيَّتَهُمْ لأهل بيت فطلبوا عَارِيَّتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قال: لا، فقالت: إن ابنك كان عَارِيَّةً من الله، وقد استرد الله عَارِيَّتَهُ، فاحتسب ابنك عند الله يا أبا طلحة". وفي اليوم التالي، انطلق أبو طلحة رضي الله عنه، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بما كان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بارك الله لكما في غابر ليلتكما". وورد في صحيح البخاري عن رجل من الأنصار: "فَرَأَيْتُ لهما - أي لأبي طلحة وأم سليم - تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن"، من أثر بركة دعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام.

- (يطرق دافع العينين) صَلَّى الله على نبينا المصطفى، ورضي عن أصحابه الغُر الميامين. لله دَرَّهم أتعبوا من بعدهم!

- (تؤمن على دعائه) وأي تعب!

- (يفرك عينيه ليزيل أثر الدمع، ويبتسم متفكراً) إذن هذه العارِيَّة المردودة، أي أنها إعارة مؤقتة وليست ملكاً حقيقياً، ومآلها أن ترد إلى مالِكها الأصلي.

- صحيح. ولذلك كان الدعاء وقت المصيبة بالذات : "إنا لله وإنا إليه راجعون"، ليزكروا بأن كل ما يملكنا الله في أمد هذا العمر، إنما هو مناط اختبار وابتلاء لحسن سعيينا وعملنا فيه، وليس ملكا خالدا، ولا حقا مكتسبا.

- سبحان الله! صدقت. ويحضرني قول ربنا تبارك وتعالى : "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" [البقرة : ١٥٥]. لقد نبهنا الله تعالى مسبقا أنه سيُنقص بمقدار من كل تلك النفائس التي يعزها ابن آدم. لو أننا فقط نداوم على تذكير أنفسنا وتنبيهها لحقائق الوجود وسنن الاختبار ومقاصد العطاء والمنع، لما بُعد أن يتكرر نموذج أم سليم وأبي طلحة.

- (تأخذ نفسا عميقا وتبتسم) فلنبداً بأنفسنا ونجتهد في ذلك، والله يتولانا بالسداد في الاقتداء، ويجعل من ذريتنا للمتقين إماما.

- (يلتفت لها وعيناه تلمعان سرورا) ولك مني عهد الله وموثقه أن أعينك على ذلك.

- وأعدك بمثله وزيادة ما استطعت..

(يقاطعهما صوت هند وهي تقترب منهما منادية عن بعد، لتلفت نظريهما معا قبل أن يصرفها قاسم ثانية في الخفاء)

- (تقبل هند مبتسمة وهي تنظر لقاسم نظرة ذات مغزى) أعتذر لمقاطعة الأجواء الشاعريّة، لكن المائدة صارت جاهزة لنتناول العشاء.

- (يغمز لها قاسم مماًزحاً) طبعاً إذا حضرت المائدة بطلّت الشاعريّة عند هند! وهل المائدة هي الجاهزة يا تُرى أم الكعكة بالتحديد؟

- (تضحك وتلكزه في كتفه برفق) المائدة والكعكة معا يا ظريف! هيّا خفف عن عروسك ولا تطلّ عليها وعليّنا، ما زال أمامكما عُمرٌ بكامله لتتحابّا فيه!

- (تضحك سلمى لضحكهما وقد أراحها تغيير الأجواء) أنا كذلك أشعر بالجوع، هيّا بنا.

- (يفسح قاسم لهما الطريق بانحناء، فتتشابك يدا الفتاتين وتتجهان للمائدة، ويتخلّف قاسم وراءهما قليلاً ريثما يملأ صدره من النسيم العليل وهو يشعر بأوّج الانسراح) .

مرّ الوقت سريعاً بعد تناول العشاء، ومضى الليل يرخي سُدوله على ما حوله رويداً رويداً، وإذا الجمع قد انصرف في حفاوة كما أقبل في حفاوة، وإذا سلمى تخلو بنفسها في غرفتها وقد صارت مخطوبة رسمياً لابن عمها.

جلست سلمى على فراشها في غرفتها، ومدّت كفها أمامها تتأمل خاتم الخِطبة. كان الخاتم من الرقة والدقة في التصميم كأنما يَنطقُ مُبيناً عن حرص صاحبه في انتقائه، فقاسم يعلم كم تعشق سلمى التصاميم الرقيقة وتلتفت للتفاصيل الدقيقة، ولم يخف على سلمى مدى نباهته لذلك ومراعاته لمحابّتها.

ثم أغمضت عينيها لتستحضر صوت قاسم الندي والمسحة الملائكية التي علت وجهه وهو يتلو سورة (مريم). وعادت بذاكرتها للوراء حين كانت هي وأولاد عمها صغاراً يتشاركون كل شيء تقريبا، ويقضون غالب أوقاتهم معا في مختلف الأنشطة، قبل أن تبلغ هي سن الحجاب ويبلغ قاسم مبلغ الرجال، ثم ينشغل بمسؤولياته بعد وفاة والده. ورغم اختفاء شخصه تدريجيا من المجالس الأسرية ظلت سيرته حاضرة فيها على الدوام، فنشأت سلمى على استشعار إجلال وتقدير له، خاصة تلك الغلالة الرقيقة من الطمأنينة والسكينة التي تحف منزلهم مصاحبة حضور قاسم حين يتاح له ذلك. واستحضرت ما دار بينهما من حوار وهي تفتّش في ثنايا قلبها عن حقيقة شعورها تجاهه وقد صارت الآن مخطوبته، فوجدت أنها تكن له كل مودة وتقدير وإعزاز.

لكن، هل هذه المشاعر هي الحب؟ أم لعلها شيء كالحب؟ وإن لم تكن كذلك فماذا يكون الحب غير هؤلاء؟

إنها لا تُحسّ في وجدانها تُجاهه ما كانت تُحس من انتقاد وحرارة تُجاه أحمد، ولكن هل كان ذلك الانتقاد أثر حب قد صفا فعلا؟ أم هو أثر شهاب لمَح في سماء قلب لم يشهد له مثيلا من قبل؟ ولكل جديد لذة بطبيعة الحال، لاسيما حين تضاف له خيالات الشباب وأحلام البنات. ربما لم يكن للحوار مع قاسم نكهة التوابل، ولا وهج استكشاف مكنون جديد عليها، لكنها شعرت فيه برياحين من المودة، وفيوض من الرحمة والحنان.

ثم إن أحمد وإن كانت فيه المقومات الصحيحة فقاسم كذلك لا يخلو من مقومات صحيحة بدوره، ربما ليست هذه كتلك، لكن لكل مقوماته في سياقه، ومن غير المنصف أن تقارن بينهما، لأن أحمد ليس النموذج الأوحد للمقومات الصحيحة - وإن كان الأقرب لما تطلعت له. ولأنه لم يعد من حقها أن تفكر فيه مجرد تفكير ناهيك أن تقارن به، فقد ضُرب بينهما بسور لا سبيل لتجاوزه، ولا يفيد تسلقه أو اختلاس النظر من بين ثغراته.

ولم يكن قاسم بأقل منها تجوالا في ذكرياتهما في ذلك الحين. كانت سلمى في طفولتهما هي دائما العقل المدبر والرأس المفكر، وكانت أكثرهم إقبالا على العلم والمطالعة وأحفظهم ذاكرة وأسبقهم لختم القرآن. ومع ذلك لم يَبْدُ منها تكبر أو تعالٍ على أقرانها، بل كان يدهشه أحيانا ما تظهره له من توقير صادق واحترام وافر، كأنه عالم زمانه.

والحق أن سلمى لم تكن ممن ينشغل بمقارنة نفسه بغيره، لأن سباقها الشاغل كان مع ذاتها هي، وترى أن لكل فرد نسيجه الفريد وتميزه الخاص. لذلك ما رأى قاسم لها عليه تميزا إلا رأت له مثله في سياقه، فلئن كانت رأسا في التدبير لطالما كان خير ساعد في التنفيذ، متصدّيا بحماسة لتشجيع أفكارها، وتحمل الملامة عنها وعن أخواته إذا نتج عن مغامراتهم شيء من الضرر.

فلم يكن يشغل سلمى إذ ذاك ما توهّمه قاسم من درجة تفاضل بينها وبينه، لأنها تراها فروقا فردية وتكاملا جماعيا، خاصة وأن قاسما لم يكن سطحيا على ما حُرّمه من استكمال التعليم النظامي، ولا كان ضحل المعارف وإن لم يكن واسع الاطلاع. وكان ممن يديم النظر في كتاب الله وسنة رسوله حتى فتح الله عليه بنفحات فكر وتدبر، كانت تتجلى في ثنایا كلامه وتنبّدى في تعاملاته.

إنما كانت خَشِيتُها أن يحال بين قلبيهما وما ينبغي له عليها من حقوق العشرة بما شغل قلبها من حب أول، وبدا لها أمثل من هذه المودة الأخوية. وما درت في تلك الليلة أنها تشاركت معه خير ما يُرتجى من قاسم مشترك. ففي تلك الليلة لاذ كل منهما بمصلاه ومحراه، يبتهل إلى الله أن يقدّر له الخير حيث كان، ويجعله لصاحبه - إذا كتب له - خير عون على أمر الله.

وصعدت للسماء تلك الليلة ابتهالات قلبين، على ما بينهما من تفاوت وما بينهما من بعد، جمعهما حب الله وصدق ابتغاء وجهه، فكافأهما الله اجتماعا في الحلال بإذنه على أمره، بعدما قضى بحكمته افتراق قلبين من قبل، فكان عاقبتهم في كل خير بما صبرا وأنابا، وكان الله بعباده لطيفا خبيرا.

- أهلا يا سيدة صفاء!

- (تصيح في سعادة) سلمى؟! كيف حالك؟ اشتقت إليك!

- (ضاحكة من صياحها) واضح! حتى إنك لم تتذكريني بمكالمة واحدة منذ حوالي شهرين!

- صدقيني يا سلمى، لم يكن يشغلني سوى موضوع أمي الحبيبة، فرغنا بحمد الله من تأثيث شقتها كاملة الأسبوع الماضي فحسب.

- الحمد لله، مبارك لكم يا صفاء!

- الحمد لله رب العالمين. أنا في قمة السعادة يا سلمى. أحمد إنسان رائع وزوج محب، غير أن أكثر ما يغيظني فيه، أننا ما دخلنا نقاشا إلا خرج منتصرا، بسبب حلاوة لسانه وحسن بيانه، حتى إنني كثيرا ما أتمنى لو كنت هنا لتردّي عليه! (تضحك)

- (تذوي ابتسامتها تماما ولا ترد)....

- سلمى؟ ما بك؟

- (في شرود) لا أبدا، لا شيء، أنا سعيدة لأجلك.

- العُقبى لك يا سلمى إن شاء الله!

- (يسترد صوتها شيئا من بهجته) وهذا ما اتصلت لأجله، أردت أن أدعوك
لحفل زفافي الأسبوع القادم!

- زفافك؟! ممن؟

- قاسم، ابن عمي.

وضعت سلمى سماعة الهاتف وتنهدت. لماذا اضطربتِ يا سلمى حين ذُكر
اسمه؟ أتشعرين بالغيرة؟ أم أنك توقعتِ ألا يحسن معاملة زوجته لمجرد
أنها لم تكن اختيار قلبه؟

لا يا سلمى! انفضي عنك هذه الأفكار! لقد قُدِّر لكل منكما أن يسلك
طريقا مختلفا، وقد مضى هو في طريقه، فامضي أنت كذلك في طريقك،
ولا تلتفتي! فما لطريقيكما من تقاطع!

- "أحمد، أحمد، أحمد!"

- يفتح أحمد باب الحمام مدعورا : "ما بك يا صفاء؟!"

- (تتقافز حوله في فرح) عندي لك خبر سعيد!

- (معاتبا) لقد أفرعتني! أهذه نبرة الأخبار السعيدة؟!

- (ما زالت تتقافز حوله كالأرنب) لن أخبرك حتى ترجؤني!

- (يبتسم) لن أستطيع أن أرجوك لأنني بالكاد أراكِ وأنت تتقافزين كالأرنب هكذا!

- (تكف عن قفزها وتصفق بيديها في جدل) سلمى ستتزوج!

- (يحدق فيها فاغرا فاه!!)

- من ابن عمها قاسم!! (تتناول الهاتف ثانية دون أن تلاحظ ما اعتراه) خبر عظيم! أليس كذلك؟ سأخبر أُمي لترتب لزيارتهم.. والفيستان!.. ينبغي أن أنتقي فيستانا ملائما.. بل أعتقد أنني سأفصل واحدا..

دخل أحمد غرفته وأغلق عليه الباب وقد أذهلته الصدمة! سلمى ستتزوج؟! كان يعلم في قرارة نفسه أن ذلك اليوم آتٍ لا مفر، ولكنه لم يكن يتوقعه بتلك السرعة! كان يشعر أنها بعدُ قريبة منه، وإن كان هو بعيدا عنها. ولكن ها هي ذي اليوم تبتعد عنه بُعدا لا قرب من بعده أبدا!

استفق من أوهامك يا أحمد!

سلمى ذهبت!

ذهبت يا أحمد ولن تعود!

كف عن الالتفات خلفك والتعلق بسراب ما فاتك!

قد مضيتَ في طريقك وقُضي الأمر ..

وها هي سلمى تمضي في طريقها هي الأخرى ..

وما عاد لطريقكما من تقاطع!

الفصل التاسع

وما أدرأهك ما الزواج !

مشت الحاجة فاطمة على أطراف أصابعها نحو غرفة سلمى، ثم فتحت الباب برفق، وأطلت برأسها الذي امتلأ شعيرات بيضاء، تنبئ عن عروس قادمة، وجدة منتظرة.

- ألم تنامي يا سلمى؟

- بلى، نمت قليلا يا أمي، واستيقظت للصلاة.

- (في إشفاق) لقد سهرنا أمس كثيرا في ترتيب الحقائق، كان ينبغي أن تنامي أكثر.

- (تبتسم) لا تشغلي بالك يا أمي الحبيبة!

- وبماذا أشغل بالي إذن إذا خلا منك! (تضحكان) حسنا، لقد صليتُ أنا وسأذهب لأعد الغداء. جهزي نفسك لنخرج بعد صلاة العصر إن شاء الله،

لنقل حقائبك إلى شقتك الجديدة. (تحين منها التفاتة إلى المكتب فترى قائمة دوّنت عليها أسماء) ما هذه القائمة؟

- قائمة بصديقاتي اللواتي أردت دعوتهن، لئلا أنسى أحدا.

- (تتناول القائمة وتأملها) أرى ثلاثة أسماء لم تشطب بعد.

- سأتصل بأميرة ورزان الآن إن شاء الله، لكن مرام لا ترد على الهاتف منذ أمس، ولا حتى أجابت على رسالتي لها تفها.

- (كأنّما تتذكر أحدا) مرام؟ أهي التي تزوجت منذ عام تقريبا، ودعتنا لحفل عرسها "الأسطوري"؟

- (تبتسم) نعم، هي.

قطع عليهما الحديث صوت جرس الباب، فنزلت الحاجة فاطمة لتجيب الطارق، وكم كانت دهشتها إذ رأت مرام نفسها واقفة أمامها. حيّتها مرام بابتسامة فاترة وغمغت باعتذار لحضورها دون موعد. فحيّتها الحاجة فاطمة ودعتها للدخول، وهي في ريب من منظرها الشاحب وعينيها المتورمتين. وإن هي إلا دقائق حتى كانت سلمى مجتمعة بزميلتها مرام، ولم يَخَفَ على سلمى ما بدا على وجهها من اضطراب، فلما استقر بهما المجلس، بادرتها سلمى :

- كيف حالك يا مرام؟
- (في اقتضاب) الحمد لله على كل حال..
- (في قلق) تبدين شاحبة جدا!
- (تنظر إليها مطولا ثم تنفجر باكياً) سامحيني يا سلمى إذ آتيتك فجأة محملة بالمشاكل، لكن الأرض ضاقت علي بما رَحَبَتْ، ولم أجد من أستشير في المصيبة التي وقعتُ فيها، حتى وصلتني رسالتك وعلمت أنك مازلت تذكرينني وإن كنت انقطعت عن التواصل.. (يغلبها البكاء فتتوقف)
- (ترت على كتفها، وتناولها علبة مناديل) هوني عليك يا مرام، أنا معك وسأساعدك ما استطعت بعون الله.
- (تمسح عينيها) سلمى، إنني أفكر في الطلاق من حازم!
- (تنظر لها مصدومة) طلاق! لم يمضِ على زواجكما غير عام واحد!
- لم أعد أستطيع العيش مع حازم أكثر من هذا!
- (مندهشة) ألم يكن هو الذي تركت الدراسة لأجله، وأصررت على الزواج منه رغم معارضة الجميع؟
- اكتشفت أنني كنت حمقاء!

- ألا ترين أن اكتشافك جاء متأخرا يا مرام؟!

- لا يهمني، لا أريده، لا أريده! (تعود لبكائها ثانية)

- (تربت على كتفها) هدئي من روعك يا مرام. ألا تقصين علي أولا ما دعاك لتفكري هذا التفكير؟

- (تمسح دموعها، ثم تُردف بعد صمت كسير) في البداية مرت الشهور الأولى بيننا على خير ما يرام، ثم لاحظت أن حازما يزداد عصبية بمرور الوقت. كنت أسأله عما يقلقه فكان يروغ من السؤال. ثم عرفت أخيرا أنه لم يسدد بعد بقية أقساط تكاليف حفل زفافنا، فراتبه لا يكفي، وهو لا يحب اللجوء لوالديه ويفضل الاعتماد على نفسه، ولذلك حاول تحصيل وظيفة أخرى، وبدأنا مرحلة التقشف لتوفير النفقات.

مرت أربعة أشهر تقريبا على ذلك التقدير، وكلانا يزداد عصبية بمرور الوقت، وينفجر في وجه الآخر لأتفه الأسباب. وفي النهاية لم أعد قادرة على الاحتمال، فواجهته مباشرة. حاولت إقناعه باللجوء لوالدينا لدفع الديون، إلا أنه ثار في وجهي. فهددته حينها بأنني سأخرج بحثا عن وظيفة، ولكنه سخر مني لأنني تركت الجامعة وليس معي سوى شهادة الثانوية، فما كان مني إلا أن صرخت بوجهه أنه لو كان رجلا حقا لما ألجأنا إلى استجداء الناس.. ف.. ف (تتحدّر دموعها وتسكت لحظة لتلتقط

أنفاسها المتسارعة) صفعني! تصوري يا سلمى! صفعني، وخرج من البيت نائماً! ومن يومها تخاصمنا، فلا نتكلم إلا لِمَما، ولا نرد على بعضنا إلا بجفاء. كان يحاول مصالحتي في البداية، إلا أنني كنت أصدّه بقوة، وأنفِر منه، لأنني كنت جد غاضبة. ثم صارت معاملته لي فجأة باردة ولامبالية، ولم يعد يحاول مصالحتي، أو يبدي أي مشاعر تجاهي، فشعرت أنه يخفي عني شيئاً. في البداية لم أتوصل لحقيقة ما يخفي، حتى استيقظت من النوم ذات ليلة - وقد صار ينام في غرفة المعيشة منذ اختلفنا - ولم أجده نائماً في مكانه. بحثت عنه بهدوء، فلمحت نور غرفة المكتب مضاء. اختلست النظر من ثقب المفتاح، فوجدته جالسا إلى جهازه والساعة تشير للثالثة صباحاً، فرابني أمره. في صباح اليوم التالي، بعد أن خرج هو للعمل، ذهبتُ وفتحتُ جهازه.. (تتوقف مرة أخرى لتلتقط أنفاسها اللاهثة) فوجدته يخزن مجموعة كبيرة من.. من صور النساء ال.. ال.. (تمسك عن اللفظة ترفّعاً وتنظر لسلمى نظرة ذات مغزى)!!

- (تشهق في ذهول) معقول!؟

- (تبكي) نعم، رأيته بأَم عينيّ، وودت لو أن عينيّ عَمِيَتَا قبل أن تراها. ساعتها أدركت أنه صار يدمِن تلك المواقع الإباحية، وتأكدت من ذلك لَمّا اطلعت على المواقع التي يتصفحها. شعرت بالشلل يجتاح أوصالي كلها حتى تفكيري. ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أستقل سيارة الأجرة إلى بيتكم.

- إذن فهو لا يعرف بما رأيت؟

- لا!

- ولا أنك عندي؟

- لا!

- (تُتَمِّم) هذا أفضل!

- (تنظر لسلمى برجاء) ماذا أفعل يا سلمى؟ أرجوك انصحيني، أنا مشوشة وحائرة! أهذا الذي ضحيت لأجله، ووقفت إلى جانبه في وجه الجميع، وأولهم والداي! (تتقاطر الدموع على خديها).

- (تربّت عليها سلمى في تعاطف) لا بأس عليك يا مرام، اهدئي أولا ويكون خيرا بإذن الله..

- (تقاطعها وتنظر إليها غير مصدقة) خيرا؟! أي خير يا سلمى؟ هذه فضيحة ما بعدها فضيحة!

- ما رأيك لو أحكي لك أولا قصة يا مرام؟

- (تزم شفيتها بنفاد صبر) ألها علاقة بمشكلتي؟

- (مبتسمة) بل وثيقة الصلة بها!

- (تمسح بمنديل دموعها التي تناثرت على خديها) ما هي؟

- قصتنا تحكي عن فتاة جميلة مدللة من أسرة ميسورة، التقت بزميل من قسم آخر في الكلية يكبرها بسنتين، من أسرة ميسورة كذلك، ووقعا في الحب من النظرة الأولى! ولأن تلك الفتاة كانت طالبة جامعية فقد ظنت أنها نَصِبَتْ بما فيه الكفاية لتصبح زوجة. والحق أنها كانت فتاة لطيفة، إلا أنها مدللة كل التدليل، لا ترى الحياة إلا باللون الوردي، ولا تعرف من الزواج إلا الفستان الأبيض ولقب العروس وشهر العسل. فركبت رأسها، وأصرت على الزواج منه رغم نصائح الصديقات وتحذيرات الأهل، ليس بهدف منعها من الزواج مطلقا، ولكن بهدف إعدادها له حتى حين. غير أن صاحبتنا أصرت في عناد على ترك الدراسة والزواج منه في الحال!

- (تطأطئ رأسها في خجل) يكفي يا سلمى، أعرف نهاية القصة (تبكي) الآن فقط أدركت كم كنت حمقاء وغبية.. كنت فعلا سعيدة بالفستان الأبيض واهتمام الجميع بي.. لكنني.. اكتشفت.. أن..

- أن تكوني عروسا أسهل من أن تكوني زوجة، أليس كذلك؟

-(تطرق وترمّ شفتيها)

- قلتُ لكِ إن ما تقدمين عليه مسؤولية عظيمة، وليس مغامرة ممتعة كما كنت ترين!

- كنت أحسب أنني وصلت لسن الزواج بعدما صرت في الجامعة، بل أعرف كثيرات ممن تزوجن وهن أصغر مني سناً.

- ليس الزواج بالسن فحسب يا مرام، ولكن بمدى أهلية واستعداد كل فرد أن يُشرك غيره في حياته، ويصير مسؤولاً عن نفسه وشريكه في آنٍ معا. وليس الزواج لعبة يتشارك فيها طفلان، بل حياة وأنفاس يتقاسمها اثنان راشدان، مدركان لما هما مقدمان عليه. إنها أمانة عظيمة ومسؤولية كبرى يا مرام. ذلك يعني مزيداً من الإيثار، وكثيراً من التفهم، وقدراً من النضج والحكمة في التعامل.

- لم أدرك ذلك إلا بعد ما مررتُ به.

- ثم كان إصرارك على ذلك "لعرس الأسطوري"، وكل مظاهر الترف المكلفة والمبالغ فيها!

- (في خجل) لم أكن أريد أن أظهر أقل من صديقاتي!

- وهل ستشاركك تلك الصديقات دفع النفقات؟ ومذ متى كانت المظاهر وكلام الناس هو ما يحكم تصرفاتنا يا مرام؟ ألم يقل الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام : "أيسرهن مؤونة أعظمهن بركة"؟ صحيح أنها ليلة العُمر، وصحيح أن أسرتيكما ميسورتان، لكن الإسراف إسراف، والإسراف لا يأتي بخير، وإلا لما نُهينا عنه.

- (تومئ برأسها في اعتذار) لم أكن أعلم أنه سيجر وراءه كل تلك التبعات المرة! لقد دفع والدي نصيبه من الأقساط المشتركة، ولكنني فوجئت أن حازما لم يوافق أن "يتبرع" والده بدفع نصيبه، بل أصر أن يدفعه باجتهاده الشخصي!

- ألم تكوني أنت من أيده في مبدأ الاستقلالية ذاك؟

- كان يزيد رجولة في نظري أول الأمر، حين يرفض الاعتماد على والديه ويصر أن يتكفل هو بنفسه. ولكن.. (تنكس رأسها في أسف) ليتني لم أؤيده في تلك الأفكار الساذجة!

- إنني أتفق معك يا مرام في مبدأ الاعتماد على الذات كوجهة للرجولة، لكنه وحده ليس معيارا، ولا تقاس الرجولة حتى بهذا المنظور. فلا معنى لاختيار تسلق الجبل حين يكون من الأسهل عبور السهل المنبسط، طالما يؤدي الاثنان لنفس الطريق في النهاية. أليس لنا في رسول الله أسوة حسنة؟ فإنه - عليه الصلاة والسلام - ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما. فليس إصرار زوجك على التكفل بذلك المبلغ الباهظ - وراتبه لا يكفي كما قلت - هو ما سيحقق له الاستقلال والرجولة. بل الحكمة أن يستعين بوالديه في هذه، ثم يتفرغ لاستقلاله بعدها. لكنكما

تَحْمَلَانِ نفسيكما فوق طاقتيكما، وتختلّقان بهذا مسؤولية أثقل من أن تتكفلا بها وحدكما.

- فهِمْتُ هذا متأخرا يا سلمى. ولكنه يرى أنه صار رجلا ولم يعد طفلا يحتاج والدين يَرْعِيَانِهِ!

- أَلَمْ تتَأَلَمِي أَنْتِ يا مرام لأن زوجك لم يقدر تضحيتك لأجله؟ فكذلك تخيلي معي كَدَّ والديك طوال سنوات عمرك. لِمَنْ كل ذلك؟ أليس لأجلك؟ ليوفرا لك كل ما تحتاجين؟

- بلى.

- فكيف بك حين تجحدين كل تلك النعم السابغة، وتصرين على الانفراد بنفسك بعيدا عنهما، لتبدئي حياتك "من الصفر"؟

- !!

- إِنَّكَ حينها تمارسين أفسى أنواع العقوق معهما يا مرام، تحرمينهما من الدور الذي اجتمعا عليه لأجلك، وترمين بكل كَدِّهما وراء ظهرك كأنك تقولين : "لم أعد أحتاجكما"! أهكذا يُكَافَأَانِ بعد كل ما لقياه من عَنَتٍ في البناء والادخار لمصلحتك؟

- (مندهشة) لم أفكر في ذلك أبدا من هذا المنظور!

- ولن نَعِيه حقا إلا حين تصيرين أما ويصير هو أبا، يجد ويجتهد ليوفر لأبنائه أفضل العيش وألْيَنَه، ثم حين يكبرون يرفضون ما أفنى عُمُرَه في جمعه لأجلهم، ويصرّون على أنهم لم يعودوا أطفالا، ولا يحتاجون أمواله وجهوده! وترينهم أنتِ يمضون ليتزوجون على هواهم، دون أن يعبئوا بقبولك، أو يحرصوا على استرضائك وإن خالفوا اختيارك! ويصمّون آذانهم عن الاستماع لنصحكما ولو من باب التوفير. إن مبدأ الاستقلالية بهذا التصور، لا أراه إلا ظلما وجحودا يا مرام.

- (تطرق دامعة) يا والديّ الحبيبين! لم أفكر في الأمور إطلاقا من منظورهما. كم أخطأ كلانا في حق والديه، و ما أرى ما نحن فيه إلا تبعّة ذلك الألم الذي سببناه لهما.

- (تسكت قليلا لتعطيها مساحة للتفكر، ثم تكمل في رفق) لا تبتئسي يا مرام، ما زال بإمكاننا إصلاح الأمور.

- (تلتفت باستنكار) أصلح أموري معه؟! كيف وقد أدمن تلك الـ..؟

- (تقاطعها برفق) إن أردت الحق وقد جئتني طلبا للنصيحة، فأنت تشاركينه الذنب.

- (تشهق) أنا؟

- بإعراضك عنه وإمعانك في هَجْره، وتلك أقسى عقوبة يوقَّعها أحد الزوجين بالآخر.

- لقد صفعني وأخطأ في حقي!

- لأنك بادرت به بالانتقاص من رجولته!

- لأنه سَخِرَ مني!

- لأنك لم تُحسني عرض الأمر من البداية!

- (في استياء) ما بك يا سلمى؟ أنتِ معي أم معه؟

- (تبتسم) لا معك ولا معه يا مرام، أنا معكما معا، مع بقاء بيتكما واستقرار مملكتكما.

- مملكتنا؟

- بالتأكيد يا عزيزتي، ألا تعلمين أنه منذ اليوم الذي دخلتما فيه مملكتكما، لم يعد هناك حد فاصل بين أنا وأنت، وإنما ينبغي أن يتلاحما ليصيرا "نحن".

- (تغمغم غير مقتنعة) لكل منا شخصيته المختلفة.

- صحيح، ولكنكما تألفتما على اختلافكما يومَ وقَّعتما الميثاق الغليظ،
فصرتِ منه وهو منك. ولا يتحقق معنى السكن وظلاله بمجرد اجتماع في
الجسد على انفراد في الروح.

- (تزفر في أسي) إنني لم أجد أيا من المعاني التي قلتها يا سلمى.

- لأنه زواج بُني على قواعد خاطئة.

- إن تهدم الأساس تهدم البناء كله.

- لكل قاعدة استثناءؤها. وفي مؤسسة الزواج، أحيانا في الإمكان التغاضي
عن الأساس، والسعي في تدارك البناء، إذا صدق الزوجان في طلب ذلك.

- فماذا أفعل إذن؟

- ينبغي أن تقتنعي أولا يا مرام أن عصبية زوجك إنما كانت لأجلك
وبسبب منك. فضلا عن تكاليف العرس الأسطوري، ما زال هناك الإنفاق
على بيته وأسرته الممثلة فيك الآن، ثم الأبناء بعد ذلك. خاصة وأنه يدرك
كونك من أسرة ميسورة، ولن تستطيعي الصبر طويلا على تلك الحال من
التقشف.

- كان يغنينا عن كل تلك المعاناة استعانته بوالده.

- حينها سنعود لمفهوم الاستقلالية الذي تحدثنا عنه قبلا، وتأبيدك له فيه.

- لقد اقتنعت أنا، فكيف أقنعه هو؟ مسألة رجولته تلك حساسة عنده!

- (في عتاب رفيق) قد كان ينبغي طالما أدركت ذلك ألا تتفوهي بتلك العبارة القاسية!

- (يظهر عليها الندم) أعلم أنني أخطأت، لكنني كنت غاضبة جدا، ومرهقة من كل ذلك التقتير والحساب في كل صغيرة وكبيرة.

- (تربّت على ظهرها في تعاطف) أرايت كيف تتراكم الأشياء الصغيرة التي لم تلق لها بالا، لتؤدي لهذا الانفجار؟ لذلك حاول والداك تأخير الزواج، حتى يشتد عُودك، وينضج فكري عن الزواج والشراكة وتحمل المسؤولية. وكذلك حاول والده إقناعه بالعدول عن عناده في تحمل مبلغ كبير كهذا، يفوق راتبه لعدة سنوات على الأقل كما قلت!

- (تنظر إليها في رجاء) فما العمل الآن؟ أشيري علي وسأنفذ ما استطعت.

- (تفرقع إصبعها في حماسة) الآن نتكلم! الخطوة الأولى أن تعودني لمنزلك و تتريني له كأحسن ما يكون الترين!

- (تقاطعها مستنكرة) أتزين له؟!

- (تومئ مؤكدة) بل وتنفني في إعداد جو صلح شاعري!
- (بابتسامة شبه هازئة) ما شاء الله! ثم؟
- ثم تتخيري ألفاظك بدقة شديدة، فتبدئي أولاً بالاعتذار..
- (معتضة) ولماذا أبداً أنا بالاعتذار؟! هو من ينبغي أن يبادر.
- لقد حاولَ فصددته، ثم إنه لا يزال نادماً لو لاحظتِ.
- أشك في ذلك يا سلمى، خاصة بعد فعلته تلك!
- بل إن إدمانه تلك الصور ما هو إلا لسد الفراغ الذي خَلَفَتْه بهجرك له. وبروده في معاملتك إنما هو دليل على مدى وطأة بعدك عنه ونفورك منه، ولكن كبرياه تمنعه من أن يظهر هو بمظهر غير المرغوب فيه.
- (ترفع حاجبيها في دهشة) لهذه الدرجة؟
- لهذه الدرجة وزيادة! ألم تكوني أنت التي تنشد الأشعار في رقة طبعه وحسن خلقه ومدى غرامه بك؟
- (تقطّب حاجبيها) كان هذا في البداية.
- لأنه كان يجاهد في موازنة الجمل، وإذا بك ترمينه كله عليه، ثم ثولينه ظهرك.

- (تخبّئ وجهها بكفيها في أسي) يا إلهي! لم أكن أفهم كل ما يجري حولي بهذا التصرّو! كم كنت طفولية وأنانية في تفكيري! (ترفع لسلمى عينين محتقنتين من الدموع) لقد أفسدتُ كل شيء وكنت أحسب أنني المظلومة في كل هذا! لا أمل في الصلح بيننا! (تطرق في خجل ودموعها تسيل على خديها) حتى إنني بادلته من الاتهامات والسباب ما يندى له الجبين! (تعود فتخبّئ وجهها بكفيها وتنتحب).

- (تسكت فترة لتتيح لها تفريغ عواطفها، وتستمر في التربية على ظهرها وهي تتأملها في إشفاق شديد. ثم تمد لها علبة المناديل ثانية، وحين تكفكف مرام بعض دمعها، تُكمل) إنني أعتقد يقينا يا مرام أنه لا علاقة إنسانية مستعصية على الصلح والوفاق، طالما تحقق في أطرافها قول الله تعالى "إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا" [النساء : ٣٥]. كلنا نقع في أخطاء، ويصعب علينا أحيانا فهم نفوسنا التي بين جنبينا والتعامل معها بحكمة، فكيف بنفوس غيرنا؟! لكن من صدق الرغبة في الإصلاح، فالله لا بد موفّقه إليه ولو بعد حين، لأنه تعالى هو مقلب القلوب، وهو الذي يجعل للصالحين في قلوب العباد وُدًا.

- (تغمغم من بين دموعها) ومع هذا يقح الطلاق حتى بين أكثر الناس تدبينا!

- (تومئ برأسها موافقة) ما قلته لا يعارض وقوع الطلاق أو غيره من درجات الانفصام أو البعد في العلاقات الإنسانية عامة. إنما كان كلامي عن مفهوم التوفيق للإصلاح، والقصد به المعروف في المعاملة والإحسان حتى في الهجر أو القطع، فيكون هجرا جميلا دون تشنيع أو تنكيل، وافتراقا بالمعروف دون بغضاء أو شحناء. وتأملي في هذه الآيات في سورة النساء كذلك : "وإن تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)". لن تتألف كل الأرواح بطبيعة الحال، لكن اختلافها لا يستلزم انعدام معروف المعاملة وسعة التعايش. بل إن الزوجين اللذين يتطلقان بالمعروف لا يبعد أن يردهما المعروف لبعضهما ثانية، أو حتى يعين أحدهما الآخر على الزواج من جديد بهذا المفهوم!

- (ترفع رأسها دفعة واحدة وقد كانت مطرقة، وتنظر لسلمي في تعجب، ثم ينقلب عجبها ضحكة وتقول) إن لك تخیلات فريدة منذ كنا طالبات يا سلمى! حتى وإن أمكن إيقاع الطلاق بالمعروف، من ذا الذي يصل لهذه الدرجة من الإحسان وسلامة الصدر؟! إن المجتمع الذي تتكلمين عنه في تصورك النموذجي هذا لا يوجد إلا في رأسك السَّلْمَاوِيّ، صدقيني!

- (تضحك لتعبيرها، وبعد هنيهة ترد في تَوَدّة) يكفيني أن يوجد في رأسي وأجتهد أن أعيشه في مجتمعي الصغير (تلفت لها) وأن يوجد في رأسك

وتجتهدني في تطبيقه في خاصة مجتمعتك. فهذا غاية ما نملك لنعذر أنفسنا أمام ربنا تبارك وتعالى، في التحقق بأدب هذا الدين العظيم وشرعه المحكم. ثم يتولى الله تعالى هذا التصور ويهيئ أسباب بذره وحياته في نفوس آخرين، وهكذا.

- (تسكت وهي تتفكر في كلامها وعلى وجهها أمارات اقتناع)

- ألا تذكرين أستاذ الاجتماع الذي زارنا مرة في الكلية، لتقديم ندوة عن سنن الله تعالى في الكون والمجتمع؟

- (تحك ذقنها متفكرة) أذكر الندوة والأستاذ، لكن لا تحضرني التفاصيل بالتأكيد، كان هذا من ثلاث أو أربع سنوات!

- (تومئ برأسها) مما رسخ في رأسي من كلامه : "كن فردا قبل أن تكون أمة".

- (تردد في نبرة استيضاح) "كن فردا قبل أن تكون أمة"؟

- (تعديل جلستها، وتشرح لها) المقصود أنه لا فرد مهما صغر صغير من حيث الأصل، لأن قيمة الإنسان وكرامته كمخلوق مستمدة من حقيقة أزلية، وهي أن الله لا يخلق شيئا ولا شخصا عبثا. حتى الحائدون عن أمر الله تعالى لهم وظيفة بدونها يختل ميزان هذا الكون كاختبار مؤقت،

تجديدها في قوله تعالى : "وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا" [الفرقان : ٢٠]، وقوله "وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سُلْحَارًا" [الزخرف : ٣٢]، وقوله : "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ
بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" [الأنعام : ١٦٥] . ومن هنا فلا ينبغي أن يستصغر المرء نفسه
استصغارا يمنعه أن يأخذ حياته بقوة وفرديته بتفرد، أو يظن أنه بغير
مجموعة أو تكتل لا يمكنه تحقيق شيء يذكر، فאלله لا يكلف نفسا إلا ما
آتاها. والتاريخ عامر بسير مشاعل الإنسانية، الذين كانوا في البداية أفرادا
قبل أن يصيروا في النهاية أمما.

- (تنظر لسلمى في شيء من الانبهار) ما شاء الله، تتكلمين في الأدب
والنفس، والآن علم الاجتماع! هل بقي شيء لا تتكلمين فيه يا سلمى!؟

- (تبتسم وهي تعدل من خصلات شعرها) لم اخترع شيئا مما قلت ولا
جئت إبداعا. إنما أنا طالبة نجاة أجتهد في تقفي آثار السابقين (تغمز لها)
على قدرتي السلماوي.

- (تضرب كفا بكف في حسرة) ليت لي بعض حظك من هذا الطلب، إذن
لكنت بلغت شيئا ينجيني من المصائب التي أوقعت نفسي فيها!

- هَوْنِي عليك يا مرام ؛ صدقيني ستمر هذه الأزمة على خير ما يُرام، لأنك هذه المرة تعلمت الكثير ونضجت في تصورك للأمور وتقديرك لآثارها. (تحوطها بذراعها) ثم إنّه مما يحسب لك أنك على دلالك ومرامك أقررت بخطأك دون مكابرة، وتحملتِ خُطْبِي العصماء في صبر جميل!

- (تضحك) أما الأولى فلا مفر من الإقرار ليتمكن الإصلاح. وأمّا الثانية فمن ذا يسمع منك هذه النفحات العلية ولا يملك إلا أن ينسجم معها! (تنظر لساعتها) ووالله لولا ضيق الوقت لوددت أن أسمع منك أكثر.

- نعم، صدقتِ، لا بد أن تسارعي في العودة لتطبّقي ما اتفقنا عليه.

- (تطرق قليلا ثم تخمغم في قلق) أتحسبين أننا لو تصالحنا سنتصافى حقا، ويعود لمحبتتي كما كان في البداية؟

- إنني واثقة من ذلك بإذن الله يا مرام. ألم تقولي إنه يصلي الفجر في المسجد ويحافظ على صلاة الجماعة ويحسن تجويد القرآن؟

- بلى!

- أما يزال يصلي في جماعة؟

- لم يعد منتظما فيها، أحيانا يؤديها في البيت، ولكنه ما زال محافظا على صلاة الفجر في جماعة (في شيء من التعجب المستنكر) ويقوم الليل كذلك!

- (في تعاطف) فذاك أولى أن تشفقي عليه يا مرام، لا أن تسخري منه. ألا ترين مدى الكَرْب الذي نزل به؟! زوجته خاصمته، والديون تراكمت عليه، والآن ذلك الجُرم العظيم الذي سقط في برائنه ولا يجد منه فكأكا، فلا راحة روحية، ولا راحة مادية، ولا راحة زوجية. لا ريب أن روحه معذّبة بذنبه ذاك. وقيامه وصلاته لا يعيْبَانِه، بل هما من سيردّانه بإذن الله. ألم يقل الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام "إن المؤمن خلق مفتونا تَوَّابَا نَسِيًّا فَإِنْ ذُكِرَ ذَكَرَ؟" وذلك الشاب الذي قال بعض الصحابة إنه يصلي ولكنه يفعل كذا وكذا، فرد عليهم المصطفى عليه الصلاة والسلام: "ستنهاه صلاته".

- (تطرق واجمة وقد بدا عليها الندم).

- (تضع كفها على كفيّ مرام في حنان) خذي بيده وأعينيه على الدنيا يا مرام، ولا تعيني الدنيا عليه. كوني له خير رفيق في هذا السفر المؤقت حتى حين، فإنك راعية في بيتك كما هو راع، ومسؤولة عنه كما هو مسؤول عنك. ابدئي بالتودد إليه بصدق، ثم أقنعيه بالاستعانة بوالديه، واحفظي له في ذات الوقت ماء وجهه بحسن تَخْيِيرِكَ للألفاظ، التي هي المِحْكُ في

مثل هذه الأمور. فَبَدَلْ أَنْ تقولِي له : "استعن بوالدك لأنك لا تقدر وحدك"، قولِي مثلاً : "أعلم أنك تجتهد لأجلي وأنا أثق بك، ولكنني أريد اختصار الطريق على كلينا لتتفرغ لما هو أهم". عززي ثقته بنفسه بثقتك أنت فيه، لأن العالم كله لو وقف ضده ووقفتِ أنت معه فسيصمُد. ولو كنت أنت ضده والعالم كله معه، فسيهوي. أتعلمين لماذا؟ لأنك صرت عالمه يا مرام، وهو عالمك. لقد صار عالمك الآن أَرْحَبَ يا مرام بتشاركه معه، فلا تضيقه أنت بتفكير طفولي معاند، بل زيديه سَعَةً وأريحيَّةً، بمزيد من التفهم، وشيء من الصبر، وكثير من الحب.

- (تنظر لسلمى منشرحة وهي تستشعر وقع تلك المعاني السامية) فرج الله كَرْبَكَ كما فَرَّجَتْ كَرْبِي يا سلمى، وجزاك عني خيراً. لقد صرت أحب حازماً أكثر من ذي قبل، بعد أن جئتكَ وأنا له كارهة. (يبدو عليها التردد) ولكن ماذا عن موضوع الصور؟ ماذا أقول له؟

- (تطرق هنيهة مفكرة، ثم ترفع إليها بصرها وتقول في نبرة حاسمة) يجب ألا يعرف أنك عرفت!

- (تسأل في حذر) لماذا؟ سأسامحه في كل الأحوال.

- ليس الشأن شأن المسامحة فهذا المرجو بينكما، ولا شأن الصور نفسها فذاك بينه وبين ربّه، وإنما الشأن كل الشأن فيما بعد ذلك. إذا أريق ماء

وجهه أمامك مرة، فحتى وإن سامحته هو لن يستطيع تقبّل اهتزاز صورته الرجولية في عينيك، وربما عاد ذلك ليكدر صفو مودتكما خاصة وهو يستشعر المنّة من جهتك عليه.

- (تحدّق في سلمى لوهلة كأنما تدير الكلام في رأسها) منّة؟ لكننا اتفقنا ألا منّة في الأمر فكلّنا نخطئ وأنا أتوقع منه مسامحتي كما أسامحه.

- بالتأكيد، لكنني أتكلّم عن منظور الرجل لخطئه أمام زوجته، وهو يمثل لها معاني القوامة والولاية والحصن، ومن كمال مروءته مسامحتها واحتواؤها بأخطائها. وأن تخرم تلك الصورة في عينيها هو ما سيسوؤه ويسيء إليه، لا ذات الخطأ نفسه. لذلك من الكياسة أن تستر الزوجة على أخطاء زوجها وتستتر معرفتها بها، وإذا احتاجت للفت نظره فلا بد أن تتخيّر مدخلا يتواءم وهذه الطبيعة النفسية.

- (تطرق مفكّرة ثم تغمغم في قلق) فماذا لو فاتحني هو واعترف لي؟ كيف أرد عليه؟

- هذا متروك للسياق وقتها، يكفي أنك تفهّمت هذا المبدأ الآن. وحين تعودين لبيتك أوصيك أن تبادري بصلاة ركعتين، وادعي الله أن يفرج غمك، ويلهمك رشدك، ويشرح صدرك، ويحلل عقدة من لسانك.

- (تأخذ بيدي سلمى شاكرة) جزاك الله عني خيرا يا سلمى. لن أنسى لك وقفتك إلى جانبي ما حييت. سأعود وأصلي وأدعو الله، وسأفكر في كل ما قلته لي، وبإذن الله ستنصلح أحوالنا، أليس كذلك؟
- (تشد على يديها مؤكدة) أنا واثقة من ذلك بإذن الله تعالى، وسأدعو لك في صلاتي اليوم بصلاح البال وتيسير الحال.

فسحة الأمل

صعد حازم الدرج في خُطُوات مُتتَابِلَةٍ، يَجُرُّ قَدَمًا بعد قدم، كأنما يجر جبلا بعد جبل، وقد نَكَّسَ رأسه كمن يحمل ما لا طاقة له به. انقطع فجأة النور الذي كان يضيء له السُّلَّم، فتوقَّف مكانه بُرْهَةً، ورفع رأسه، وراح يُحدِّق في الظلام الدَّامِسَ أمامه. مدَّ يده يَتَحَسَّسُ مفتاحَ النور، وهَمَّ أن يضغته ليضيء مرة أخرى، إلا أنه توقف وهز رأسه وهو يبتسم هَازِنًا! أنى ينتفع الأعمى بالنور؟ وأنى يبصر من طُمِسَ على قلبه؟ تماما كما لا يَطْعَم المَرْكُوم شذا الورود!

ليته كان يستطيع أن يضغظ زرا لينير الظلام الدامس بداخله، لينير له سبيل الهدى والرشاد، كما ينير له طريق صعوده، يا ليت! أبعد حازم يده عن مفتاح النور، وعاد يصعد الدرج في الظلام. وكأنما امتدت يد الظلام الحانية لتربت عليه، فاندفعت من عينه دمة حارة، كاد أن يُتْبِعَهَا بِأَخْرِيَّاتٍ، لولا بَقِيَّةٌ من ماء الوجه عَزَّ عليه أن يُضِيَّعَهَا ولو في الظلام،

فاستسلمت الدموع لإرادته في خُنُوع، وانسحبت من مآقيهِ، تاركة أختها اليتيمة تتحدّر على خده.

أحاط به الظلام كما يحيط الشّرك بالطّير المذعور. فلم تجر الرياح بما لم تشته سَفْنه فحسب، بل عَصَفَتْ بسفينته كلها فقلّبتها. لقد صارت حياته مع مرام جحيما لا يُطاق! لم يعد يشتاّق للعودة للمنزل، ولا عاد لكده ذاك ولا لحياته تلك معنى. دارت برأسه خواطر الطلاق، إنه الحل الأمثل لكليهما، لكنها ستكون فضيحة مُجلّلة لهما، ومُهيبة له حين تهتز صورته أمام أسرته.

كان والده على حق حينما حاول إقناعه بتحمل أعباء القسط عنه. وإنه ليذكر يوم دخل على والديه وهما يرتبان لحفل زفافه، وكيف انبرى والده - أول ما رآه - يراجع معه نصيبه من الأقساط ومواعيد السداد، وإذا به يُخمد جدوة الحماس في صوت والده، بإعلانه أنه "صار رجلا يستطيع الوقوف على قدميه!" وحاول يومها أن يأخذ الأمر هزلا ويسوق تبريرات واهية تتستر خلف معاني الرجولة والقوة وإثبات الذات والاستقلال، لم يفلح أي منها في محو تلك النظرة الكسيرة في عيني والديه. وإنه ليذكر والديه ليلة الزفاف وهما يتجنبان النظر إلى عينيهِ مباشرة، كأنما هما بعد عاتبان عليه. لكنه تجاهل ذلك، معللا نفسه بأنهما لا بد سيتقبلان قراره عاجلا أم آجلا.

غير أنه كان مدركا في قرارة نفسه أن تصرفه وأسلوبه كان لهما بمثابة طعنة من الخلف، لا يمكن أن تَصْدُرَ عن رجل فهم معنى الرجولة، التي قوامها كرم البرِّ ومروءة الإحسان. نعم! إنه لا يجد حَرَجًا في الاعتراف بهذا اليوم. لقد خسر كل شيء، ولم يعد يُضَيِّرُهُ أن يضيف تلك الحقيقة التي حاول تناسيها إلى رَصيده من الخُسران! لم يعد هناك المزيد ليخسره!

لقد كان في غنى عن كل هذه الحركات الزائفة، التي انتقصت رجولته أمام مرام بدل أن تُعَزِّزَهَا. وكانت والدته على حق حين نَبَّهَتْه أن مرام ما زالت طريَّة العود، ولن تتحمل أسلوب "طوبة فوق طوبة" و"البدء من الصفر" ذاك. لقد تواعدا وحلَّما معا، واتفقا أن يتصَدَّيا للجميع يدا بيد، غير أن الواقع كان أقوى من أن تَصْمُدَ أُمَامَهُ أَحْلَامُهُمَا الغَصَّة الرهيفة. وما في الأحلام عيب لو أنها تصاحَبَ برأي رَشِيد وفهم سديد.

لقد أخطأ في حق مرام، إنه لا ينكر ذلك. لكنها أَجْرَمَتْ بحقه إذ هَجَرَتْه وأعرضت عن اعتذاراته. غير أنه عاد فظلمها وظلم نفسه بفِعْلَتِهِ تلك. أكان يحسب اللذة التي حُرِمَهَا بالحلال تُعَوِّضُ بالحرام؟ قد خاب إذن وخسر. ما جر على نفسه إلا مزيدا من الويلات، ولذة تعقُّبُهَا حَسَرَات. يا ليت عينيه فُقِّتَا قبل أن يستعمل ما أنعم الله به عليه فيما حَرَّمَهُ عليه. إنه ما يشك لحظة أن مراما لو عرفت بفِعْلَتِهِ تلك لما تَوَانَتْ في طلب الطلاق. ويل لك يا حازم! أنخاف زوجتك، ولا تخاف الله المطلع عليك بالفعل؟ قد كان لك في

اللاجوء إلى الله بصيص أملٍ وحبل لا ينقطع، فما زِدَّتْ بفَعَلتِكَ على أن
قطعت الحبل، الذي به تحيا!

قَصُرَ عن أسباب المال، وتقطعت بينه و بين زوجته حبال الوصال، والآن
كَتَمَ بيديه آخر ما تبقى له من أنفاس الأمل. لم تكن البداية إلا نظرة، نظرة
واحدة فحسب ليشفي غيظه من مرام، ويرضي فضولا خبيثا تسلسل إليه
فجأة في ساعة فراغ، فانتهى بإدمان لا يملك منه فرارا.

كان كالمريض يجبر نفسه على تَجَرُّعِ دواء مُرٍّ، ولم يكن مثله، لأن المريض
إنما يصبر على المرارة لما يرجوه من العافية، أما هو فالعافية قد فارقت
جسده وروحه مع أول نظرة إلى تلك الصور. كان الندم بداخله يمنعه
استشعار أي لذة في تلك المشاهد المُقَرَّزة التي يَخْتَلِسُ لحظات بعيدا عن
الْخَلْقِ ليشاهدها، عالما أن الخالق تعالى مُطَّلِعٌ عليه، ولا يحرك هذا مع
ذلك أُنْفَةً فيه أن يراه خالقه على غير ما خلقه له.

حاول كثيرا أن يقلع عن تلك المواقع والصور، ولكن شيئا ما كان يعيده
إليها بأي وسيلة.

أكان الفراغ الروحي؟

أكان اليأس والعجز أمام ما حَلَّ بساحته من الخُطُوب؟

أكان ضَعْفَ إيمانه الذي جُرِحَ عند أول حافة حادة بدل أن يصمُد لو كان أقوى؟

بل لعلها كل تلك مجتمعة، مضافا إليها شريكة عُمر أدارت له ظهرها، وتركته وحيدا وسط تلك المَعْمَعَة.

توقف حازم بُرْهَة وأسند رأسه إلى الجدار في أسي متألم. ثم عضَّ على شفتيه وطفَرت من عينه دمعة تلتها أخواتها مسرعات، كأنما يخشَيْن أن يَكْبَحَهُنَّ هذه المرة كذلك، إلا أنه تركهنَّ يجريْنَ على جوانب خَدَّه دونما اعتراض.

كم وَد لو يصرخ من أعماقه صرخة تتزلزل لها الأرض تحت قدميه، أو يضرب الجدار بقبضتيه ضربة يَخِرُّ لها هَدًّا، غير أن صرخته احتبست في حلقة، وقبضتيه تراختا إلى جانبيه، ودموعه سالت مِدْرَارًا في صمت كسير.

وكذلكم الكآبة إذا عَظُمَتْ، صارت خرساء!

عاد حازم يجرّ قدميه جرا حتى وقف أمام باب الشقة، فألقى مطروفا ملقى أمام الباب، انحنى والتقطه، ثم رَفَر في ضيق. إنه إنذار بتأخر موعد دفع القِسط الجديد. حَشَر المظروف في جيبه بعنف، ثم دفع المفتاح في الباب بقوة حتى كاد يكسره، ودخل المنزل.

بدا الجو راكدا كما جرت العادة مُؤَخَّرًا، فقد صارت مرام تَتَخَيَّرُ أوقاتِ عودته فتنام بمفردها، وتغلق عليها باب الغرفة. وكان هو قد نقل حاجياته إلى غرفة المعيشة منذ تخاصما. دخل حازم وأغلق الباب بهدوء غاضب لئلا يوقظَهَا، فیتَعَكَّرُ رُغُودُ الجو بالنظرات الباردة التي يتبادلانها. هَمَّ بأن يتجه إلى غرفته - مجازا - لتبديل ملابسه، لكن استوقفه نور خافت صادر من ناحية الصلاة، وحَفِيف ثوب على الأرض، فتعجب ومشى بهدوء إلى الصلاة. تَسَمَّرَ حازم في مكانه، وتحول عَجَبُهُ لإعجاب لما رأى.

كانت المائدة مُعَدَّةً لشخصين، وحوافُّها مزينة بالورود البيضاء، وعليها شمعتان مضاءتان، أضفى نورهما الخافتِ جوا شاعريا دافئا، ضرب على أوتار قلبه، فذابت في لحظات أكوام الجليد التي تراكمت عليه. وتبخرت كل الأفكار السوداء من رأسه، لَمَّا رأى تلك الحُورية تقف أمامه كوردة بديعة، أوراقها آخِذَةٌ في التَفَتُّح. كانت مرام ترتدي ثوبا حريريا أحمر، مزينا بلاكئ تُصَفِّي عليه وعليها جاذبية وسحرا، وقد صَفَفَت شعرها بطريقة، جعلتها أشبه بأميرة خرجت من ثَنَيا إحدى الأساطير. تَمَّتَ حازم مأخوذا : "مرام!؟"

لم تملك مرام حينها أن ابتسمت في سرور، لَمَّا رآته وقد أخذت المفاجأة منه كل مآخِذ، وخفضت رأسها في حياء العروس يوم جَلُوتها، وقلبها يرقص طربا من نظراته المَشْدُوْهَة. اقترب منها حازم خطوة في هدوء شديد، كأنما

يخشى أن يكدر أي صوت صفو ذلك الهدوء الأخَّاذ، فتُجفِل منه تلك الحورية وتطير عنه بعيدا.

رفعت مرام إليه عينيها حين اقترب منها، ونظرت إليه نظرة حانية رقيقة، أخذت بمجامع لُبِّه، حتى خُيِّل إليه أن عينيها استحالتا بحرا يغوص هو في أعماقه.

- (في همس رقيق) أنا آسفة يا حازم لما سبَّبتُ لك من آلام.

- (كأنما أيقظه صوتها الحاني من سبات عميق) آسفة؟!

- (تدمع عيناها) لقد قَسَوْتُ عليك كثيرا، وبدل أن أعينكَ صرْتُ عبئا عليك. أرجوك سامحني.

- (يقترب منها، ثم يضع كفه على خدها برفق) بل أنا من ينبغي أن يعتذر إذ صفعْتُ مثل هذا الخد الحبيب، وددت لو أن يدي قُطِعَتْ قبل أن تمتد إليك بسوء يا مرام.

- (تأخذ بكفه بين راحتيها، وتنظر إليه بحنان) لا تقل هذا يا حازم، سَلِّمْكَ الله من كل سوء و مكروه، قد كان خطئي إذ استَفَزْتُكَ.

- بل اللوم كله علي أنا إذ لم أدرك رقة الإنسانية التي استأمنني الله عليها. أنا من يرجو السماح منك يا مرام.

- (بابتسامة عذبة) لندع الماضي بأخطائه وراء ظهورنا، ودعنا لا نفكر في أي شيء الليلة سوى هذه اللحظة، هذه اللحظة فقط.

- (يبتسم في انشراح) ليسَ أحبَّ إلي من ذلك يا فاتنتي!

الفصل الجاڊي عشر

سائل الله لا يخيب

اختلستُ مرام النظر إلى حازم وهما يتناولان العشاء الشاعريّ، كان يبدو مُنْشَرحاً تماماً. لقد كان لتلك الأُمسيّة الصغيرة مُفعولُ السحر عليه. ابتسمت مرام في قرارة نفسها، ودعت الله أن يعينها لتنتقل للجزء الثاني من الخطّة.

- (في حذر) حبيبي حازم؟

- (يرفع رأسه مبتسماً) نعم يا حوريتي؟

- هناك شيء كنت أود محادثتك فيه.

- كلي آذان صاغية لك يا حبيبتي.

- (تَرَسُّمٌ على وجهها أَمَارَاتُ الندم ليزداد تعاطف حازم معها) لقد أخطأت خطأً عظيماً حين اتهمتك في رجولتك يا حازم.

- (في رفق) أَلَمْ نتفق أن ندع الماضي وراء ظهورنا؟

- أرجوك دعني أكمل يا حازم، لقد أخطأت فعلا في حقك وحق نفسي،
لأنك..

- (ينظر إليها بتعاطف)...

- لأنك في نظري رجل رائع يا حازم! (يبدو عليه شيء من الاضطراب) وأنا
أثق بك، وأثق أننا سنتخطى الأزمة طالما أننا معا.

- (يطرق ساهما كأنما أشعره كلامها بالذنب)...

- أما زلت واجدا علي يا حازم؟

- (يرفع إليها عيني دامتني في تأثر) بل أنت هي الرائعة يا مرام، كيف
أجد عليك وأنت مني وأنا منك!

- (تبتسم مسرورة) إذن فقد سامحتني؟

- إذا سامحتني فقد سامحتك.

- (تُطرق قليلا وتحوّل نظرها عنه) ولكن.. أنا.. (تنظر في عينيه مباشرة) أود
لو أصارحك يا حازم، لكن أخشى أن تغضب علي إن خانني التعبير.

- (مبتسما) لك علي عهد ألا أغضب.

- وأن تتفهم؟

- و أن أتفهم.
- (يبدو عليها التردد) الحقيقة أنك - أعني أنني شريكك في تحمل المسؤولية، ولا يطيب خاطري برؤيتك تدفع ثمن خطئي وحدك!
- أدفع ثمن خطئك؟
- ذلك العرس الأسطوري الفارغ، الذي أَوْرَثْنَا الشقاء، وسبَّبَ الشَّقَاقَ بيننا.
- (يُطْرِق ولا يرد)
- إنما أقول ذلك لأنني أغار عليك يا حازم!
- (متعجبا) تغارين علي؟ ممن؟
- (تبدي شيئا من الغضب المُصطنع) من تلك الديون! صرت أشعر أنها صَرَّتِي!
- (يحدق فيها مندهشا ثم يضحك) أما إن غَيْرَتَكُنَّ - مَعَشَرَ النساء - لعجيبة!
- (تجاريه في صَاحِكِهِ وقد اطمأنت لاقترابها من الهدف) يسهل عليك قول هذا، فأنت المنشغل طوال الوقت بالعمل لدفعها، وحتى حين تكون خاليا تفكر فيها، كأنك تزوجتها علي!

- (يضحك)..

- (تتظاهر بالجد) كف عن الضحك يا حازم، إنني جادة!

- (يمسك عن الضحك بصعوبة، ثم يبتسم لها) هل ترين إذن أن أطلقها؟

- طلاقا بائنا لا رجعة فيه!

- (يطرق قليلا) لقد بدأتُ فعلا في هذا يا مرام، بالأمس انتهيت من دفع

القسط الثالث.

- (ترسم على وجهها أمارات الأسى) وبقي الكثير بعد يا حازم، متى إذن

نفرغ لبعضنا؟ متى نبدأ الحياة معا على الحقيقة؟

- (ينظر إليها مليًا) أتريد أن أقترض من والدي ثمن السداد يا مرام؟

- (في حذر) ولم لا يا حبيبي؟

- وأظهر أمامه بمظهر العاجز المحتاج؟

- (في حماسة) والله لا أحد سواك ينظر إليها من هذا المنظور! وما العيب

في أن يحتاج الأبناء لوالديهم وهم بعض منهم؟ ثم من قال إن

الاستعانة بالوالدين عجز أو انتقاص للرجولة؟ لا ريب أن من قالها إما

ولد عاق أو والد عقيم!

- (ينظر إليها متعجبا) وكيف ذلك؟
- دعني أسألك سؤالاً : لماذا تَجِدُ وتَكْدَح في العمل؟
- لنسدد الدين.
- ثم؟
- نعيش عيشة كريمة.
- من نحن؟
- أنا وأنتِ، ثم الأولاد بإذن الله.
- فكيف بك لو جئتُ أرفض إنفاقك عليّ وقلت إن والديّ سينفقان علي ولا أحتاجك؟!
- لكنني مُلْزَم شرعا بالإنفاق عليكِ.
- ولو لم تكن مُلْزَما، أكان يرضيك هذا الوضع؟
- لا طبعاً، أنا زوجك والمسؤول عنك وعن طلباتك! وإلا ففيم وجودي إذن؟!
- وكيف بك إذن لو كبر أولادنا، بعدما أنفقنا نحن من عُمرنا في العمل والادخار لتوفير معيشة كريمة ومستقبل أرغد لهم، فإذا بهم يرفضون

كل ما جمعناه لأجلهم، بدعوى أنهم سيستقِلُّون بأنفسهم، وأنهم لا يحتاجونا بعد ذلك؟

- (يطرق ساكتا وقد أدرك المغزى)..

- صدقني يا عزيزي، لا يمكن أن ينظر والداك إليك على أنك عاجز أو "نصف رجل"، بل تصور فرحتهما وهما يقفان إلى جانب فِلْذة كِبِدِهِما الذي شَقِيَّا لِيُسْعِدَاه. وتخيل كيف سينزاح عنا هم ثقيل جَائِئٍ على أنفاسنا يَحْسِبُهَا علينا، لننتفرغ لحياتنا ومسؤولياتنا الأخرى. أما ترى كيف تأكل هذه الصَّرَّة الشَّرِهَّة من سُويَعَات عُمْرنا؟ (في نبرة استعطاف)

ألا تعيد التفكير في الأمر يا حازم بالله عليك؟

- الحقيقة..

- (تنظر إليه بترقب ورجاء)..

- الحقيقة أنني كنت أفكر في هذا الأمر، فكلامك زادني اقتناعا.

- (غير مصدقة) أحقا ما تقول؟

- (يومي برأسه) لقد أشعلت في الرغبة في إصلاح هذا الوضع المائل. غدا بإذن الله سنزور والديّ لنعتذر منهما، ثم نزور والديك بعد ذلك.

- (في فرحة غامرة) كم أنت رائع يا حازم! كم أحبك!

- (يضحك) وأنا كذلك!

- (تنهض واقفة في حماسة، وتأخذ بيده) ما زالت لك عندي مفاجأة!
- غير كل هذا؟
- (تخرج منديلا فتربطه حول عينيه) ضع هذه أولا!
- (يبتسم) اللهم الطّف بنا!
- (تأخذ بيده وتقوده) اتبعني ولن ترى إلا ما يسرك. (يصلان إلى صالون جانبي صغير، وتوقفه أمام أحد الأدراج) حسنا، قف هنا! (تفتح الدرج ثم ترفح المنديل عن عينيه) ما رأيك؟
- (ينظر فإذا في الدُرَج مصحفان كبيران) هذان مُصْحَفَان!
- (على استحياء) أريد أن أتعلم منك تجويد القرآن، وبإذن الله سأستيقظ معك منذ اليوم لصلاة الفجر، ونقوم الليل معا. أريد أن أتعلم منك يا حازم.
- (ينظر إليها مبهوتا، ثم يُطْرِقُ وَيُتَمِّمُ) تتعلمين مني أنا؟
- (تأخذ بيده) نعم يا حازم، لنعبد الله ونرضيه معا هنا، لنظل معا هناك.
- (يتأملها برهة، ثم ينزع يده من يدها، ويُولِيها ظهره مُطَرِّقا في حُزن) نرضي الله معا يا مرام؟ (تدمع عيناه في تأثر) أنا آخر من يصلح أن يكون زوجا لمن كانت في مثل نقاوتك يا مرام. إنك.. إنك لا تدركين ما فعلته..
- (تنظر إليه في إشفاق) حازم..
- أنا.. أنا.. لقد..

- (تقترب منه وتقف أمامه، ثم تأخذ بيده وتنظر إليه مباشرة) لا تثريب عليك يا حازم، قد سامحتك، وصار كل ذلك من صفحات الماضي.

- (يحول نظره عنها) أنت لا تفهمين ما أعني يا مرام.

- (تَشُدُّ على يديه في حنان وتنظر إليه في ثبات) مهما يكن ما جرى في هذه الفترة، فكلانا ساهم فيه بنصيب، بل لعلّي أتحمّل تبعة أكبر بما ضاعفت من همّك بدل أن أكون لك عوناً (ترسم على وجهها أمارات الاستعطاف) لذلك أرجوك أن نطوي تلك الصفحات تماماً، ونشرع من الآن في بداية جديدة صافية.

- (يطرق هنيهة مفكراً ثم يغمغم متردداً) بداية جديدة.. صافية؟

- (تومئ برأسها وتبادر لتقطع عليه استرسال الخواطر) وخير بداية أن نصلي الآن ركعتين معاً، ويستغفر كل منا لنفسه وصاحبه على كل ما فرط منّا (تولّيه ظهرها لتغادر مسرعة كمن يفر من معركة وشيكة) سأذهب لأرتدي لباس الصلاة.

وقف حازم جامداً في مكانه برهة، والخواطر تموج في نفسه كموج البحر في ليلة عاصفة.

ما أرحمك ربي! ما أحلمك!

بعد كل ما فَرَطَ مِنِّي سترت علي، وحفظت لي ماء وجهي أمام زوجتي! ألا
سبحانك ربي ما أعظمك!

ثم تهاوى على مقعد قريب، وأسند رأسه إلى راحتيه وهو يَنْشِجُ، ولسانه
يلهج بالحمد والاستغفار، وغم لنفسه : "والله الذي فرج كربني هذا،
وجعل لي مخرجاً من حيث لم أحسب، لا أجعله - تعالى - بعد ذلك أبداً
أهون الناظرين إليّ، ولا أكون ممن إذا خَلَوْا بمحارم الله انتهكوها. ثَبْتُ إليك
يا رب!" (يزداد نحيبه) ..

عادت مرام حاملة سجادات الصلاة ولباسها، فلما رأت حازماً على تلك
الحال، أخذتها به رافة، فجلست قبالة على ركبتيها، ومدّت كفها لترتّب
على خده، وأودعت عينيها أصدق ما اعتمل في نفسها من تقدير وإعزاز
لتلك الدموع الفتية، دموع من ذُكِر فتذكّر، وزُجِر فارتدّع، وسُتر فحسنت
توبته.

رفع حازم إليها عينين، أرسلت نظراتهما قُشَعْريرة في جسدها. لقد كانت
نظراتٍ تحار في وصفها الكلمات البليغة، والمفردات المنتقاة. إنها نظرات
العبد الذليل، الذي يتشامخ ويتكبر، ويعصي ويتجبر! ولكن ما إن تجل

بساحته النائبات حتى يتكشف عن معدنه ويعود لأصله، ضعيفا عاجزا محتاجا، إلى بارئه وخالقه ومولاه، الحليم الودود، الرؤوف الرحيم.

سبحانه ! منَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا.

سبحانه! خيرهِ إلينا نازل، وشرَّنا إليه صاعد، ومع كل ذلك يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

سبحان من إذا وعد أوفى، وإذا توعدَّ أوجب، وإذا استعفي عفا.

مدت مرام يدها تربّت على يدي حازم، وقالت بصوت هامس كأنما تخشى أن تعكر صفو تلك الدموع الخاشعات التي تحدّرت من عيونهما معا : "هيا يا حازم.."، فأوماً لها ونهض ليتوضأ.

رجح حازم والماء يَقْطُرُ منه، ووجد مرام قد أعدت المكان ولبست ثوب الصلاة، فبدت أجمل وأعلى في عينيه. ولما رآته مرام مقبلا، أفسحت له مبتسمة، وأشارت إليه أن يتخذ مكانه إماما، وقائدا للدَّقة من جديد. وإن هي إلا سُوبَعَات صمِتٍ خاشع حتى دَوَّى صوتُ التكبير في هدوء مُجَلْجِل.

ولو أَصَغْنَا السَّمْعَ لربما سمعنا صوت تكبيرات أخرى، تناثرت هنا وهناك في ثنايا الليل وحنايا الكون، لا نعلم شيئاً عنها ولا عن أصحابها، ولكن الله يعلم، وهو حسبهم وكافهم.

"وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" [يونس : ٦١].

الفصل الثاني عشر

أنت قذري !

- اشتقت إليك كثيرا يا سلمى. كم أضعاني غيابك!
- لهذه الدرجة يا أمي؟ لم يمضِ على زواجي سوى أربعة أشهر فحسب!
- والله إن المنزل موحش من دونك يا ابنتي!
- أليس أبي معك يُؤنّس وُحْدَتَكَ؟
- (تنظر إلى زوجها بِطَرْفٍ عينيها وهو يقرأ جريدة الصباح) بل يؤنّس وحدة الجرائد!
- (تضحك) إنك تظلمينه يا أمي! لا ريب عندي أنه لا يدخر جهدا في التسرية عنك.
- (تسكت قليلا، ثم تقول في صوت خفيض على استحياء) في الواقع، لقد ذهبنا أمس لنتعشى في مطعم!
- (ضاحكة) ألم أقل لك؟ ياللساعريّة!

- (في نبرة مسرورة) شعرت وكأننا عدنا لتلك الأيام الخوالي، حين كنت عروسا في ربيع شبابي.
- ولا زلت جميلة كما كنت في شبابك يا أمس!
- (تضحك مسرورة) قد قال لي أبوك نفسك الكلام! (تستدرك هامسة) لولا أن أفسدت علينا تلك اللئيمة جلستنا!
- من تلك؟
- فتاة شقراء فارعة الطول، رشيقة القدّ، تلبس ثيابا قصيرة تكشف عن ساقها، مرت من أمامنا، ثم جلست عند طاولة قريبة (تعض على شفثيها غيظا) واللّه لقد جال بخاطري أن أقوم فأكسر طبقها على أمّ رأسها المتعالي ذاك!
- (تضحك) أتغارين يا أمي؟
- أنا؟! أنا أغار؟! معاذ الله! ومم أغار؟ قد كنت في شبابي أجمل وأكثر رشاقة! بل وأكثر احتشاما واحتراما. إنما ضايقتني نظراتها المائعة تلك، وجلستها المتكسّرة! لكنني لا أغار!
- نعم، نعم، صحيح!

- (بنبرة احتجاج) نعم صحيح! إن أباك منذ عرفني لم تملأ عينيه امرأة أخرى! (تلتفت لزوجها ثم تهمس لسلمي) ألا ترين أن وزني قد ازداد قليلا؟ وبعض التجاعيد بدأت في الظهر!
- (تضحك) بل أنت كالبدر في صفحة السماء، وستظلين كذلك في عيون من يحبونك، وثقي أن أبي لا يرى سواك!
- (في اطمئنان) الحمد لله، كنت واثقة ولكنني الآن ازدددت يقينا. والآن خبريني أنت عن قاسم، كيف هو معك؟
- أكرم به من زوج يا أماه.
- ألم أقل لك إنه.. (يقاطعها رنين جرس الباب) لا ريب أنها جارتنا أم حسان، سأعود الاتصال بك لاحقا يا سلمى.
- خذي وقتك يا أمي، وقبلي لي والدي.
- سأفعل إذا تذكرت!
- أمي!
- (تضحك) حسنا يا عروس! أتركك في حفظ الله تعالى يا بنيّتي.
- في حفظ الله تعالى يا أمي.

وضعت سلمى سماعة الهاتف، وشردت للحظات. "أكرم به من زوج!"، رنت تلك العبارة في أذنيها ثانية، أحقا كانت تقصدها؟ إنها لم تعدّها سلفا بل جاءتھا عفّوا، فلا ريب أنّها كانت نابعة من قلبها. وهي مُدّ صَحبت قاسم زوجا لم تر منه إلا خيرا، وأي خيرا! كانت تحسب أنّها عرفته بما لا يدع معه مجالا لجديد في التعرّف عليه، لكنه أسرها بكريم معاشرته ومتّعها بلطف عشرته، واكتشفت كم إنه على حظ عظيم من رهافة الحس وشاعرية الخواطر.

كان يعاملها كأمية، وأي أميرة! لم يكن يدخر جهدا في مفاجأتها بأنواع الهدايا وباقات الورود، ولا كان يستنكف أن يردد على أسماعها ما رَقَّ وراق من عبارات المحبة. وهو دائما حاضر بجديد اقتبسه من شعر أو نثر مما يعرف أنه يروقها، فتقع كلماته على الأسماع وقع قطرات الندى على أجفان الورود.

وزادها به إعجابا أن وجدته حقا يعطي عطاء من لا ينتظر مقابلا، ولا يريد جزاء ولا شُكورا. كان يحب لأنه لا يملك إلا إجابة داعي الحب في قلبه، ويعطي لأن نفسه لا تطيب إلا بذلك. وما زال عهدها به ينفق أيام الإجازات من كل أسبوع في شراء الهدايا لأمه وأخواته وأبنائهن، حتى صارت سلمى

تحفظ تواريخ ميلادهم جميعا، والهدايا المفضلة لكل منهم. شَدَّ ما كان قاسم متعلقا بأسرته بارا بها حتى بعد الزواج، وهو على فَرَط هذا الحب والتفاني لا يكاد يقصّر معها أو يشعرها بالإهمال، ويجتهد أن يعدل في توزيع أوقات فراغه بين أهلها وأهله، بعد الفراغ من شؤونهما.

لم يكن قاسم يوما "حبها الأول"، ولا كان فارس أحلامها أو اختيار قلبها. ومع ذلك لا تملك أن تكرهه أو تبغضه أو تنفر منه. لقد أسرها بكريم سجاياه، ولطالما استعبد الإحسان إنسانا. ولكن، أتعبه؟ أتعبه كما أحببت أحمد؟ أمازلت تحبين أحمد يا سلمى؟ أم أنك تحبين قاسما؟ أهى كفة ميزان تتأرجح بين اثنين؟ أم هو وَهْم نسجَ خيوطه حولكِ وأنت لا تشعرين؟ من تحبين يا سلمى؟

من يملك عليكِ قلبك يا سلمى؟ من؟!

وكذلك لم يكن فكر سلمى يخلو بين الفَيِّنة والفَيِّنة من هذه الخواطر المكدّرة، كحجر يلقي في بركة راكدة فيذكر الناظر بأن الوحل في قاعه. وكثيرا ما كان يؤلمها فرط حب قاسم لها وإكرامه إياها، لأنها كانت تشعر أنها مهما أحبته وبادلتة مودته، فهي إنما ترد فضل معروفه وإحسانه. لكن قلب الأنثى فيها كان لا يزال معلقا بأمنية لم تفلح يد الأيام في طيّها في

مدارج النسيان. ولم تكن تملك أحيانا أن تقارن لاشعوريا بين زوجها وفارس أحلامها. ولو لم تعرف ذاك الفارس قبل قاسم لربما هان الخُطْب. لكنها عرفتة، وأحبته، وأحبها. حتى إذا تعاهد القلبان وحلّقا معا على أجنحة الأحلام أو كادا، إذا بها زوجة من كانت تَعُدّه أخاها أكثر منه فارسا لأحلامها!

ولكنها مقارنة خاسرة يا سلمى! بل إن أسبابها أوهى من بيت العنكبوت! وإنما الاستسلام للوهم هو الذي يَمُدُّ وَهَنَه بأسباب القوة، حتى يُخَيَّل للسابح في الخيال أنه الواحة إذا اشتد الظمأ، والمَهْبط البادي إذا انقطع السبيل، بينما لا يزداد من ارتشافه إلا ظمأ، ولا يزداد من مقاربتة إلا بعدا.

وكذلك مقارنة زوجي بمن كان فارس أحلامي لا تعني تفوّق أحدهما على الآخر، فهما ليسا نِدَّيْن ليكون أحدهما محل تفوق على الآخر. ثم إن واحدا فحسب كُتِبَ له أن يكون قَدْرِي وأكون قَدْرَه من الحب. ذلك الحب ذو الميثاق الغليظ، المتوج بالرحمات المُهداة.

هَبْ أن زوجي لم يكن خَيار قلبي ولا فارس أحلامي، لكنه زوجي وحليلي. وهب أن خِصاله حببتني فيه من بعد وإن لم أكن استشعرت تجاهه لهيب عاطفة من قبل، أفليست في النهاية عاطفة مآلها إلى تآلف ومودّة وحسن عشرة؟ وإن يكن الحب في قلبي الآن غير ذاك الذي بدأ أول مرة، فإنني

أجتهد في تقوى الله فيما أملك، وأستعين بالله على ما لا أملك. وهل القلوب إلا بين يدي بارئها يقلّبها كيف يشاء؟ وهو سبحانه المسؤول أن يعينني على تصريفه كيف يرضى.

فَحَتَّامَ تَظْلِينَ مُوزَّعة الخواطر وقد نُقِضَ العهد القديم يا سلمى؟ وحل محله ميثاق غليظ، جمع اثنين وافرّق آخَرَيْن؟ وما الحب شقاء وما ينبغي له. وإنما كلّ يشقى أو يسعد، ويرضى أو يسخط، لمن اختار السعادة والرضا، أو اتّبع سبل الشقاوة والسخط، وما خاب من بالله استعصم.

جلس قاسم وسلمى يتناولان العشاء، وقاسم لا ينفك بين الحين والآخر يرمقها بمؤخر عينيه، كمن يخفي مفاجأة!

- مالك يا قاسم؟

- (متصنعا الاندهاش) أنا؟

- (تبتسم) لا تتظاهر بالبراءة! إنك لا تكف عن تلك الابتسامة الماكرة، كأنك تخفي شيئاً!

- لا حول ولا قوة إلا بالله! أتصفيني بالماكر وأنا لا أحمل إلا الأخبار السعيدة!

- هل ولدت أختك هالة أخيرا؟
- لا، ليس بعد، يتوقع ذلك في غضون الأسبوع القادم إن شاء الله.
- إذن ماذا؟
- خمنني!
- (تفكر مليا) لا أدري!
- صديقتك حامل!
- (تكرر مندهشة) صديقتي حامل؟ أتعني صفاء؟
- (يوميئ برأسه مبتسما)
- (في شبه صدمة) وكيف.. كيف عرفت؟
- قابلتها وزوجها اليوم في المجمع التجاري وأنا أشتري هدية لهالة، وهي تعتذر لك عن انقطاع اتصالاتها، بسبب انشغالها بمرض والدتها.
- (تغمغم مندهشة) صفاء حامل ووالدتها مريضة! لعله مر شهران أو يزيد منذ آخر محادثة بيننا، كم أنا مقصرة.
- ستشكريني حينما أخبرك أنني.. (كمن تذكر شيئا فجأة) آه، كدت أنسى! (ينهض ليتناول كيسا تركه عند المدخل، وسلمى تتبعه

ببصرها، فيُخرج منه كتابا، ثم يعود ويناولها إياه مبتسما) لاحظت اسم هذا الكاتب في مكتبتك، فافتنيت لك كتابا له غير الذي عندك.

- (تقرأ عنوان الكتاب) "الأدب الصغير والأدب الكبير" لابن المُقَفَّع (يشرق وجهها بابتسامة) فعلا هذا الكتاب ليس عندي!

- كتابه الذي عندك هو "كليّة ودِمنة"، صحيح؟

- (تنظر له بإعجاب) صحيح، لم أتوقَّع أنك تتابع المصنفات في مكتبتني!

- (يبتسم) لا تبالغي في إعجابك، ليس حظي منها سوى ملاحظة العناوين، فكيف بمن قرأتها كلها؟

- (تضع يدها على يده وتبتسم في محبة) هذا لأن اختصاصي ووقتي بالأساس مخصصان لذلك. أما أنت فعلى كثرة أشغالك ومهامك الأخرى مازلت تجد وقتا لتلك اللغات القاسميّة!

- (يبتسم ويهز كتفيه في تخاذل)

- (مستغربة) ما مغزى هذا الحركة بالضبط يا قاسم؟

- (يَهْمُ بالنهوض) لا، لا شيء يا سلمى..

- (تشد على يديه ليظل جالسا) بل هناك شيء!

- (يطرق ساكتا هنيهة) لا أدري يا سلمى.. لكنني.. (يتوقف مترددا)
- (في ترقب) لكنك ماذا يا قاسم؟
- (يزفر في ضيق وهو يحول وجهه عنها) لا أدري، لكن لا أنفك أشعر أنك.. ربما.. ظلمت بزواجك مني لما بيننا من فروق!
- (تكرر مستنكرة) لما بيننا من فروق؟! أننى لك مثل هذا الظن يا قاسم؟!
- لأنك متعلّمة مثقفة، أما أنا .. (يطرق ساكتا)
- لماذا لا تكمل؟ أليست - ما شاء الله - مدير الفرع الذي تعمل به وأنت أصغر سنا من معظم مرؤوسيك؟
- لكنني لم أحصل على شهادة جامعية كبقيتهم!
- (تعديل جلستها لتواجهه مباشرة) عفا الله عنك! أتحسبني أراك جاهلا لمجرد أنك لا تحمل الشهادات المذيلة بالأختام؟!
- ولا أنا حتى مثلك قارئ واسع الاطلاع! ألم تكوني ترددين ونحن صغار أنك تتمنين لفارسك أن يكون "عالما مثقفا واسع الأفق"؟
- (تبتسم في مودة) كانت كلمات قرأتها فأعجبني رنينها حينذاك يا قاسم! (بنبرة جادة) لكن سعة الأفق والثقافة لا تقاس أبدا بعدد ما لدى الفرد من شهادات يا قاسم ولا بعدد ما طالع من كتب، خاصة في هذا

الزمن الذي صارت الآفاق فيه مُفَتَّحَةً الأبواب ومتعددة الوجّهات، وكلُّ مُيسّرٍ لما خُلِقَ له.

- إذن، أنت لا تشعرين أنني أقل منك؟
- (تنظر إليه باستنكار وتضرب كفا بكف) ما ينقضي عَجَبِي اليوم منك ومن أفكارك يا قاسم! خبرني أنت : ماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث : "إذا جاءكم..".
- "مَنْ تَرَضَّوْنَ دِينَهُ وَخُلِقَ فَرْجُوهُ".
- أفلم تكن مسألة العلم والثقافة من الأهمية بمكان، بحيث لم يُشِرْ الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أهميتها في الحياة الزوجية؟ رَغِمَ ما في ديننا الحنيف من آيات وأحاديث تحض على طلب العلم الديني والدنيوي؟
- (مبتسما) أهذا اختبار ثقافي أم ماذا؟
- (تضرب كفّه برفق) لا تجب عن السؤال بسؤال!
- (يطرق مفكرا، ثم يرفع رأسه وقد افترَّ ثغره عن ابتسامة مشرقة) بلى! قد أشار إليها – عليه الصلاة والسلام – في قوله "تَرَضَّوْنَ دِينَهُ" : فَمَنْ فَهِمَ الدين حق الفَهْم ففيه الحب والمودة واحترام الآخر، وطلب العلم

وسعة المدارك، والحرص على معالي الأمور والترفع عن سفاسفها. والخلق يشمل كبار الشمايل من الصدق والجود حتى أصغر الطبائع من المحافظة على النظام والترتيب، وكذا تزيين الزوجة لزوجها ورفق الزوج بزوجته، والحرص على حقوق الآخرين دون إحفاف بحق النفس، والتغاضي إن لزم عن شيء من حقوق الذات أحيانا. والكثير الكثير تضمنته تلك العبارة البليغة!

- أرايت؟ فقد أجبت عن سؤالك بنفسك!
- إذن لي إليك اختبار بدوري : لماذا كرر الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام، "الخلق" رغم أنه متضمن بل جوهر في الدين؟
- (تزم شفتيها مفكرة) أعتقد أن ذلك للتنبيه على جوهريته في إرساء دعائم البيت المسلم، فالخلق الحسن - في رأيي - هو ما يُديم الحياة الهائلة، ويعينها على الصمود في وجه المنغصات.
- (يحك ذقنه بيده) أتفق معك، وإن كنت أفكر في ذلك من منظور مختلف.
- وما منظورك؟
- كنت أستشعر أن في التأكيد على كلمة "الخلق" في حياة الزوجين وصية لطيفة لهما، بأن يكون كل منهما على استعداد ليغير بعضا مما

دَرَجَ عليه من عادات وأخلاق، إن لم تكن كما ينبغي أو كان فيها ما يؤذي شريكه. فلا يَقُلْ أحدهما أو كلاهما "هذه طباعي ولا أستطيع تغييرها"، لأن الحياة الزوجية الحقّة – في نظري – تكييف وتعديل، ليحصل أكبر قدر من التوافق والاستقرار الأسري، بما يحقق المقاصد التي تكلمت عنها في تصوّرِكَ عن مؤسسة الزواج.

- (تنظر إليه بإكبار) ما شاء الله! ما شاء الله!
- (يبتسم) خففي من انبهارك وإلا أصابني الغرور!
- (تعقد يديها تحت ذقنها وتتأمله بإعجاب)
- حسنا، لقد أشعرتني بالذنب فلا بد أن أعترف!
- تعترف بماذا؟
- إنني لم أولف هذه المعاني من رأسي، ولكنني نشأت عليها في كنف والدَيّ. وفتحت عيناى على أفعالهما قبل أن أقرأ قواعدهما أقوالا.
- أرايت إذن يا قاسم أن معدن المرء إنما يتجلّى حقيقة في مدى تصديق أفعاله لما حاز من علم أو تفاخر به من بيان؟
- (يُطرق هنيهة ثم يرفع رأسه وينظر في عينيها مباشرة) إذن، هل أنت حقا سعيدة بزواجك مني؟

- (لهنيهة تربكها نظراته المباشرة كأنما تستنطق حقيقة دواخلها، فتمرر يدها لتعدلّ خصللات شعرها إخفاء لارتباكها، ثم تنهض وتأخذ بيده لينهض، وتهمس وقد أسندت رأسها إلى صدره) أَشْهَدُ اللَّهَ أَنِّي أَحْبَبْتُكَ يَا قَاسِمُ، وَأَنِّي مَحْمُولَةٌ عَلَى أَجْنَحَةِ السَّعَادَةِ وَأَكْفَى الْيَمَنِ وَالْبَرَكَةِ مِنْذُ جَمَعَنِي اللَّهُ بِكَ.
- (يحتضنها في انشراح) اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَالْمُنَى وَالْفَضْلُ، وَأَنَا أَشْهَدُ اللَّهَ أَنِّي أَحْبَبْتُكَ فِيهِ حُبًا قَدْ مَلَكَ عَلَيَّ الْمَجَامِعَ مِنَ الْفَوَادِ.

سبحانك ربي! أي فرق ذاك بين حب هو كله شهوة وقلق وتوجس وشقاء، وبين الذي ينزل على القلب بَرْدًا وَسَلَامًا، وعلى النفس أَمَنَةً وسكينة. ذاك الذي ينحدر فيه المرء من سمو الإنسانية إلى دَرَكَ البدائية الأولى، فلا يرى إلا نزوة طائشة ونَهْمَةً مستعرة، وذاك الذي يرفع المحب مكانا عَليًّا، ويبلغ به في ركاب الربّانية أمدًا قصيا.

وبين خليل وخليلة، وحبيل وحبيلة، بُعد المشرقين. الأخلاء يهوون في دركات الهيام وقد سُكِّرَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَغْشِيَتْ مَدَارِكُهُمْ، فلا يستطيعون فكًا ولا يهتدون سبيلا. وينسبون ذلك السُّعَارَ وتلك النزوة لدواعي الحب

وليساً منه في شيء، كخرس يُزْرَع قَسْرًا في غير أرضه! فإِما أَنْ تَأْبَاه الأَرْض
وتَلْفِظْهُ، أَوْ يَنْشَبَ فِيهَا فَيَفْسِدُهَا!

أَمَّا ذاك الذي تستقبله أرضه بِإِكْرَام رَبَّانِي، وترعاه بِمِيثَاق سَمَآوِيٍّ، وتحوطه
بِمُودَةٍ رَحْمَانِيَّةٍ، فَيَا حَسَنَ مَعْنَاهُ وَيَا عَذْبَ مِنْهَلِهِ. ذاك هو الذي يزهر أَزَاهِيرُهُ،
ما رَأَى مِثْلَهَا سِوَى الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ عَلَى نُورِ اللَّهِ. أَوْلَئِكَ الْمُحِبُّونَ، عَيْنُ
الْمُحِبِّينَ.

- (تَبْتَسمُ وهي ترفع نظرها إِلَيْهِ) وَالْآنَ يَا أَسْتَاذَ، هل أَزَالَتِ هَذِهِ الْخُطْبَةَ
الْعَصْمَاءَ مَا فِي نَفْسِكَ مِنْ هَوَاجِسٍ؟
- (يَقْبَلُهَا عَلَى وَجْنَتِهَا) كَمَا يَزِيلُ مَسْحُوقَ الْغَسِيلِ الْبَقْعَ مِنَ الثِّيَابِ!
- إِذْنُ إِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ لَذَلِكَ، وَإِلَّا لَنْ أَغْسِلُهَا لَكَ مُجَدِّدًا!
- (يَضْحَكُ) هَكَذَا إِذْنُ! (يَضْرِبُ جَبْهَتَهُ بِكَفِّهِ كَمَنْ نَسِيَ شَيْئًا)! نَسِيتُ أَنْ
أُخْبِرَكَ عَنِ الْمَفَاجِئَةِ!
- أَيِ مَفَاجِئَةٍ بَقِيَتْ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ؟
- (يَفْرِقُ أَصَابِعَهُ فِي الْهَوَاءِ فَخُورًا بِصَنِيعِهِ) لَقَدْ دَعَوْتَهُمُ لِلْغَدَاءِ عِنْدَنَا
غَدًا، قَبِيلُ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ!

- من؟!
- صديقتك وزوجها!
- صفاء.. وأحمد؟

الفصل الثالث عشر

وهاجت الذكرى

خرج قاسم لصلاة العشاء، وترك سلمى من ورائه وقد عصف بقلبها إعصار
جامح من الهواجس، وتوارى بريق عينيها خلف سحابات من الهمّ المتدفّق
على تقاطيع جبهتها. عصرت كفيها الرقيقتين ببعضهما وهي تضغط على
شفتيها في غيظ متألم.

ويلي منك يا أحمد!

لماذا؟

لماذا لا تمنحي من وجودي؟ لماذا تطاردني في كل وقت وحين؟ لماذا كلما
دفنتُ ذكراك ظهر من يَنْبِشُها؟ لماذا كلما طويْتُ اسمك في حنايا ذاكرتي
عاد ليتصدّر واجهتها من جديد؟ قد كنت أتوخي مكالمة صفاء في غير
أوقات عمله لأتجنب محادثته، وأجنبَ كلَّينا ألم سماع صوت الآخر، ودقات
قلبه! فإذا به يأتي بنفسه حتى عتبة منزلي، أو يكاد! أقابله وجها لوجه؟!
وبعد كل هذا الانقطاع المقصود؟ وأمام زوجته وزوجي؟ إن ذلك لَخَطْبُ

جليل! وبلاء عظيم! قد يحسن هو التجلّد أما أنا فتماسكي قد يخونني،
وقلّقي لربما كشف عن خبيثة نفسي!

وأنت يا قاسم! لماذا تضيف لهماومي شعورا بالذنب ما لي طاقة بمدافعته؟
لماذا تمنحني حبا خالصا لا أشعر أنني قادرة على مكافئتك بمثله أو
مبادلته بحقه؟ حبك الجارف هذا يشعرني أحيانا أنني.. خائنة!

أحقا حُنته يا سلمى؟! ألسنتي قد ربطت على جرحك النازف بيديك، وكتمت
أمره ما استطعت، وعاهدت فبررت بعهدك قدر وسعك؟ فما تملكينه قد
توحيّت أن تتقي الله فيه، وما لا تملكينه فأنت منه في حلّ. ماذا بقي بعد
ذلك يا سلمى؟ وفيما كل هذه الحيرة الملتاعة؟ أهى خشية اللقاء؟ أم ألم
الفراق؟ أم حسرة الوهم؟ ليتني أدري! كانت الحيرة تدق جوانب رأسها كما
تدق المطارق آنية الفخار، فتتابع زفرتها وتقاطرت دموعها، ولسان حالها
ينطق بأبيات ابن الفارض :

ولولا زفيري أغرقتني أذمعي ** ولولا دموعي أحرقتني زفيري!

لك الله يا سلمى!

كانت ذكرى من أحبّت يوما تلاحقها دوما، وهي تحاول جاهدة صرفها
ونسيانها. وما القلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء،

والله تعالى هو الذي يحول بين المرء وقلبه أو يهديه له، فلا يُقدَّر على أمر القلوب إلا بالاستعانة بمقلِّبها.

وليس الميل القلبي في حد ذاته حراماً وإنما الشأن كل الشأن في تصريف ذلك الميل حيث يُكْرَم ويَحْسُن، ومدافعتة حيث لا ينبغي ولا يُزْهَر. فذاك الذي يسمو بصاحبه إلى السموات العلا، أو يهوي به إلى الدركات السفلى. ومن يتحرَّر الخير يُؤْتَه بكرم الله، ومن يتوقَّ الشر يُوقَه بحفظ بالله. وإن طال التحرِّي حتى حين، فصاحبه في مصابرة وجهاد.

صبرا يا سلمى! صبرا! إن المودة و الرحمة من الرحمن لكفيلتان بإرساء سفينتك على بر الأمان، وإن الله لا يضيع قلبا يجاهد فيه. فأبشري يا سلمى! إن الله معك وغير خاذلك، ويعلم أنك ما طَوَّيتِ قلبك ولا نَشَرْتَهُ إِلَّا على ما يحب ويرضى.

هيا يا سلمى! انفضي عنك هذه الخواطر البائسة. قد مضى الذي كان، وكان الذي مضى، وأنتِ الآن فيما هو آتٍ، فاجتهدي أن تحسني فيما بقي، ولا تلفتي لما مضى، ولا تجزعي لما هو بعد في ضمير الغيب. فَلأَتَجَلَّدَ لمقابلته كما يَتَجَلَّدُ المُبْتَلَى للخطوب، ولأَجْتَهِدُ أن أصرف حديثي كله لصفاء، وأتَحَاشَى أي تواصل معه ما وَسَّعَنِي!

وأخيرا حَلَّ اليوم الموعود!

الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ظهرا!

فَرَكْتُ سلمى كَفَّيْهَا في توتر، وهي تذرع صالة الاستقبال جِيئةً وذهابا، بعد خروج قاسم لشراء بعض الحاجات. همست سلمى لنفسها في غيظ :
"ليتني وافقت على الخروج معه بدل معاناة البلاء مَرَّتَيْنِ!" . انتزعها من خواطرها فجأة رنين جرس الهاتف. أسرعَت سلمى لترد، ثم تَسَمَّرَت أمام الهاتف، ونظرت إليه بَرِيَّةً! ماذا لو كان هو المتصل؟ هَمَّتْ أن تنصرف ولا ترد، ولكن ماذا لو كانت صفاء؟ وماذا لو كانوا سيغيرون الميعاد؟

حسمت أمرها أخيرا واتجهت للهاتف بحركة عصبية، ورفعت السماعة بيد مرتجفة، ولَفَرَط توتُّرها لم تقدر أن تبدأ المتصل بالسلام، فبدأ هو : "السلام عليكم! منزل الأستاذ قاسم عبد الملك؟"

قد وقع ما تخشاه! سمعت الصوت الذي لطالما كان وقع كالنغم العذب على أذنيها، فإذا العَذْب عذاب، وإذا بين القلبين حجاب!

إلهي!

ثبتني!

- (يتناهى لسمعه وقح أنفاس ثقيلة فيدرك أنها هي، وإذ ذاك يسكت لحظة، ثم يردف في نبرة يجاهد أن يجعلها طبيعية) عفوا للإزعاج..
- (تَهم أن ترد ولكن لسانها جفّ في حلقها فلا يستجيب)...
- (متلعثما لإدراكه ما هي فيه من حَرَج) أردت فقط.. إنني.. مضطر للاعتذار عن عدم إجابة دعوتكم الكريمة، لأن صفاء أصبحت مريضة اليوم..
- (وكأنما حرّر اسمُ صديقة عمرها لسانها المُحتَبَس) صفاء؟! هل هي بخير؟
- (بُهِت أحمد أول الأمر، ولم يكن قد سمع صوتها منذ زواجه فغمغم بغير تفكير) سلمى؟!
- (سكتت سلمى في وُجُوم وقد تَوَرَّد خداهما، وتحدّرت حبات العرق الباردة على جبينها الملتهب)
- (يستدرك في ارتباك) إنها.. إنها بخير، لكنها متاعب الحمل الأول مع فقر دم شديد. ستكون بخير إن شاء الله وستتصل بكِ - بكم.. حالما تتحسن حالتها.. إن شاء الله..

- (تسكت هنيهة بحثا عن الكلمة المناسبة، ثم تغمغم) بـ.. بلغها سلامي.. لو سمحت.
- أفعَل إن شاء الله..

إن كانت إلا هُنيهة! هنيهة واحدة! هي من عُمر الدهر لا تعني شيئا، ولكنها في عُمر المحبين تعني كل شيء!

إن كانت إلا هنيهة! همَّ القلب فيها بالنجوى، ورقَّ القلب فيها للذكرى.

وإن كانت إلا هنيهة! لولا مخافة الله، واتباع حياء، وإكرام زوج، لكادت أن تهَم به!

وإن كانت إلا هنيهة! لولا أن المتناجيين فيها لا يخلَوَان إلا كان الرقيب ثالثهما، ولولا ميثاق غليظ أحلَّ له أخرى غيرها وحرَّمها هي عليه، لكاد أن يَهَم بها!

- (يسارع لقطع الصمت) شكرا للدعوة وعذرا للإزعاج. في أمان الله.
- (بسرعة مماثلة) مع السلامة! (تضع السماعة فورا)

لم تكد سلمى تضع السماعة حتى أغرقت وجهها في أقرب وسادة لها، وانفجرت تبكي! وتبكي! وتبكي! شعرت بكل ذرّات التوتر تغادرها مع دموعها، التي انهالت مدارا على جانبي خديها كعَيْنَيْن نَضَاحَتَيْن. شَدَّ ما أراحها اعتذاره عن عدم الحضور، وشَدَّ ما أشقاها سماع صوته بعد أن قاربت على نسيانه. وسَرَّها وأقلقها في آنٍ معا أن حبها لم يزل له على قلبه سلطان، وإن تَنَحَّى إلى أجل غير مُسمّى.

وما مضى ربع الساعة، حتى كانت قد استردت شيئا من رباطة جأشها. فأخذت تذكر الله وتسبح، وابتهلت لله في ضراعة أن يعينها على حفظ قدسية الميثاق وطهارة الحب كما عَرَسه في السويداء من قلبها، ويحميها من الوحول التي تدنسه باسمه، وليست منه في شيء. ثم قامت لتتزين.. لزوجها!

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف بقليل، حين دخل قاسم المنزل وهو يُسمّي الله، وقد حمل في يديه علبة شوكولا كبيرة على شكل قلب، وبقاقة ورد أبيض مَشُوب بِحُمْرة.

ابتسم لنفسه وهو يتخيل وقع الهدية على سلمى، بعد أن أوهمها أنه سيشتري حاجيات للضيوف القادمين! ابتسم وهو يغمغم لنفسه "أنت

عبقري يا قاسم!" . مشى على أطراف أصابعه بهدوء نحو الصالة الكبيرة، وهمّ أن يفاجئها لولا أن ما رآه سمّره في مكانه!

وقف قاسم مشدوها يحدق في ذلك الملاك المائل أمامه. كانت سلمى واقفة ترتدي ثوبا أبيض من المُخَمَل الناعم، مزين الحواف بالدانتيل المطرّزة في عناية، وقد أسدلت شعرها الطويل الناعم بعد أن صففته بعناية، فبدأ من ورائها كوسادة حريرية استندت إليها رأسها. وزادها نورا و بهاء ابتسامتها الصافية، الصادقة، الوفية.

- غمغم قاسم مأخوذاً : "سلمى!"

- (تضحك في دلال، وتطرق على استحياء)

- (يقترّب منها) تبارك الرحمن! تبارك الله أحسن الخالقين! (يتطلع للهدايا في يده، ثم يتطلع لسلمى، فيرمي الباقة والعلبة على مقعد قريب) لقد أطفأ نورك بريق تلك الهدايا المغلفة!

- (تحتضنه في سعادة) إنما النور منك أنت يا زوجي الحبيب!

- (بعد لحظات صمت جميل) ولكن كيف ستقابلين الضيوف هكذا؟

- (ترفع إليه عينيها الواسعتين وتبتسم مسرورة) لقد اعتذروا.

- لن يحضروا إذن؟

- (تومئ برأسها)

- خسارة! (ينظر إليها متعجبا) أراك منشحة لهذا!

- (تضحك وهي تدير له ظهرها مبتعدة) إنما أنا منشحة لوجود الضيف الذي انتظرت به فارغ الصبر!

- (ينظر حوله دون أن يَفْطِنَ لمرماها) ومن هو؟

- (تلتفت له بخفة) إنه ضيف عزيز! كنت أعرفه منذ زمن!

- (مستنكرا) تعرفينه منذ زمن؟

- وأحببته يوما ما!

- سلمى!

- واكتشفت أنني ما زلت أحبه فدعوته للحضور!

- (تكاد الغيرة تقتله) والله لأَهْشَمَنَّ رأسه لو وَطِئَتْ قدماه بيتي!

- (تضحك من قلبها) إنه هنا بالفعل!

- (مستنكرا) هنا؟ أين؟ أين هو؟! (يلتفت حوله)

- (تضحك مطولا ثم تشير إليه) انظر خلفك تجده!

- (يلتفت فيقع بصره على انعكاس صورته في المرآة المعلقة خلفه،
فيفطن لحيلتها، ويتنفس الصُّعداء) سامحك الله يا سلمى! كدت
تقتلينني غيرة!

- (تغمز له في دلال) وأنت الذي كنت فخورا بعقريتك منذ دقائق!

- هكذا إذن! سأريك من العبقري فينا!

وكذا غلفت حنايا المنزل ضحكات صافية. وخلا الزوجان لبعضهما وعين
الرقيب تظلللهما، ورحماته أسبغت عليهما سكينة وأمناً، ومودة ورحمة، لا
ينعم بهم إلا قلبان مثلهما، جمع بينهما حلال طيب، ورباط رحمانى،
وميثاق غليظ.

الفصل الرابع عشر

حلم الأمس

وقف قاسم يتأمل المائدة المعدة بكل عناية، وبدأ عليه شيء من الأسف وهو يقول لسلمي :

- كم من أصناف أعددت يا سلامي!

- والآن ماذا نفعل بكل هذا؟ هذا طعام يومين على الأقل بالنسبة لنا!

- (يحك ذقنه بيديه مفكرا)...

- ما رأيك لو نرسل بعضا منه لجارنا المُسن؟

- (يهز رأسه نفيا) لقد مررت عليه عند خروجي لأرى إن كان يحتاج أغراضا من السوق، لكنه سافر بالفعل لزيارة بعض أحفاده في بلدتهم.

- (تزم شفتيها مفكرة) وإذن ما العمل الآن؟

- خطرت لي فكرة!

- فكرة عبقرية أخرى؟!
- (يبتسم لدعابتها) عبقرية وخيرية!
- وما هي؟
- نغلف الفائض ونذهب به إلى إحدى دُور الأيتام.
- (تأمل الطعام كأنما تزن الأمر في رأسها) فكرة جيدة، لكن هل تعرف دارا معينة؟
- سأُتصل بالدليل، أو نبحث على الإنترنت عن الدُّور في مِنطقتنا.
- (في حماسة) ممتاز! تكّرم أنت بتولّي البحث، وأنا سأغلف الفائض في الحال. (تتوجه من فورها إلى المطبخ لإحضار أوراق التغليف)
- (يلحقها مندهشا) اصبري لحظة، ألن نتناول نحن الغداء أولا؟
- (تلتفت إليه) ألا تستطيع الانتظار حتى ننهي هذا؟
- بلى، ولكن فيم العجلة؟
- (تبتسم) ذكرت مقولة قرأتها لابن المقفع في آخر كتاب أهديته لي!
- (يكرر الاسم كأنما يتذكر) ابن المقفع؟ تقصدين كتاب "الأدب الصغير والكبير"؟

- (تتسع ابتسامتها) بلى، هو ذاك.

- (في إعجاب) ما شاء الله، شرعت في قراءته بالفعل؟ وما المقولة؟

- "إِذَا هَمَمْتَ بِخَيْرٍ فَبَادِرْ هَوَاكَ، لَا يَغْلِبُكَ. وَإِذَا هَمَمْتَ بِشَرٍّ فَسَوِّ هَوَاكَ لَعَلَّكَ تَظْفَرُ".

- (يردد المقولة في إعجاب، ثم يُردف) صدق والله! ما أحكم ذلك المقفح! لقد اقتنعت. هيا فلنبادر إذن.

وما مضت نصف ساعة، حتى كان قاسم وسلمى راكبين في سيارة عامرة بأطياب الطعام، في طريقهما لدار أيتام قريبة، ذلَّهما عليها دليل الهاتف. ولم تدرِ سلمى بأيهم تسعد : بإلغاء الزيارة الثقيلة على قلبها، أم بزواجها المسارع في الخيرات، أم بالثواب الجزيل الذي ستشاركه فيه. وحضرها قول الله تعالى، كأنما هو رد على خواطرها جميعا : "قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ" [يونس : ٥٨].

- أأنت واثقة أنك تريدين المغادرة يا أماه؟

- (تومئ برأسها وهي ترتب حقيبتها) تمام الثقة يا بني، لقد تحسنت حال صفاء كثيرا بحمد الله، ثم إنني أثقلت عليك بوجودي وترددتي بين غرفتي وغرفة صفاء، حتى صرت تنام في الصالة!

- على العكس يا أماه، لقد كان وجودك عوناً لكلينا فجزاك الله عنا خيراً.
أرجو حقاً أن تمكثي معنا مدة أطول.

- ينبغي علي أن أفي بوعدِي لجارتنا. لقد وعدتها أن أساعدها في تطريز
ثوب زفاف ابنتها حالما تتحسن صفاء، وها هي قد تعافت بحمد الله.

- إن أحببت أن تظلي معنا وأرسل إلى جارتكم من يعينها، فأنا حاضر.

- (تنظر إليه ممتنة) إنك دوماً حاضر يا ولدي فجزاك الله عنا خيراً. ولكن لا
يساعد الجارة مثل جارتها، ثم إنني أحتسب مساعدتي لها من شكر
النعمة.

- شكر النعمة؟

- (مبتسمة وهي ترتب ثيابها) أن الله أنعم علينا بزواج كريم برّ مثلك يا
ولدي، وأن الله منّ علي صفاء بالشفاء.

ابتسم أحمد لوالدة صفاء التي انشغلت بجمع حاجياتها استعداداً
للمغادرة، ثم ذهب ينتظرها في الصالة، وألقى بجسده على إحدى الأرائك
في تهالك. لقد كان شهراً عصيباً مرضت فيه صفاء مرضاً شديداً، حتى
اضطرت أمها للإقامة معهم للعناية بشؤونها، خاصة وأن أحمد قد طلب
إجازات كثيرة من عمله قبلاً للعناية بها، ولم يعد بإمكانه طلب المزيد.

لله دُرُّها أم صفاء! لا تفتأ تسارع في عمل الخير حيثما وجدت لذلك سبيلا. وكثيرا ما قصّت عليه صفاء كيف تفتّحت عينها على الدنيا لترى والدتها - رغم فقرهم - لا ترد سائلا أو محتاجا. لقد جربت والدتها ذل المسألة والحاجة، فعاهدت الله ألا يُمكنّها من إجابة محتاج إلا أجابته بما استطاعت، قلّ أو كثر.

أغمض أحمد عينيه في إرهاق، والخواطر تموج في صدره، ورجعت به ذاكرته إلى بضعة شهور خَلَتْ.

"أحمد! أحمد! أحمد! ستصير أبا، ستصير أبا!" .

بهذه العبارة استقبلته صفاء غداة أحد أيام عودته من عمله، وهي تتقافز حوله وتصفق بيديها في جَدَل، كعادتها كلما استخَفَّها خبر سعيد. وكعادتها كذلك، راحت صفاء تتكلم عن خططها وتصوراتها، دون أن تنتبه لأحمد الذي تجمد في مكانه كتمثال من العاج! في تلك الليلة، لم يجد النوم إلى عينيه سبيلا.

فحتى تلك اللحظة التي زُفَّ فيها إليه النبأ الذي ينتظره كل زوج وكل زوجة، كان أحمد يشعر أنه يعيش حلما. كان حلما جميلا في كثير من تفاصيله،

ولكنه كان فيه كالنائم يسير في نومه، يستشعر لَذَّةَ الحُلْمِ وهو في حقيقة الأمر لا يَعِي شيئاً منه.

نعم، كان يشعر أنه يعيش حلماً سيفيق منه يوماً ما، على الوجه الذي تمنى كثيراً أن يستيقظ ليراه ماثلاً أمامه. لقد شَرَحَ زواج سلمى من قاسم ذلك الحلم، لكنه لم يَكْسِرْهُ. أما تلك العبارة، فَهَشَّمَتْهُ تهشيماً، وَنَثَرَتْ شَطَاياه في جوانب قلبه، فإذا به ينزِف من كل جانب، ويهوي في أعماقه مُضَرَّجاً بدمائه!

- "ستصير أبا يا أحمد!"

- "ستصير أبا يا أحمد!"

فتح أحمد عينيه بَعَثَةً عندما انتزعه من خوابه مسمع حَفِيف ثوب على الأرض، وظهرت والدته صفاء وقد ارتدت عباؤها وحملت حقيبتها. تناول أحمد مفاتيح سيارته ونهض قائلاً :

- هيا بنا يا أمي.

- إلى أين يا بني؟

- (مندهِشاً) لأَوْصِلُكَ إلى منزلِكَ بالطبع.

- ألا تبقى مع صفاء يا بني؟

- هي نائمة على كل حال، ولن نتأخر بإذن الله.

- لا يا بني، ابقَ معها فضلا وجزاك الله خيرا.

- (بيتسم) حسنا إذا كنتِ مُصِرَّةً يا أُمِّي فانتظريني، سأطلب سيارة أُجرة لتُوصِلَك إلى باب المنزل. (يتجه من فوره إلى الهاتف، ويطلب سيارة أُجرة، ووالدة صفاء تنظر له في إكِّبار شاكر)

- (يضع السماعة) ستصل السيارة في عُضُونِ دقائق، وسأنزل معك لأحمل عنك الحقيبة.

رنّ جرس الهاتف في منزل أحمد، ففتحت صفاء عينيها في تناقل، ثم رفعت سماعة الهاتف بجانبها، وقالت في صوت ناعس :

- السلام عليكم..

- صفاء؟

- (يبعث صوت صديقتها فيها شيئا من النشاط) سلمى؟! أهلاً ومرحباً! اشتقت إليك يا سلمى، اشتقت إليك كثيراً.

- وأنا أكثر يا صفائي العزيزة. كيف حالك؟ هل تحسنت صحتك؟ التعب بادٍ في صوتك.

- أصبحت أفضل بحمد الله. سامحيني يا سلمى على عدم إجابة دعوتكم بالأمس.

- لا تعتذري يا صفاء، بل أنا من تعتذر لتقصيرها معكِ.

- أبعدَ باقة الورود الكبيرة التي أرسلتها إليّ تقولين إنك مقصرة؟ إنني لازلت أشم عَبيرها في الغرفة، أشكرك من كل قلبي يا سلمى.

- هذا أقل القليل لأجلك يا صفائي العزيزة، ولأجل القادم العزيز كذلك! (تضحكان) كيف حاله الآن؟

- (تضع يدها على بطنها في حنان) أشعر به يكبرُ باستمرار!

- (مبتسمة وهي تتخيّل منظرها) هل تبين بعد أهو ذكر أم أنثى؟

- لا، ليس بعد. أنا في أواخر شهري الثالث (يدق جرس الباب فتغمغم) لقد عاد أحمد!

- إذن أتركك لشأنك، وسأعود الاتصال لاحقاً بإذن الله.

- بل أنا سأحدثك بعد قليل إن شاء الله.

- سأنتظرك إذن، في حفظ الله تعالى.

- في حفظ الله، مع السلامة.

- (يطرق الباب طرقا خفيفا، ثم يدخل وصفاً تضع السماعة) أكنتِ تتحدثين في الهاتف يا صفا؟

- كانت سلمى مطمأن علي.

- (يتجاهل الاسم ويجلس إلى جانب زوجته) وكيف تشعرين الآن يا صفا؟

- قوية كالحصان بحمد الله!

- (يتأمل وجهها الشاحب، فيمازحها) لعلك تعنين المهر الوليد!

- (تسند رأسها إلى الوسادة في إرهاق) أرجوك! لا تبدأ معي حروبك اللغوية يا أحمد، أيا كان ما تقوله فهو الصواب.

- (يضحك وهو يزيح بعضاً من خصلات شعرها عن جبينها)

- (تبتسم) الحمد لله إذ استطعت إضحائك، لقد مر أسبوع ظننت فيه من شدة عبوسك أنك لا تبتسم بعدها أبداً!

- (في عتاب رفيق) أنا عابس؟! لم أكن عابسا يا صفا، إنما كنت قلقا عليك.

- (تضع يدها على بطنها) علي أم عليه؟

- (ينظر لها مبتسما) بل عليكِ أنتِ يا صفاء!
- (في سعادة) حقا يا أحمد؟
- (تتسع ابتسامته في ثقة) بالتأكيد يا صفاء، لأنك أنتِ التي في يدي الآن، وعصفور في اليد خير من عَشْرَةٍ على الشجرة!
- (تدير له ظهرها وتضع المِخَدَّةَ فوق رأسها) يالْمِزاحك الثقيل!
- (ينهض ضاحكا) لقد اشتريت عصيرا طازجا اليوم، ستشعرين بالنشاط حين تشربينه. دقائق وأعود.
- (ترفع المخدة من على رأسها) أحمد؟
- (يدير لها وجهه) نعم يا صفاء؟
- أحقا تحبني يا أحمد؟
- (يلتفت إليها بجسده كله) أتشكين في ذلك؟
- لا، ولكن..(تسكت في تردد)
- (يعود فيجلس إلى جانبها في اهتمام) ما الذي يدور بخلدك بالضبط يا صغيرتي؟
- (على استحياء) ليس شيئا ذا بال، ولكنك.. نادرا ما تقولها لي مباشرة!

- (يحدّق فيها مندهشا لوهلة، ثم يبتسم وينحني ليهمس في أذنها)

- (تضحك مسرورة، وتقبله في سعادة) وأنا كذلك!

(يحتضنها لدقائق، ثم ينهض ويخرج من الغرفة متوجها إلى المطبخ)

أخرج أحمد علبة العصير من الثلاجة ووقف يصب بعضا منه في كوب،
والخواطر تَصُبُّ في رأسه صَبًّا.

- "أتحبني يا أحمد؟"

رَنَّت عبارة صفاء في أذنيه مرات عديدة، ومع كل رنة كان شعور الذنب
يتضاعف في داخله. لقد كان يحسب أنّ من كانت في بساطة صفاء ليس
لها أن تسأل مثل ذلك السؤال "العميق"، ولم يخطر له على بالٍ قط أنها قد
تفكر حتى في ذلك!

أحقا صفاء "بسيطة" كما يراها؟

لقد انتبه لتوه، أنه هو لم يفكر في صفاء بصورة أعمق من زوجة فُرِضت
عليه، فَوَجَب عليه إسعادها ومعاشرتها بالمعروف. لكنه لم يكن يفكر فيها
كشريكة حقيقية، تقاسمه روحها ويقاسمها روحه، ليلتحم كيانهما في
لُحمة واحدة، تتقلب في أعْطَاف المودة وأكناف الرحمة.

وعاد بذاكرته إلى الأيام التي سبقت مرض صفاء، وكيف ذهباً لانتقاء حاجيات الأطفال وإعداد غرفة للوليد المُرْتَقَب. لقد كانت تلك الغرفة الصغيرة هي أول شيء أعداه معاً، وحدهما. فشقتهما كانت من تنسيق والدته وأخته، وشقة والدته صفاء كانت بإشراف صفاء وأمها. أما هو وهي فقد بنيا معاً قصر صغيرهما وحدهما. بنياه بتناغم بدا له عجباً في ظل ظروف زواجهما واختلافهما، بل إنه ليشعر أن كليهما كان وقتها كيانا واحداً يصنع القرار.

فكلما رأت صفاء شيئاً أعجبها، كانت على الفور تلتفت إليه بنظرة حذرة، فإن وجدت في عينيه استحساناً فهو الظَّفَرُ وأيم الله! وإن وجدت عنده شيئاً من التردد يماثل ما عندها، تَسَاقَطَ الإعجاب من عينيهما كورقة خريف. وكذلك ما بَرَحَتْ تَتَّبَعُ نَظَرَاتِهِ هو أينما ذهباً، وتقيس جودة الأشياء بعينه، فكان لها قائد الدَفَّة بلا مُنازَع، والحَسَن حسن لأن أحمد يستحسنه، والقبيح قبيح لأن أحمد يَسْتَقْبِحه!

ابتسم أحمد لنفسه وهو يتفكر في مدى ثقة صفاء به. بل إنها تذهب لأبعد من ذلك، لتسليم زَمَامِهَا لَهُ بالكُلِّيَّة يقودها كيف يشاء، وهي مطمئنة إلى أنه لا يقودها إلا لخير. وإنه إذ يتفهم الآن تلك الروح الكبيرة، يدرك كم كان مخطئاً إذ عَدَّهَا تَبَعِيَّة تَنْبُح من بساطتها. بل إنه لم ينتبه

قَبْلاً إلى مدى اعتزازه بثقتها تلك، وشيء من الزهو يتسلل إليه، أن يكون القائد الموثوق به كل الثقة.

فلم تكن به حاجة لتذكيرها بدوره إذا كانت هي تقيمه له، ولا كان عليه أن "يفرض" رأيه طالما لم تستأثر بالساحة دونه، بل كان يرى المُروءة في أن يتنازل لها بدوره، حتى ينتهي بهما المطاف واقفين معا فيها، في ساحة صنع القرار. ولعل رفقه الدائم بها لم يكن نابعا فقط من شخصه، بل من رقتها هي معه. فما تزداد هي رقة بين يديه حتى يلين هو أكثر لئلا يكسرها.

وكذلك كان بناء ذلك القصر الجميل، وما جَمَلَه في عينيه إلا تفكره في تلك اللمسات، التي كثيرا ما يغفلها الخائضون في غَمَار أعباء الحياة، ثم يتعجبون إذ لا يجدون لحياتهم معنى ولا يستشعرون لها عمقا! وإنما يقاس معنى الحياة بثناء النفوس التي تحياها يقظة متفكرة، لا عابرة ساهمة. وأنه إذ يتفكر الآن في كل ذلك، يدرك لماذا همس في أذنها بحبه لها، دون أن يكون مُجامِلا في ذلك.

سبحانك ربي! أي كلمة تلك المكونة من حرفين ومع ذلك عليها مدار الحياة الدنيا والآخرة؟ ما هي تلك القوة العظمى التي نسميها "الحب"؟ أهى نظرة فابتسامة فسلام، فكلام فموعد فلقاء؟ أهى تمايل مع رياح الهُيام

وَتَقَلَّبُ فِي أَعْطَافِ الْغَرَامِ؟ أَهِيَ خَوَائِنُ الْأَعْيُنِ وَمُخْتَلَسَاتُ الْقُبُلِ تَحْتَ جُنْحِ
الظَّلَامِ - ظَلَامِ الْآثَامِ؟ أَهَذِهِ قُوَّةُ الْحُبِّ حَقًّا؟ أَمْ حَرَارَةُ الشَّهْوَةِ وَلَهْيَبُ الْهَوَى
وَطِيشُ النَّزْوَةِ؟

إِنَّ قُوَّةَ الْحُبِّ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، إِنَّمَا هِيَ قُوَّةُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالْمُودَةِ
وَالرَّحْمَةِ. هِيَ قُوَّةُ الرِّضَى بِمَا حَلَّ مِمَّا طَابَ وَكَفَى، وَالتَّعَفُّفُ عَمَّا حَرَّمَ مَهْمَا
بَرَقَ وَأَغْرَى. وَهِيَ قُوَّةُ الْعَفْوِ فِي مُوَاجَهَةِ الْمَشَاحِنَاتِ، وَقُوَّةُ الْعَدْلِ فِي
الْغَضَبِ وَالرِّضَا عَلَى السَّوَاءِ. وَهِيَ قُوَّةُ الشُّكْرِ حِينَ الْعَطَاءِ، وَالصَّبْرِ حِينَ
الْمَنْعِ.

إِنَّ قُوَّةَ الْحُبِّ إِجْمَالًا هِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي بِهَا يَحْرَثُ الْمُؤْمِنُ مَزْرَعَةَ الدُّنْيَا،
وَيَسْتَمِرُّ بِهَا لَذَّةَ حَصَادِ الْآخِرَةِ. فَهِيَ قُوَّةُ تَسْمُو فَوْقَ حُظُوظِ النَّفْسِ،
وَتَقَلُّبَاتِ الْأُمُزْجَةِ، وَخَطَايَيفِ الْأَهْوَاءِ. هِيَ قُوَّةُ تَجْمَعُ فِي حَرْفَيْنِ، مِنْ
أَخَذَهُمَا بِحَقِّهِمَا فَازَ وَظَفَرَ ..

وَمَنْ أَخَذَهُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ ..

فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ!

كَلَّا! مَا كَذَبَ حِينَ قَالَ إِنَّهُ يُحِبُّهَا. صَحِيحٌ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيهَا مَا يُنْفِرُهُ مِنْهَا
وَيُبَغِّضُهَا إِلَيْهِ. وَلَكِنْ مَا الَّذِي يَمْنَحُ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُحِبًّا عَلَى الْحَقِيقَةِ؟

فالحب قوة أعظم من أن تُقَصَّر على شخص، والقلب أكبر من أن يستحوذ على مجامعه فرد. وقد تتنوع درجات الحب ومنازل أصحابها في القلب، لكنها لا تتسق في تناغم إلا حين تتوحد في الله وبالله. وقد وهبنا ربنا مُضْغَةً لو فَهَمْنَا كُنْهَهَا لأَحْسَنَّا تَعَهَّدَهَا، وَجَنَيْنَا مِنْهَا حَلَالًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ.

لم تكن صفاء حبه الأول، ولكن ما يمنعها أن تكون الثاني؟ وإن كان الحب الأول أو الثاني أو حتى العاشر، فكله حب من نوع ما! لكن حبا واحدا فقط سيكتب له الخروج من سويداء القلب إلى نور الحياة، مَصْحُوبًا بِبَرَكَةِ الرَّحْمَنِ وَمَشْفُوعًا بِائْتِلَافِ الْجَنَانِ، وليس ذلك إلا لمن كان خَلْقُهُ سَوِيًّا.

أفاق أحمد من خواطره على صوت الساعة تدق معلنة الخامسة مساءً، فحمل الكوب على صينية، واتجه إلى غرفة صفاء، وقد هدأ تلاطم الأمواج في أعماقه هَوْنَا ما. طرق باب الغرفة في رفق، ولما دخل ألقى صفاء قد غَطَّتْ في نوم عميق من جديد. فوضع الصينية بهدوء فوق المنضدة الصغيرة بقربها، وأسدل الستائر، ثم ألقى نظرة طويلة عليها، وأخيرا خرج من الغرفة وأغلق الباب بحذر لئلا يوقظها.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة ليلا حين أنهى أحمد تصحيح أوراق طلابه في غرفة المكتب، فتشاءب في إرهاق، وراح يُنَسِّقُ الأوراقَ وَفْقَ ترتيب

الدرجات، ويتأكد من إعداد شُروح دروس الأسبوع الجديد. وبينما هو يردّ بعض الأوراق لأرّف مكتبته، استوقفته كراسه إجابة مدفونة بين أوراق قديمة.

لم يكن في الكراسه ما يشد انتباهه سوى أنها برزت فجأة، كأنما تدعوه لتناولها وفَتَحَها، فاستجاب لدعوتها وتناولها. وعلى الغلاف قرأ اسم الطالبة :

"سلمى عادل بهاء الدين!"

تَسَمَّر أحمد عندما وقعت عيناه على الاسم، وراح يقلب صفحات الكراسه بلا وعي. غير أنه توقف عن التقلب حينما لمح أبيات شعر اقتبستها سلمى من الرواية التي كانت تحللها :

"الأمس ليس إلا حلما

والغد ليس إلا خيالا

أما اليوم إذا عِشناه كما ينبغي

فإنه يجعل من الأمس حلما سعيدا

ويجعل من الغد خيالا حافلا بالأمل"

أطبق أحمد الكراسة فور قراءته لهذه الأبيات، وقلبه يدق بعنف. وَخَيَّلَ إليه أنه سمع صوت سلمى يقرأ له الأبيات، أو أنه رأى طَيِّفَهَا في الغرفة التي عَمَّها الظلام، إلا من نور مصباحه الضئيل. لم يشعر أحمد بنفسه إلا وهو ينهض، والكراسة في يده، متوجها إلى المطبخ.

وهناك بحث عن علبة كبريت حتى وجدها، فأخذ عود ثقاب، وببدا مرتعشة أشعله، ثم أمسك باليد الأخرى أوراق سلمى، وقربها من ألسنة اللهب!

اشتعلت النار في الأوراق.. وفي سلمى! وراحت تلتهمها بنَهْم وبلا رحمة. وأحس أحمد كأنما النار تلتهم قلبه هو وتكويه، ولكن كان لا بد له من ذلك! لا بد له من أن يضع حدا لنزيف قلبه الدائم. لا بد من أن يكف نفسه عن التفكير في حلم الأمس، وتهيؤ خيال مُرْتَعِشٍ لغدٍ مهزوز المعالم. وَلَآنَ يحتمل نار الكَيِّ في العمر مرة، خير لقلبه من أن يحتمل ألم النزف في اليوم ألف مرة!

احترقت الكراسة عن آخرها، وتلاشت "سلمى" من يديه! لم تتبق إلا قصاصة ورق صغيرة، رفعها إلى فمه ليقبلها، غير أنه أمسك عن ذلك أدبا، وحدّق فيها بعينين دامعتين، ثم رماها! وابتمسم ابتسامة المودّع إلى غير رجعة.

لقد كانت سلمى حلما جميلا، وأيّ جمال! وقد عاش دقائقه وتفصيله ما عاش، إلى أن انتهت كيف انتهت. فعليه الآن أن يلتفت إلى يومه، إلى حاضره، إلى زوجته وإلى الوليد القادم، ليس بجسده وحسن خلقه فقط .. بل بكيانه أجمع ..

وبقلبه خاصة!

هو قلبه الذي ستظل فيه سلمى ذكرى جميلة، من ذكريات الماضي البعيد، محفوظة من كل تشويه، مُنْزَّهة عن أي دَنَس.

وهو هو قلبه الذي صفاء فيه هي الحاضر الذي سيعيشه كما ينبغي، ليكون ذلك الماضي حلما سعيدا قد انقضى، وذكرى جميلة قد طُوِيَتْ، ويكون الغد حافلا بالأمل.. بإذن الله.

الفصل الخامس عشر

سلحة الله غالية

- ممتاز يا قاسم!

تطلع المدير "أكرم" في حماسة إلى المخطط الذي قدمه قاسم، وراح يمر بأصابعه على شنبه الكَثِّ، قبل أن يبتسم مرة أخرى، ويرفع بصره إلى قاسم :

- إذا سارت الأمور كما في المخطط، فسيعني هذا توسعا كبيرا في مجالنا بتوفيق الله، وسيكون لك من الترقية أوفر الحظ والنصيب لا ريب.

- إذا نال موافقتك، فبؤسعي أن أبدأ التنفيذ حالا بأمر الله!

- عظيم، عظيم! هذا ما توقعته منك، أيكفيك أسبوعان حتى نرى نتائج أولية؟

- (يفكر متأملا المخطط) أسبوعان فحسب؟!!

- (مستحثاً) فقط حتى نرى نتائج أولية، وعندها نستطيع طلب مزيد من التمويل لمدّ فترة التنفيذ.
 - لا بأس إذن. في غضون أسبوعين إن شاء الله ستكون النتائج مبشرة كما المخطط بعون الله!
 - (ينهض مصافحاً قاسم) إن شاء الله، أحسنت صنعا يا صديقي، وبالتوفيق! أنا فخور بهمتك!
 - (يصافحه بحرارة) شكرا جزيلا يا أستاذ أكرم.
- خرج قاسم من مكتب مديره وهو يكاد يطير فرحاً، لقد مُنح الإذن للبدء في مشروعه، وهو واثق بفضل الله أنه سيُوَفَّق فيه. نزل هذا الخاطر برداً على قلبه، الذي غَشَّتْه سحابة من القلق في الآونة الأخيرة.
- لقد مضى على زواجه بسلمى قرابة العام ولم يُرزقا بأطفال بعد، وما كان ليشغل باله بذلك، لولا تأثير ذلك البادي على سلمى وإن لم تَبْجُ به. ويُضاف إلى ذلك أن الترقية القريبة بإذن الله ستعني زيادة في دخله، كان يرجو منذ فترة أن تتوافر له، ليستعين بها في حُلْمَيْن راوداه زمناً، وقد آن الأوان لتحقيقهما.

- (في سعادة) يا لها من فرصة يا قاسم!
- بل يا له من مرتب يا سلمى!
- (تبتسم) ما شاء الله! مُد متى صارت نظرتك مادية يا قاسم؟
- (يرفع حاجبيه ويفخّم صوته) المال عَصَب الماضي والحاضر والمستقبل يا سلمى.
- لكن المال ليس كل شيء!
- لم أقصد أنه كل شيء، لكنه شيء من الأشياء التي تقوم عليها الحياة!
- (تتأمله مليا) إلّا ترمي بالضبط بترتيل هذه الحكم القاسميّة؟ كأن وراءك سرا؟!
- (مصطنعا البراءة) أنا؟!
- (تقلد نبرته) بل أنا! هيا خبرني!
- (مداعبا) وكم تدفعين مقابل إفشاء هذا السر؟
- ولا مَلِيّما واحدا لأنك بالفعل تتحرق شوقا لتخبرني على أية حال!
- (يضرب المنضدة بكفه) هذا ليس عدلا، إنك تفسدين علي متعة رجاءك ولذّة تَمَنُّعي!

- (مبتسمة في هدوء) إذا أحبتَ يمكنني أن أتظاهر بذلك!
- (في غيظ مكظوم) لن تظلي على هدوءك ذاك حينما تعرفين السر وراء ماديتي المفاجئة! (يتنحج ويعدّل ياقة قميصه في اعتداد) أتذكرين ذلك الحي القديم الذي لعبنا فيه مرة ونحن صغار؟
- الذي وقعتَ فيه على الأرض ونحن نجري، وجرحتَ ركبتك؟
- بلى، هو ذاك.
- ما له؟
- ألا تذكرين أننا تمينا لو كان في ذلك الحي مسجد يَعْمُرُه بذكر الله، ويحيي أرضه البائرة الخربة بخطوات المصلين؟
- (في ترقّب) بلى، أذكر ذلك جيداً.
- فإنني ما زلت مستمسكا بهذه الأمنية إلى اليوم، وأنوي بإذن الله تحقيقها. ولكن أتّى لنا فعل الخير للغير، إذا كنا لا نرى إلا مواضع أقدامنا فقط يا سلمى؟ حتى وإن كنّا في سعة بفضل الله ولا نحتاج المال لأنفسنا، فوجوه الإنفاق في الخير كثيرة، وكلها من أبواب الجنة إن شاء الله.
- (تعقد كفيها تحت ذقنها وهي تستمع له مبتسمة) وبعد؟

- (يبتسم مسرورا لأنه اجتذب انتباهها، ثم يُردف مكَمّلا) ألم تكن نحب فيما نحب من السير سيرة سيدنا عثمان بن عفان؟ فتى قريش الوسيم الميسور، الذي أوقف ماله لإرضاء الله ورسوله، ولم يمنعه الترف – لا السرف – من أن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة، ولا أنقص هذا من متانة دينه وصلابته في الحق؟ أليس هو من قص علينا والذي –رحمه الله - قصته ونحن صغار، أنه "اشتري الجنة من النبي صلى الله عليه وسلم مرتين : حين حفر بئر رومة، وحين جهز جيش العسرة".

- إذن الشأن كل الشأن أن يكون المال هنا (يشير بكفه) وليس هنا (يشير لقلبه)، وإنما هذا كله فضل الله استأمننا عليه، وأباح لنا التمتع به وإمتاع غيرنا معنا، في غير إسراف ولا تقتير. بل إنني أعتقد أن من واجب كل مسلم قادر في هذا الزمن ألا يهمل موارد دخله، وأن يأخذ بأسباب سَعَتِها طالما هَيَّئَتْ له. فما أحوج الأمة للقادرين الميسورين المستعدين للإنفاق في سبيل الله. سلعة الله غالية يا سلمى!

- (تصقّق له في إكبار) يا لها من خطبة عصماء! أتفق معك تماما في كل ما ذكرت، فتح الله عليك.

- (يفرقح إصبعة في زهو) فما بالك لو سمعت ما هو آتٍ!

- (تنظر إليه مندهشة) أوهناك آتٍ بعد؟!
- خَمَنِي ما أول ما كنت أنوي فعله حال فوزي بإذن الله، قبل بناء المسجد؟
- (بلهفة) ما هو؟ شوقّتي!
- (يأخذ بيدها ليُنْهَضها ويدور بها في سعادة) سنسافر معا لأداء العمرة بإذن الله!
- (تصيح في سعادة وهي تدور معه) الله أكبر! كم أنت رائع اليوم!
- ألم أقل لك؟
- (تحتضنه) أنت أروع زوج في العالم أجمع!
- لأن لدي أروع زوجة في العالم أجمع! (في نبرة استبشار) حَضْرِي
- نفسك بإذن الله للسفر في غضون أسابيع، لأنني موقن بالفوز بعون الله تعالى!

وكذلكم مضى قاسم في تحقيق حلمين عزيزين، بعد أن حقق بفضل الله حلمه الأول الذي رافقه بكرة وعَشِيًّا ، منذ تلك السن التي تزهو فيها الأحلام ..أحلام القلوب.

رسالة بريئة !

مضى أسبوع منذ بدأ قاسم العمل على المشروع، فكان يكثر السهر في الشركة، ولا ينام من الليل إلا قليلا. وفي المنزل هو بين جالس أمام جهازه، أو مُنحِنٍ على أوراقه. ولربما استيقظت سلمى ووجدته قد نام على مكتبه، فتغلق الجهاز وتطفئ الأنوار، وتدثره بالغطاء، فيبتسم لها شاكرا وعيناها نصف مغمضتين، ثم يعود لنومه. ويظل كذلك حتى يؤذّن بالفجر، فتوقظه ليصلي في المسجد وتصلي هي في البيت، وبعدها ينامان قليلا حتى ميعاد عمله. ثم تستيقظ معه لتعد له ملحق الغداء، أو "ملفوف الغداء المُكْتَنَظَّ" كما كان يحلو له أن يسمّيه مداعبة لها. ولولا أنها كانت تذكره بطعامه وشرابه، لنسي نفسه وسط معمعة أشغاله.

- (تتناول سلمى حقيبة يدها متجهة إلى الباب) أنا ذاهبة.

- (يحوّل بصره من شاشة الجهاز إليها مندهشا) إلى أين؟

- أنسيَتَ بهذه السرعة؟ سأذهب لشراء حاجيات المنزل كما أخبرتك.
- (يغلق جهازه) سآتي معك.
- (في سعادة) حقاً؟ (تُردف في شيء من التردد) وعملك؟
- (يغمز لها) لا بأس، كل شيء يمكن تأجيله إلا سويغات أختلسها مع سلماي!
- (تطرق مبتسمة وقد احمرت وجنتاها)
- (يجذبها من يدها في مرح) هيا هيا، وإلا لن نخرج اليوم!
- *****
- وهذا آخر طلب في القائمة، وبذلك نكون قد انتهينا!
- أخيراً! الحمد لله! كم كانت عملية مرهقة!
- (تنظر إليه في إشفاق) كان من الأفضل أن تستغل هذا الوقت في الراحة يا قاسم.
- لا تشغلي بالك، قد كنت أمزح... (يُبثّر عبارته بَغْتَةً، وتتغير تعابير وجهه كأنه يتألم)
- (في هلع) قاسم! ما بك؟

- (يتظاهر بأنه على ما يرام) لا، لا شيء. (مغيرا الموضوع) بالمناسبة، ألن تذهبي لإلقاء نظرة على قسم الكتب والمجلات؟
- (تنظر إليه في تردد) ولكن..
- (متظاهرا بالمرح) هيا يا سلمى! أم تريدين أن نبيت الليلة على أحد الأرفف؟!
- (تنظر إليه في قلق، ثم تحسم أمرها) حسنا، دقائق وأعود.
- خذي وقتك! (يراقبها حتى تختفي عن ناظريه، فيستند إلى أحد الأعمدة، وهو يقبض على قميصه عند موضع القلب) لا إله إلا الله! عاودني الوحز المؤلم من جديد!
- جالت سلمى ببصرها بين الكتب والمجلات المعروضة بسرعة، وتوقفت عند إحدى المطبوعات الثقافية، فانحنت لتلقطها، وإذا بها ترتطم بسيدة كانت تمر خلفها.
- آسفة.
- (تلتفت إليها السيدة) لا عليك. (تحدقان ببعضهما) سلمى؟!
- صفاء؟! (تتعانقان وتسلمان على بعضهما) كيف حالك يا صفاء؟

- (تضع يدها على بطنها المنتفخ في شهرها الثامن، وتبتسم) نحن بخير والحمد لله!
- (تتأملها مليًا ثم تداعب بطنها المتكور) صحيح! كيف نسيتك؟ كان ينبغي أن أقول كيف حالكما!
- (تضحك) هي بنت بحمد الله.
- (يشرق وجهها في سعادة) ما شاء الله، تبارك الله. هل اخترتم لها اسما بعد؟
- (تربت على بطنها في حنان) أحمد اختار لها اسم "سُمَيَّة"، فأعجبني. (تراوح بين رجليها من ثقل الحمل)
- هل أحضر لك كرسيًا لتجلسي قليلا؟
- لا، لا داعي (تضحك) لقد بدأت أعتاد ثقل هذه البطيخة المعلقة في وَسْطِي، حتى نسيت شعور الحركة دونها!
- (تضحك معها، ثم تتأملها في تعاطف) وكيف صحتك الآن يا صفاء؟
- (تبتسم في وَهْن) بخير والحمد لله، لولا فقر الدم وأشياء أخرى يَرْتِنُ بها الأطباء، لا أذكر أسمائها غير أنني أعرفها بآلامها! انظري لِكَمِّ الأدوية في حقيبتي (تمد يدها لتريها الحقيقية فلا تجدها) الحقيقية! وَيْلِي!

حقيبتني! أين هي؟ (تتلفتان حولهما) لا بد أنني أضعتها للمرة الثالثة اليوم، لقد أصبحت مُشَتَّتة مؤخراً!

- حاولي أن تتذكري أين فتحتها آخر مرة.

- أجل، صحيح! لعلني نسيتها عند قسم الألبان، سأذهب لإحضارها!

- سأأتي معك.

- لا، انتظريني هنا، لن أتأخر (تغادر مسرعة قدر استطاعتها، وهي تمسك بطنها المتكور بيدها لتخفف خضخضته) .

- تنهدت سلمى وهي ترقب صفاء حتى اختفت عن ناظريها، ثم استدارت لتأخذ المطبوعة، وإذا بها تتراجع في دهشة حين لاقته أمامها.. أحمد!!

تلاقت عيونهما لثوانٍ ثم حَفَّض كل منهما بَصَره، وقد علاهما الارتباك، وأطرق كل منهما لسويغات لا يحضره ما ينبغي أن يقال. أخذ عقل سلمى يعمل بسرعة الصاروخ : ماذا لو عادت صفاء ورأت وقفتهما تلك؟ إنها لا تدري بما كان بينهما، بل ماذا لو جاء قاسم وهي تعلم من غَيْرته ما تعلم؟ وهكذا كانت سلمى الأسبق في جمع شَتات نفسها، وبذلت أقصى جهدها لتقول :

- لقد ذهبت صفاء من تلك الناحية، وأنا.. سألحق بزوجي، بلغها سلامي من فضلك.. أتصل لاحقا بإذن الله.
- (يغمغم في ارتباك).. أفعل إن شاء الله..
- ودون كلمة أخرى، مرّقت سلمى من جانبه، وسارع هو في طريقه، وكل منهما في اتجاه.. عكس الآخر.

سارعت سلمى الخطى وهي تلهث من فرط الانفعال، ومضت تتخطى الجموع ببصرها، حتى ألفت زوجها عند إحدى صفوف دفع الحساب مشغولا مع المحاسب، فحمّدت الله أنه لم يلحظ تأخرها، وسارعت تنضم إليه.

ألقى قاسم نظرة خاطفة على يديها فألفاهما خاويتين، فسألها : "ألم تجدي ما يعجبك؟" انتبهت سلمى إلى أنها نسيت المطبوعة في غمرة انفعالها، فتنهّدت في ارتياح إذ كان قاسما موليا إياها ظهره، وإلا لرأى التغيّر الذي اعتراها، واكتفت بأن غمّمت : "لا، لم أجد شيئا".

يا له من يوم عصيب!

استيقظت سلمى في اليوم التالي، ورأسها يكاد ينفجر من الصداع لأنها لم تنم تلك الليلة جيدا. كان نومها متقطعا ومليئا بالكوابيس، نظرت للمنبه بجوارها فإذا الساعة تشير للعاشر صباحا! نهضت من الفراش دفعة واحدة، ونظرت لناحية قاسم!

لقد ذهب!

عضت سلمى على شفتيها في غيظ! ذهب زوجها دون غدائه، ودون أن تحييه كعادتها!

أكلُ هذا لمجرد أنني رأيت أحمد لسويغات معدودة؟!

ويلي منك يا أحمد!

لماذا يضطرب كياني حين أسمع باسمك، أو أراك؟ لماذا ما زال لذكراك أثر في نفسي؟ لماذا يظل لك في قلبي مكان على بعد الشُّقة بيننا؟

أم لأنني لا أحب قاسما كفاية؟! كيف ذلك وأنا سعيدة معه ومطمئنة في صحبته ومرتضية لرفقته، فماذا غير هذا أريد؟ ماذا يكون الحب غير هذا إذن؟

استعازت سلمى بالله من وساوس الشيطان تلك وكفّت نفسها عن
الاسترسال معها، وهَمَّتْ بالنهوض لتصلي الضحى، فلامست أناملها ورقة
خُبَّتْ تحت مِخْدَتِها، فتحتها فإذا بها من قاسم :

“سلماي ”

وجدتك نائمة كالملاك في الصباح فلم أشأ إزعاجك، خاصة وأنتك تسهرين
معي كل ليلة. ارتاحي يا عبير عمري ولا ترهقي نفسك، أما عن ملفوف
الغداء، فسأستغني عنه إكراما اليوم، مع وعد بالتعويض الوافي عند رجوعي!
زوجك المحب ”

وقد دَيَّل الورقة مكان اسمه برسم وجه يبتسم في بلاهة! فلم تملك سلمى
نفسها من الضحك في البداية، ثم انقلب ضحكها بكاء من تأثرها!
ما أكرمك يا قاسم!

سبحان من أبدعك يا زوجي الحبيب!

قامت سلمى تتوضأ وتصلي الضحى، وتدعو الله أن يلهمها رشدًا، وَيَقِيَهَا
شر نفسها، وَيُعِيذَهَا من وساوس الشيطان وخواطر السوء، وَيَهْدِيَهَا لما
يحب ويرضى.

وما كادت تتم دعائها وصلاتها حتى شعرت براحة عظيمة، فقامت نشيطة، وأعدت لنفسها فنجانا من الشاي، وجلست إلى جهازها تتفقد بريدها الإلكتروني سريعا. مرت لحظات التحميل بطيئة، وهي ترشّف الشاي في هدوء، حتى إذا ظهرت الصفحة أمامها تسمرت عيناها عند أول رسالة، وحدّقت فيها بذهول!

كانت منه!

من أحمد!

أبقى من الهوى!

"لماذا يا أحمد؟"

مرارا راح أحمد يكرر ذلك السؤال على نفسه، وهو جالس أمام جهازه المطفأ، وقد أسند رأسه إلى كفيه وأغمض عينيه في ندم. لماذا تفجر البركان الخامد حين رأيته؟ لماذا هاجت كل الذكريات والشُّجُون؟ ولماذا نُكَّأت في لحظة ضعف كل الجراح التي جاهدتُ طويلا لتضميدها؟ لماذا أرسلتُ لها ذلك "الطُّعم"؟ أي خير قد تحمله شباك ألقيتها في مستنقع راكد؟

ويحك يا أحمد!

ألم تكن قد عاهدتَ الله على محو كل ما مضى؟ ألم يكن قلبك قد عانق الحاضر أخيرا، متحررا من أسر الماضي بعد طول سِجَال؟ فلماذا بخاطرة طائشة غير مدروسة هَدَمْتَ بنيان الحاضر، وأقمتَ أنقاض الماضي؟ لماذا يا أحمد؟ لماذا؟

وكذلك المؤمن ، تعرّض له فتن الهوى كل حين، فتنال منه بين الحين والحين، فيعاكسها داعي التقوى حيناً بعد حين، فيندم صاحبه ويتوب ويعاهد. ثم هو مع كرّ الأيام ينسى ما ذاق من مرارة الذنب وحلاوة التوبة، وتضعف في وعي وجدانه حُرمة العهد الذي أبرمه مع ربه، فينقضه من بعد قوة أنكاثا، وتزل قدمه بعد ثبوتها. ثم يعاوده حرّ الندم وحسرة التفريط، فيرجع فيتوب ويعاهد.

وما يزال المؤمن في فسحة من خير ما تعاهد قلبه بالتوبة والإنابة، وما بقي شعور الذنب حيّاً في قلبه، يمنعه التلذذ بالمعصية، ويفسد عليه نشوة الذنب، ويستصرخه من غفلة التفريط. فإنه لتحقيق عندئذ أن يطمئن آخر الأمر إلى انشراح التوبة، وطمأنينة الصبر على الطاعة، وسلامة الصبر عن المعصية. وكذلك مدح الله الأوّابين.

رنّ الهاتف على مكتب أحمد فانتزعه من خواطره انتزاعاً. حدّق فيه هنيهة ثم رفع السمع في ضيق :

- وعليكم السلام، نعم أنا هو.

...-

- (يقطّب حاجبيه) لا حول ولا قوة إلا بالله!

... -

- متى كان ذلك؟

...-

- سأتيكم على الفور بإذن الله، هلا أعطيتني عنوان المستشفى؟

...-

وضع أحمد السماعة وقد بدا عليه الوجوم. والدّة صفاء في المستشفى! ماذا يفعل الآن؟ لا بد أن يذهب إليها، ولكنه لا يستطيع إخبار صفاء، فهي سريعة التأثير لاسيما إذا تعلق الأمر بأمها، وحملها غير مستقر وهي في شهرها الأخير.

- (تباغته من خلفه) أحمد! فيم تفكر؟

- (ينهض دفعة واحدة ويلتفت غاضبا إلى صفاء وقد أفرغته مفاجأتها) كم مرة قلت لك ألا تنسلي خلفي وتباغيتيني هكذا؟

- (تراجع مندهشة من انفعاله) إنما أردت أن تكون مفاجأة!

- (يزفر في ضيق محاولا تمالك أعصابه) لا أحب هذا النوع من المفاجآت، ونبّهتك لهذا كثيرا من قبل.

- (تقوّس حاجبيها في اعتذار، إذ تراه جادا في عتابها) آسفة، حقا آسفة، لم أظن أنك ستغضب هكذا!

- (يزفر ثانية، ثم يربّت على كتفها متلطفًا) لا بأس عليك، لست غاضبا منك حقيقة، ولكن.. ولكن أموراً مهمة جدّت في العمل، ويتوجب علي الخروج الآن.

- الآن يا أحمد؟ ألن نتغدى معا؟

- آسف لكنني مضطر للمغادرة. لا تنتظريني فربما أتأخر.

- ولكن..

- (يرتدي حذاءه، ويأخذ مفاتيح سيارته) إنه أمر عاجل فعلا، سامحيني.

- إلى متى ستتأخر؟

- ربما حتى صلاة العشاء.

- هذا كثير!

- (يقبّلها خارجا) وإذا وعدتك أن أشتري لك هدية أثناء عودتي؟

- (تصفّق مسرورة) سأنتظرك حتى الغد! (يبتسم وهو خارج، فتسرع وراءه وهي تحوط بطنها بذراعيها) سأنتظر الهدية لكن إياك أن تتأخر إلى الغد!

مضى أحمد يقود سيارته وباله مشغول بأمر والدته صفاء، وبأمر آخر..

تلك الرسالة التي أرسلها لسلمى!

لماذا أرسلتها يا أحمد؟ أتريد اختبارها، فأرسلت لها رسالة "بريئة" في ظاهرها؟

فماذا إن ردت على رسالتك "الضمنية" بأختها؟

هَبْ أنها فعلتْ، وتلا ذلك سلسلة مراسلات "بريئة" بينكما، ظاهرها ذكر الله، وباطنها فيه من الخوائن ما نهى الله عنه! هَبْ أنها تجاوبت معك، أذلك يطفئ حرّ قلبك؟

أولم تطفئه منذ زمن يا أحمد؟ وأخذتْ على نفسك العهد أن تلتفت لحاضرك، لزوجتك وطفلتك؟ فلماذا يا أحمد؟ لماذا استسلمت لنزوة شيطانية عبثت بقلبك بدل أن تستعيز بالله وتنصرف عنها لشغل ما؟ أليست تعلم أن خواطر السوء متى صادفت قلبا خاليا تمكّنت منه، وإذا استجاب ولم يقاوم استحكمت فيه ثم تحكّمت به؟

ألم تكن قد سلّمت أمرك وقلبك لله؟ وقد ربط الله عليه، فسكن وهدأ إلى ما أحله الله لك، فلا تستسلم لأوهام الشيطان، ولا تترك قلبك له يتلاعب به. هي لها زوجها وحليها، وأنت لك زوجتك وحليتك، وعما قريب طفلتك. أهكذا تشكر فضل الله عليك؟ لا والله لئن مدّ الله في عمري وعدت للمنزل، لأَمْحُوَنَّ تلك الرسالة وعنوان بريدها إلى الأبد، ولا أعودنّ لمثلها أبدا!

- كيف تجدينك اليوم يا أماه؟

- (بصوت خفيض) أنا بخير وعافية بحمد الله تعالى الذي أكرمني وابنتي
برجل مثلك، وعوّضنا بعظيم منّته وفضله عن سنين الحرمان والفاقة التي
عشناها. (ترفع يديها، وعيناها تدمعان) يا رب لك الحمد إذ استجبت
دعائي، وطمأنت قلبي على ابنتي قبل أن أفارق الدنيا.

- (يحاول تغيير الموضوع) جارتكم - جزاها الله خيرا- هي التي اتصلت
بالإسعاف عندما أغمي عليك، وهي التي اتصلت بي في المنزل لتبلغني.

- جزاها الله خيرا. (يطرق أحمد ساكتا قليلا إذ يراها تلتقط أنفاسها
بصعوبة، في حين أنها تنظر إليه من طرف خفي) هل لك يا بني أن تحضر
تلك الحقيبة الصغيرة؟

- (يلتفت إلى حيث أشارت) الحقيبة السوداء؟ (تومئ بعينها، فينهض
لإحضارها)

- افتحها يا ولدي.

- (يفتحها، فيجد فيها قطع حلي معدودة، يبدو من تصميمها أنها قديمة)
ما هذه يا أماه؟

- هذه الحلي التي اشتراها لي والد صفاء يوم خطبتنا. (تدمع عيناها،
وتشخص إلى السقف ببصرها) رحمه الله، كان مثلك يا ولدي، بَرًا رحيمًا
كريمًا. صحيح أننا مررنا بضائقات كثيرة، كان يمكن تجاوزها لو بعث من

هذا الحُلِيِّ شيئاً، غير أن قلبي لم يطاوعني على بيع أي قطعة منه، فاحتفظت به حتى الآن.

- أتريدون أن أعطيَه لصفاء؟

- كلا يا بني، فإنه لن ينفع صفاء إلا أن يهيج ذكرى والدها، وذكراي من بعده. ثم إنه ليس بجمال الحلي الذي تشتريه لها.

- (يغمغم) إنما جماله فيما يحمله من معنى يا أماه.

- أعلم يا بني، ولذلك أريد أن أحفظه وديعة، لأضمن ألا يضيع أبداً.

- أتريدون أن أفتح لك حساباً في البنك و أودعه فيها؟

- (تهز رأسها مبتسمة) بل اخترت أن أحفظه عند من لا تضيع عنده الودائع. تصدق بثمنه عني وعن زوجي يا بني.

- (ينظر إليها متأثراً، ثم ينهض ويقبل يدها) بارك الله فيكِ يا أماه وتقبل منك.

- (ترتبت على كتفه بيدها المعروقة) اجلس يا نبيل الأخلاق وكريم الشمائل، ما زال لدي شيء لأحدثك به.. (تقطع حديثها لتلتقط شيئاً من أنفاسها اللاهثة)

- ألا نؤجله لوقت آخر تتحسن فيه صحتك يا أماه؟

- ما أرى الوقت الآخر يجيء يا بني، فاسمع مني الآن.

- (يقرب كرسيه من سريرها) تفضلي يا أمه.

- منذ بضعة شهور، وفي إحدى زيارات والدتك لي - جزاها الله خيرا، قدّر الله أن دار بيني وبين والدتك حديث مكاشفة على غير ترتيب أو توقّع، لربما لو دار قبلا لغير الكثير مما جرى، لكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

- (يتجهم وجهه في ترقب، ولا يرد)

- الحق أنني أنا التي ألححت عليها لتكاشفني بمكنونات صدرها كاملة، لكنها ما كانت لتفضي بالأمر من تلقاء نفسها، وقد أخذت عليّ من العهود والمواثيق يومها ألا أبين لك ما عرفت، وقد كان. (تسعل قليلا) لقد صارحتني والدتك بأن زوجها الأستاذ ناصف هو صديق زوجي، الذي راسله مرارا وتكرارا يسأله العون قبل وفاته . ولما كانت حبال الوصال قد انفصمت بيننا وبين والدك لأمد طويل، أنسيْتُ اسمه الكامل، ولم أكن أعلم شيئا عن تفاصيل أسرته وأولاده.

(تغمض عينيها فترة، كأنما ترتب الكلام المبعثر في رأسها) تبين لي جليا كم كان زوجي موفقا في ثقته بصديقه وأخيه في الله، كما كان يسمي والدك. فكان كثيرا ما يقول لي سأهاتف أخي في الله، سأراسل أخي في

الله، سنزور أخي في الله. وما رأيته من نبل سجايك لهو خير دليل على الأصل الكريم الذي نشأت فيه. غير أن والدتك كانت قد سمعت طرفا من حديثك الأخير مع والدك قبيل وفاته، وأنت تحاول مراجعة والدك في شأن زواجك بابنتي صفاء...

- (يهم بقول شيء ولكنها تشير له بالصبر)

- (تبتسم له) إنني لا أهتمك يا ولدي، بل اصبر حتى أفضي لك بمكنون قلبي. لقد شعرت والدتك برهافة الأم حينذاك أن قلبك لربما سكنته فتاة أخرى، وتأكد ذلك عندها حين كانت تراقبك في الأيام التي سبقت التجهيز لزواجكما، إذ كنت - كما قالت لي - حزينا ساهما غالب الوقت. وكانت تراك تكثر من الدعاء في السحر بالتثبيت والهداية، فتيقنت حينها أنك ستزوج فتاة غير تلك التي أسكنتها قلبك.

(تسكت قليلا لتلقط أنفاسها، ثم تمد يدها المعروقة لتمسك يد أحمد، وتنظر إليه بعينين دامعتين) إنني لم أصدق ما سمعت في البداية، ولم أدر أأسر بوفاء صديق زوجي أم أحزن لإجبارك على الزواج من صفاء؟ وإنك وإن أحسنت معاملتها فإنك.. لم تخترها. ولفترة داخلني شيء من الحزن على صفاء التي تزوجت رجلا لا يحبه.. (تستدرك) لم يخترها، غير أنني - لو لم تخبرني والدتك - لما دار ذلك بخلدي أبدا، فقد عاملتها أحسن المعاملة،

وأنزلتها خير منزلة، وأكرمتها غاية الإكرام. لقد تحملت كل ذلك في صبر جميل، ووفيت بوعد والدك وبررته بعد وفاته، في غير مَنْ ولا أذى. ويشهد الله أنه وإن كانت يدي قد قصّرت عن الامتداد إليك بعون أو رد للإحسان، فإن لساني لم يفتّر عن الدعاء لك في كل حين منذ اليوم الذي دخلت فيه حياتنا، أنا وصفاء، فأعدت إليها السرور وأطلقت ضحكات الحياة في جنباتها. إنني أوقن يا بني أنك هدية الله إلينا.. (يغلبها التأثر فتبكي)

- (يشدّ على يدها فترة بقوة وهو مطرق، ثم يرفع إليها عينين دامعتين) وكلماتك يا أماه هي هدية الله إليّ. لم أكن أحسب أن لوجودي في حياتكما كل ذلك الأثر وكل تلك المسرة، فإن كان ذلك صدقا، فله تعالى وحده الحمد والمنة والنعمة والفضل أن ثبتني وأعانني، لأفّي بالعهد على ما يحب ويرضى. (يسكت قليلا ليدافع تأثره) صفاء في قلبي يا أماه، وثقي أنني سأحفظها وأرعها كما يليق بزوجة، أخذتها بأمانة الله، واستحللتها بكلمة الله. (يسكت برهة) صحيح أنني لم أخترها، ولكن ذلك لا يعني أنني لا أحبها، إن بيننا ما هو أبقي وأكد، بيننا مودة ورحمة، وميثاق غليظ.

- (تتنهد مرتاحة وهي تنظر إليه في امتنان) الآن اطمأن قلبي وهدأت هواجس نفسي. إن الله وحده الذي رزقنا إنسانا في نبلك وتدينك، لهو القادر على مكافأتك ومجازاتك أحسن الجزاء وأوفره. وعسى الله أن يبدلك بما فقدت خيرا ثوابا وخيرا أملا.

كانت الساعة تشير للسابعة مساء حين انطلق أحمد بسيارته عائدا للمنزل، وفي نفسه خواطر شتى. لقد استجاب الله دعاءه، وتوكل على الله فكان الله حسبه ونعم الوكيل. إنه يتذكر يوم زواجه بصفاء كأنه كان بالأمس فحسب، ويتذكر كيف ارتدى حلة العريس وقلبه مكلل بالأحزان مثقل بالهموم.

لكن اليوم، اليوم أخيرا، شعر أن سلمى صارت ذكرى تمر على قلبه دون أن تؤلمه. أخيرا خمد البركان الثائر بعد طول فوران. وما كانت تلك الرسالة إلا رَلةً تعجّل، لا شهوة ولا رغبة ولا حتى أنين قلب مكلوم. قد كان ذلك فيما مضى، وقد استغفر منها، وليس يعود لمثلها بإذن الله.

إن صفاء هي التي تشغل باله الآن، فما يجمعه بها روابط من نوع آخر، من نوع متين راسخ البنیان، لا تَهْدُهُ العواصف ولا تَعَبَتْ به الأهواء. إن بينه وبينها ميثاقا غليظا، وأواصر ذات حرمة، وفي أحشائها تصدح أنغام حياة جديدة، ليس له أن يستمع لمثلها فيطرب لها قلبه إلا تحت ظل ظليل من رضا الرحمن ورحماته وبركاته، على سنة نبيّه وصفيّه عليه الصلاة والسلام.

لله دُرُّها والدة صفاء!

لئن كان هو قد صبر، فهي قد صبرت كذلك صبرا من نوع آخر، صبر الأم التي علمت أن في قلب زوج ابنتها غير ابنتها، قد مَلَكَ يمينها ومَلَكَتْ يمينه، ولكن مَلَكَته قلبها وما مَلَكَها قلبه. ومع ذلك قَدَّرت الموقف ووسع صدر الأم فيها قلب المحب فيه، فأمهلتَه فسحته حتى يطيب في أوانه، موقنة أن بارئه كفيل بالمسح على جراح ذلك القلب الذي طالما تقلب بين يديه، مسبحا باسمه وراجيا عونه، أطراف الليل وآناء النهار.

وإنه لم يعهد والدته صفاء إلا في صَفِّه دوما، وما شَكَتْ إليها صفاء شيئا سواء كانت محقة أم مخطئة إلا أخذت أمها صَفِّه، ونهت ابنتها عن إغضابه، ولا تتركها حتى تأخذ بيدها وتأتي بها إليه معذرة، فيصفح عنها قبل أن تتفوه بكلمة الاعتذار، ويسترضيها قبل أن تُصوب إليه نظرة عتاب. ولو أنها تراه قد أعطاهما، فإنه قد أخذ منهما بقدر ما أعطى وربما زيادة، فانشراح العطاء ليست بأقل من سرور الأخذ. ولئن كانت تراه ذا فضل عليهم، فالله هو صاحب الفضل عليه وعليهم، منَّ عليه فطِيب قلبه وضمَّد جراحه، وجعله سببا لإسعاد قليبين ذاقا من صُنُوف الشقاء ألوانا.

فأما القلب الأول فقلب أمها، وأما الثاني فقلبها.. صفاء! صفاء التي دخلت حياته على غير توقع منه، وأصبح في يوم ليجدها تتأبط ذراعه باسم زوجته، وتناديه زوجها! ولو أنه أسلم لهواه العنان، واستسلم لحلم الأمس الذي

مضى، وعاش في خيالات غد نسجته الأوهام، لما كان للتآلف بين روحيهما من سبيل.

وقد أدرك في قرارة نفسه منذ وعده لوالده بإنفاذ وصيته، أن قلبه على خطر عظيم، وأنه لا سلطان له عليه بنفسه، فإنما هو بيد الرحمن مقلب القلوب. فلاذ به وبسط شكواه على بابه، وفاضت مدامعه أنهارا، في تضرع وابتهاال من انقطع به كل أمل وقصر عنه كل سبب، إلا ما كان بالله ومن الله وحده. فما ضاعت الشكوى وما خاب الرجاء. لقد نَوَّرَ الرحمن بصيرته، فرأى في الحياة التي رُسِمَتْ له جوانب أحبها، وجوانب إن لم يحبها فلم يجد فيها ما يحمله على كرهها، وثالثة إن كان كرهها ففي الأولى والثانية عنها غناء.

لقد مرت عليه أوقات في بداية زواجه ظن أن الحياة مع مثل صفاء مستحيلة! كانت الهوة الفكرية بينهما تبدو للعيان سحيقة، فرتقها تواضع أحمد واحترام صفاء، لقد عرفتُ حدها فلم تتجاوزه، وما تأخذه منه بيد ترده له بما في وسعها، بامتنان وتфан في المحبة والخدمة. وقد أدرك هو أن ما به من نعمة فمن الله، ومن شكر النعمة بذل الفضل لخلق الله في غير من ولا أذى، وإن كان الخلق من الأهل والأقربين فالبذل أولى والكف عن الأذى أوجب. ولئن لم تستجب له صفاء في نواحٍ، ففي غيرها ما يشفع لها.

وكذلك أوصى نبيّنا ألا يبغض مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخر.

وإنه لَيَذْكُر حين قام يصلي من الليل، فقامت ورائه تصلي معه وتأتم به. ثم صارت من بعدها هي التي توقظه ليقوم من الليل، حين ينام متأخرا ولا يستطيع الاستيقاظ من تلقاء نفسه. وإنه ليذكر كيف روى لها الحديث: "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَقْبَضَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَقْبَضَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ". فما كان منها إلا أن طبقت في الليلة التالية بحذافيره! واستيقظ فزعا ليجد نفسه مبللا بالماء البارد، من ناصية رأسه حتى أخمص قدميه! وكانت النتيجة أن قضى أسبوعا بعدها مريضا!

وإنه ليذكر كيف كانت تسارع إذا دعاها ليقرا معها في القرآن. وكان يعلمها قواعد التجويد، ويعيد عليها القاعدة الواحدة أكثر من مرة حتى تحفظها. ولربما تُنساها بعد كل هذا، فترفع إليه عيني تلميذ يخشى عقاب معلمه، فلا يزيد على أن يبتسم لها مُطمئنا، ويذكرها بما أنستته.

وإنه ليذكر ذلك الأسبوع "الهادئ" الذي قللت فيه صفاء من ثرثرتها، حتى ارتاب في أمرها. وكلما دخل عليها الغرفة أخفت شيئا كان في يدها، وما

كانت لتجيب مهما رجاها. فإذا بها بعد انتهاء الأسبوع تُقبل عليه في سعادة، بَقْفَرَاتِهَا الأَرْنَبِيَّةَ المعهودة لِتَرَفِّ إِلَيْهِ النَبَأُ السَّارُّ : لقد حَفِظْتُ سورة الكهف كاملة! يومها، أعد لها حفلة صغيرة شاركتهم فيها أمها. واشترى لها ميدالية ذهبية صغيرة، فما كاد يُلبسها إياها، حتى راحت تتقافز هنا وهناك في سعادة غامرة، وهو وأمها يضحكان في سرور.

لقد كانت تلك لقطات من حياته، لقطات مختلفة من أوقات مُتَبَايِنَةٍ، ولكنها حين تُجْمَع جنباً إلى جنب تُكوِّن صورة جميلة، تبعث الدفء في النفس والحب في القلب. فمن ذا الذي ينكر أن أسرة جَمَعَت بينها هذه اللقطات ليس الحب عنصراً أساسياً فيها؟ وَإِنَّ مَنْ أَسَّسَ بنيانه على تقوى من الله، فإن الله لمتكفل بحفظه من الانهيار.

فذلكم هو الحب الذي قامت عليه تلك الأسرة، تلك الأسرة التي جمعت قلبين كادا يكونا متنافرين، فربطهما الله معا بشريط من حرير كُتِبَ عليه بماء الذهب : "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" [النحل : ١٢٨].

في تلك الليلة، فارقت الحياة الدنيا من بين العديد الذين فارقوها، سيدة في أواخر الثمانينيات. لم ت اخترع الذرة، ولا حازت جائزة نوبل، ولن ينشر نعيها على الصفحة الأولى أو حتى الأخيرة، في الصحف العالمية أو المحلية. غير

أنها حفرت اسمها في قلوب من عرفوها، وخَلَّفَتْ ورائها ألسنة تلهج بالدعاء لها، وتترحم عليها.

وكذلكم صدق القائل :

وَلَدْتُكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بَاكِياً ** والناسُ حَوْلَكَ يضحكون سُروراً
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ إِذَا بَكَوْا ** في يومٍ مَوْتِكَ ضاحِكاً مَسروراً

باسم الحب

حدّقت سلمى بالرسالة في وجَل، ثم نقلت بصرها إلى خانة العنوان، فإذا عنوانها "الإعجاز العلمي في القرآن الكريم"! فتحت سلمى الرسالة وقرأتها، ثم تنهدت في شيء من الارتياح. لم يكن فيها ما توقعت! ألقت نظرة على خانة العناوين فألفت عنوانها مندسا وسط أخرى كثيرة! شعرت سلمى بكيانها ينقسم قسمين، ليدور بينهما حوار حول ما ينبغي عمله إزاء ما جرى :

أتراه أرسلها لي سهوا؟

ولماذا لا يزال يحتفظ بعنواني حتى الساعة؟ ولماذا اختار هذا التوقيت بالذات بعد لقائنا أمس، ونحن لم نتراسل منذ رسالة المكاشفة قبيل زواجه؟ أتراه يقصد مغزى أبعد مما أظهر؟

بم تهذين يا سلمى؟ إنها رسالة عادية تماما!

ولكن.. ولكن دلالاتها في وضعنا.. غير عادية!

إذن، هل أتجاهلها؟

ربما كان يختبر ردة فعلي، فيحسب سكوتي رضا ويرسل غيرها! واللّٰه وحده
العليم بما سيكون فيها! وإذا رددت عليه، فربّ رد يجر وراءه ردودا! واليوم
رسالة دينية، وغدا علمية، وبعد غد قلبية!

ما بك يا سلمى؟! أبلغت بك الظنون أن تشكّي في نواياه وأنت تعلمين من
سجاياه ما تعلمين؟

لا أحد يكبر على الزلل بين الحين والحين. ثم هو من وضع نفسه موضع
الرّيبة!

وأي ريبة في أن يرسل رسالة عن الإعجاز العلمي في القرآن؟!

ليست الرسالة ذاتها ولكن دلالاتها! واليوم تلميح وغدا تصريح! وكذلك
مبدأ كل خوائن الأعين والصدور!

إلّا ترمي يا أحمد؟ أخانك تجلّدك في لحظة صَعَف وقويّ عليك شيطانك؟
فإنها اليوم صغيرة، وغدا صغيرة، ويُجمّع الصغير إلى الصغير فإذا هو كبير.
وإذا المُحقّرات بتراكمهنّ مُهلكات، وإذا مُستصغر الشرر قد أشعل نارا
عظيمة!

كلا يا أحمد! سأؤدي واجبي تجاهك ولن أُعين الشيطان عليك، سَأَزْبَأُ بك عن هذا المَنَحَى كما أربأ بنفسي، فوالله ليس هذا العبث – (لنفسها) أيا تكن مقاصده - مما يغني عن أحدنا شيئا، بل إنه يهيج ما قد خبا.

وفي الحال قامت سلمى بنسخ العناوين المهمة في بريدها، ثم طلبت حذف حسابها على ذلك العنوان بالكامل. مضت لحظات التحميل بطيئة وهي تترقب، حتى إذا ظهرت أمامها رسالة تفيد حذف حسابها بالكامل، تنفست الصُّعْدَاء! ستنشئ حسابا آخر لا يعرف أحمد عنوانه، فتقطع الشك باليقين، وتدع ما يريُّبها إلى ما لا يريُّبها.

مر الأسبوعان المرتقبان أخيرا، بعد أن بدا لمن يترقبون مرورهما أن الوقت يعتمد التباطؤ في دلال، ليزيد تطلعهم له ومتابعتهم لخطوه. فتجمعت أسرة قاسم ووالدا سلمى في شقتهم، وقد أعدوا حفلا صغيرا مستبشرين بأن قاسما لا بد سيفوز بعون الله. مر الوقت سريعا بالجمع السعيد، فما انتبهوا إلا على صوت جرس الباب.

تسابق الجميع واحتشدوا بترتيب متفق عليه أمام مدخل الباب، وما دخل قاسم حتى أحاطوه بالهتافات والتصفيق والتهاني الحارة. تهلل وجه قاسم من وقع المفاجأة، وقال ضاحكا :

- ما شاء الله! إنني حتى لم أعلن خبر نجاحي بعد!
- (هويدة) بالتأكيد أقرّوا مشروعك وفزت بالترقية، أليس كذلك؟
- (يحك ذقنه بيده متظاهرا بالتردد) الحقيقة أنني..
- (سلمى) هيا يا قاسم، لا تتلاعب بأعصابنا!
- (مستمرا في تظاهره) لست أدري كيف أقولها لكم..
- (يبدو على والد سلمى الاستنكار) هل رفضوا مشروعك يا ولدي؟
- (سلمى) مستحيل!
- (هند) لا بد أنه يمزح!
- (تنفرج أساريره) إنني فعلا أمزح!
- (سلمى) إذن فأنت الآن..
- مدير الفرع الجديد!
- (تحتضنه) مبارك يا قاسم!
- (تحتضن هالة والدتها في فرح) الله أكبر ولله الحمد!

- (تسلّم عليه الحاجة فاطمة ويحتضنه الحاج عادل) مبارك لك يا ولدي،
أنت حقاً زين الأسرة ومفخرتها.

- (تحتضنه والدته وتقبّله عدة قبلات) أسأل الله أن يوسع عليك من فضله،
ويحفظك موفّقاً مسدداً في كل خطوة تخطوها يا ولدي، ويبارك في عمرك
في طاعته، يا قرة عيني وثمرة فؤادي.

- (تدمع عيناه، ويحتضن والدته بذراع وسلمى بالأخرى) إنني عاجز عن
شكركم جميعاً يا أحبائي. وسعادتني بما وفقني الله إليه من ظفر، لا
تضاهي سعادتني بالبسمة المرتسمة على وجوهكم جميعاً.

- (تمسح الحاجة فاطمة دموع التأثر) هيا هيا حتى لا نغرق في الدموع!
سارع وبدل ثيابك لأن قائمة السهرة ممتدة بعد.

- (تجذبه سلمى من يده لغرفتهما في الداخل) نعم، هيا أسرع.

- وهذه البدلة التي جهزتها لك! ما رأيك؟

- (يجلس على طرف الفراش) بديعة! رائعة! تماماً ككل شيء تعدينه!

- (تقبّله قبلة سريعة) لا تتأخر علينا. (تَهْم بالخروج)

- سلمى؟

- (تلفت إليه) نعم يا حبيبي؟

نهض قاسم وطوّقها بذراعيه، واحتضنها طويلا دون أن يقول شيئا. وهي كذلك لم تنبس بكلمة. ولم يكن ينتظر من أحدهما أن يتكلم، فأى كلام يمكن أن يقال لم يقله ذلك الدفء وتلك المودة؟

- (تطرق هند على الباب من الخارج) هل انتهيت يا قاسم؟ أكل هذا لتبديل ملابسك أم ماذا تفعلان بالضبط عندكما؟!

- (يشاطر سلمى نظرات التعجب) يا لها من فتاة! (يرفع صوته) اسبقينا للكعكة يا هند وسنلحق بك!

- (تصيح من وراء الباب) أمي هي التي أرسلتني لأناديك يا أستاذ! (تنصرف مردفة) ولولا ذلك ما كلفت نفسي عناء المسافة!

- (تضحك معه من تعليق هند، ثم تبتعد عنه وتسارع نحو الباب وهي تبتسم له) لا تتأخر إذن، سننتظرك.

خرجت سلمى وأغلقت الباب وراها برفقها المعهود، وجلس قاسم على حافة السرير مطرقا، ومتفكرا. كان قلبه يموج بمزيج من مشاعر شتى، كان منشرحا، ومطمئنا، وممتنا. سرت في جسده رعشة عند خاطر الأخير، ودمعت عيناه إثرها، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يخبر لله ساجدا، والدموع

تتقاطر من عينيه، وصدى الآية يتردد في حنايا صدره : “الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ” [الأعراف : ٤٣].

كم سجد سجدته تلك في عتمة الليل الساجي والكل نيام، كم رفع يديه
في غَبَشِ الأسحار يلهج بالمناجاة والدعاء. كان يدعو لنفسه، ولوالديه،
وإخوته، وبسلمى! وها أنت ذا يا قاسم، تمضي في طريقك مسدداً بالله،
باعثك مرضاة الله وحاديك دعاؤه. فلتهنأً بالا إذن، فالله خير حافظاً.
رجاؤك وأمانيك عند الله مصونة، ويظل لك ثواب نيتك المباركة جارياً، وإن
انقطع بك السعي حتى حين.

- (تنظر هند لساعة الحائط وتتململ في جلستها) تأخر قاسم كثيراً!

- (تبتسم أمها) هي ربع ساعة فحسب يا هند!

- (هالة) لعل المسكين غفا من التعب!؟

- (الحاجة فاطمة) ربّما ما كان ينبغي أن نعجل بالاحتفال فور رجوعه من
عمله.

- (تنهض سلمى) سأذهب وأتفقده، دقائق وأعود.

- (تهمس هند لأختها هويدة) هذا يعني نصف ساعة أخرى على الأقل!
(تلكزها هويدة مبتسمة)

طرقت سلمى باب الغرفة طرقا خفيفا حتى لا تفزعها، فلما لم يجب أحد،
فتحت الباب برفق وهي تهمس باسم قاسم، وما كاد بصرها يقع على أرض
الغرفة، حتى أطلقت صرخة ارتاع لها الجميع!

كان قاسم ممدا على الأرض، واضعا كفه على موضع القلب، وقد ارتسمت
على وجهه تعابير الألم.. أقسى الألم.

الفصل التاسع عشر

أرجوهك ، لا ترحل !

تطلعت الحاجة فاطمة في قلق إلى الحاج عادل، وهي تحوط سلمى بين ذراعيها وقد انتفخت عيناها من البكاء، في حين كانت هالة تحدث هويدة على الهاتف، فلما أنهت الحديث، التفتت نحوها الحاجة فاطمة :

- كيف والدتكم الآن؟
- ستكون بخير إن شاء، هويدة وهدد معها تعتنيان بها. (تجلس إلى جانب سلمى من الناحية الأخرى وتربت على كتفها) هوني عليك يا سلمى، هي بإذن الله تعالى وعكة بسيطة ليس إلا.
- (يؤيدها الحاج عادل) هذا ما أرجوه أنا كذلك، بسبب إجهاد العمل المتواصل.
- (ترفع إليهم عينيْن محمّرتين) لماذا هو في العناية المركزة منذ أربع ساعات إذن لو كان الأمر مجرد إرهاق؟!

- (تهدئُها الحاجة فاطمة) صبرا يا ابنتي، عمّا قريب يأتي الطبيب ليطمئننا إن شاء الله.
- (ترتجف في توتر) لا أحد يعطينا جوابا شافيا، اختفوا به وتركوني هنا أكتوي بنار الحيرة، أكاد أفقد صوابي!
- (يقاطعها والدها في نبرة تفاؤل) هو ذا الطبيب قادم! (يَهْبُونَ جميعا نحوه)
- (يقترّب منهم الطبيب، ويبتسم مُطمَئِنا) الحمد لله هو بخير الآن، استطعنا بفضل الله تدارك حالته هذه المرة.
- (تهوي سلمى جالسة، وهي ترتجف) الحمد لله، الحمد لله.. (تبتّر عبارتها وتنظر إلى الطبيب بَغْة) ماذا تعني "هذه المرة"؟
- (يَزُمُّ الطبيب شفّتيه في تعاطف، ويبدو مترددا) من الواضح أن زوجك قد أرق نفسه كثيرا، وهذا أثر على عمل أجهزة الـ..
- (تتدخّل هالة في قلق) أرجوك خبرنا بالوضع مباشرة أيها الطبيب!
- (يجيب ببطء وهو يُنْقَلْ بصره بينهم) لقد أصيب بأزمة قلبية حادة، وقلبه في حالة إجهاد شديد! (تشهق سلمى في ارتياح، في حين تخفي هالة وجهها بيديها وهي تحوّل، ويظل والدا سلمى محدّقين في

الطبيب، فيحاول الطبيب تخفيف الصدمة) لكن حالته بحمد الله مستقرة الآن.

- (تَهْبُ سلمي واقفة) أريد أن أراه!
- لا أستطيع السماح بذلك، إنه في العناية المركزة ..
- (تدخل هالة ثانية بنظرة برجاء) بالله عليك أيها الطبيب، اسمح لزوجته على الأقل أن ترافقه وسنتحمل نحن ألم الانتظار ! (تأخذ بيد سلمي الباكية، وتتطلعان للطبيب راجيتين)
- (يرق لهما الطبيب، فيومئ لسلمي) حسنا سأسمح لزوجته فحسب بالانتظار معه حتى يفيق. (يشير لسلمي أن تتبعه فتمضي ورائه في لهفة، في حين تتهالك هالة على كرسي الانتظار، وتخفي وجهها بيدها، وإلى جانبها الحاجة فاطمة تواسيها، والحاج عادل واقف مكانه يسترجع الله)
- (تجلس إلى جانبها، وتحتضنها في تعاطف) لقد آثرتِ سلمي مكانك يا هالة..
- (ترفع إليها عينين دامعتين) لست بأقل منها قلقا على قاسم، لكنني لم أשא أن أضاعف همها. رباه! كيف أبلغ أُمي بهذا الخبر الآن؟

- (تنظر الحاجة فاطمة لزوجها مستشيرة، فيجيب) طمئنيها بشكل عام على استقرار حالته، ثم لنصبر حتى يفيق قاسم أولاً، وبعدها لكل حادث حديث.

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، وقد انهمكت الممرضة أمل في ترتيب ملاءات الأسرّة حينما دخلت عليها بشرى، وعلى وجهها علامات التأثر.

- مالك يا بشرى؟ أهي رئيسة الممرضات مرة أخرى؟
- لا، إنما هي تلك الفتاة الجميلة التي حدثتك عنها.
- تعنين تلك التي أصيب زوجها بنوبة قلبية؟ هل مات زوجها؟
- (في غضب) أعود بالله من فألك السيء! ما تكفّين عن إطلاق ظنون السوء هكذا جرّافاً! لو علّم والداك ما سمّياك "أمل"!
- (تغمغم متثابثة) هما سمّيانِي، فما ذنبي أنا؟! (تفرّك عينيها في إرهاق) هاه! ما بها فتاتك تلك؟

- ظلت طوال الليل قائمة تصلي في غرفة زوجها! لا أمرٌ بها أثناء الدورية إلا وجدتها إما قائمة تصلي، أو متضرعة تدعو، حتى اكْبَرَتْهَا جدا وِرَقَّ لها قلبي.
- (تبتسم وهي تعاود التثاؤب) كأن هنالك أحدا لا يَرِقُ له قلبك يا بشرى! (ترى بشرى تنظر لها معاتبة، فتغمغم لتجاريها بنبرة تعاطف) كان الله في عونها، ياللمسكينة!
- (تناول بشرى ملاءة لتشرع في ترتيب أحد الأسِرَّة، ثم تُردِف) بل والله نحن المساكين! لو رأيْتَهَا كما رأيْتُهَا، ووجهها يشرق نورا على شحوبه، لقلتِ إنها وَلِيَّةٌ من أولياء الله!
- (كأنما هزتها الخاطرة، فتتوقف أمل عن عملها برهة وتغمغم) سبحان الله!
- ما الأمر؟
- أتذكرين ذلك المليونير الذي نزل بإحدى أفخم الغرف الأسبوع الماضي؟
- أجل أذكره. ياللمسكين! لم يزره أحد سوى سكرتيه، ليتلقى منه الأوامر!

- (تجلس على طرف أحد الأسرة) لم تُغنِ عنه ثروته الطائلة شيئاً، لا دفعت عنه غائلة المرض، ولا ألفت حوله القلوب.
- (تجلس بشرى على طرف السرير قبالة زميلتها) صحيح!
- وكم من مُعَدَم يموت، وحوله باكون يبكون لفراقه.
- أو على الأقل قلب واحد يحزن عليه بصدق. (تعتقد كفيها أمام صدرها كالحالمة) أبيع الدنيا لأحظى بقلب صادق يبكي بصدق.
- (تقذفها أمل بإحدى المِخَدَّات مداعبة) وتحدثين عن الفأل السيء! هَلَا دعوتِ بمن يحبك أولاً بصدق ثم ليبكيك بعدها؟!
- (تَهْمُ بشرى بالرد عليها فيقطع حديثهما صوت صارم من ورائهما) ماذا تفعلان جالستين هكذا؟ (تنتفض الممرضتان لصياح رئيستهما) تثرثران وتسترخيان وقت العمل؟ (تدوّن في ورقة معها) حسناً سأضيف هذه المخالفة للخصومات الشهرية من المرتب إذا ضبطتكما ثانية تتلكان! هيا تحرّكا إلى مهامكما!
- (تنهضان متذمرتين وتستأنفان عملهما)

لقد أفاق زوجك يا أستاذة!

بهذه الكلمات همست الممرضة المناوبة في أذن سلمى التي عَفَت وهي جالسة، ففتحت عينيها بغتة وتطلعت إليه بلهفة. خرجت الممرضة وأغلقت الباب خلفها، وتركت سلمى وقاسم معا، ينظر كل منهما إلى الآخر، نظرات حملت ألف معنى ومعنى.

الفصل العشرون

واجبياه !

فاحت أركان الشقة بعبير الورود التي أرسلها زملاء قاسم ومديره في الشركة، فضلا عن الأسرة والأقارب. مضت بضعة أيام منذ عودة قاسم لمنزله، بعد أن ألزمه الطبيب براحة من أي جهد مدة شهرين على الأقل.

أدخلت سلمى العجين في الفرن لتعد فطائر اللحم المفضلة لأولاد هالة، إذ طلبت إليها سلمى القدوم لزيارتهم، لِمَا تعلم من وَلَع قاسم بطفليها عبد الملك وتسليم، ووليدها الجديد عبد الرحمن.

ضبطت سلمى حرارة الفرن، ثم خُيِّلَ إليها أنها سمعت قاسما يناديها، فخرجت إلى حيث كان جالسا على كرسيه المفضل قرب الشرفة المطلة على البحر، وقد أسدل جَفَنِيه وبدا نائما. اقتربت منه في هدوء، وجلست إلى جانبه على الأرض.

شعر بها قاسم ففتح عينيه، وابتسم لمرآها. أسندت رأسها إلى ركبتيه، فمدّ يده يمسح على شعرها، وعاد يُسدّل جفنيه في إرهاق واضح. مضت لحظات صمت ثقيل، ثم غمغم قاسم أخيرا :

- سامحيني يا سلمى!
- (ترفع رأسها متسائلة) أسامحك؟ على ماذا؟
- أردت أن أسعدك فأشقيتك من حيث لا أدري. سامحيني..
- (تدمع عيناها لكنها تمتنع عن البكاء) ليس ذنبك يا حبيبي. كان مقصدي نبیلا، لكن قدر الله وما شاء فعل. إنها فترة عابرة بإذن الله. ستمر الأزمة يا قاسم، ونعود كما كنا.. بإذن الله.
- (يغمغم) نعود كما كنّا..
- نعم، إن شاء الله، كما كنّا (تعود فتسند رأسها إلى ركبتيه)
- (بعد صمت يسير) أتعلمين يا سلمى؟
- نعم يا حبيبي؟
- كنت أتمنى أن أعتمر معك هذا العام، ونطوف بالبيت معا.

- (تشد على يديه، وهي تنظر لعينيه في تأكيد) سنعتمر بإذن الله معا يا قاسم، حين تبرأ بفضل الله تعالى.
- (كأنه في وادٍ آخر) كنت تلبسين السواد في المستشفى، لا أحب أن أراك مُتَّشِحَةً بالسواد يا سلمى..
- (تنظر إليه في شيء من القلق) قاسم.. ماذا تقول؟!
- عديني ألا تلبسي السواد ثانية..
- (تحقق به في وَجَلٍ) قاسم، أرجوك!
- (يشد على يديها والعرق يتصبب منه) عديني يا سلمى!
- أعدك، أعدك بكل ما تريد ولكن لا تجهد نفسك بالكلام، أرجوك!
- (يسكت قليلا وهو ما زال ممسكا بيدها، ثم يغمغم مبتسما وهو مسدل جفنيه) وأريدك كذلك أن تنجبي طفلا يشبهك يا سلمى!
- (تنظر إليه في هلع هذه المرة) قاسم، بالله عليك!
- (كأنه لم يسمح نداءها) وأن تقولي له إنني أحببتك بصدق، حبا ملأ علي جوانحي كلها!
- !!!

- وأنت كنتِ الملاك الذي أنار حياتي.. فما أبالي بعدها..
- (لا تملك حبس دموعها، فتخبئ وجهها بيديها، لتنساب الدموع من بين أصابعها) كفى يا قاسم! أتوسل إليك كفى! كفَّ عن الحديث هكذا! إنك تقتلني بكلامك!
- (يفتح عينيه وينظر إليها مندهشا كأنما أدرك وجودها للتو) سلمى؟ أتبكين يا سلماي؟! (يمسح على شعرها) إن كنت تحبينني حقا، فكفي عن البكاء بالله عليك يا سلمى. دموعك عندي أغلى من حياتي.
- (تمسح دموعها وتطرق في وجوم)...)
- أرجوك ألا تبتئسي يا سلمى.. أنا آسف.
- (ترفع إليه نظرها وتتكلَّف أن تبتمسم)
- (يعود فيُسَدِّل جَفْنَيْهِ) أتعلمين أنك تبدين كالملاك حين تبتمسين يا سلمى؟
- (تقبَّل يده المرتخية على ركبته) حبيبي يا قاسم! إنك كنت أبدو ملاكا فأنت الملاك حقا، بارك الله لي في عُمرِكَ.
- (يعود الصمت بينهما حيناً، ثم يقول في خفوت) أشتهي أن أشرب مشروباً من عمل يدِكَ يا سلمى.

- ماذا تفضل؟ ينسون؟

- لا بأس.

- (تنهض سلمى مسرعة تداري دموعها، ويتبعها هو ببصره لحظة، ثم يغمغم والعرق يَتَقَصَّد من جبينيه) اللهم ارض عنها وأرضها، واخلف لها خيرا مني!

تسللت دمعة من دموع سلمى وهي لا تشعر، داخل فنجان الينسون. وأخذت تصب السكر، وهي بالكاد ترى ما تفعل، لَغْشاوة الدموع على عينيها. حتى إذا انكشفت عُمة الدموع قليلا، وجدت نفسها وضعت ملحاً بدل السكر، فأسرعت تسكب محتويات الفنجان في الحوض، وهي تَعَضُّ على شفتيها في حَنَق : “غبية! غبية! غبية!” ثم شرعت تُعِد فنجانا آخر على جَنَاح السرعة، حتى إذا فرغت حملت الفنجان وأسرعت إليه.

- تفضل يا حبيبي، اعذرني تأخرت علي..

بترت سلمى عبارتها حين وقع بصرها على قاسم، وجَمُدت في مكانها، كمن مسته صاعقة من السماء، أو هوى في وادٍ سحيق! كان قاسم جالسا في مكانه، وقد انحنى رأسه على صدره، ورفع إصبع السبابة علامة التوحيد!

شهقت سلمى في ارتياح، وسقط الفنجان من يدها مُحدثًا دَوِيًّا في ذلك الصمت المُطْبِق، وتناثر حُطَامَه على الأرض الرُّخامية، وانسكب بعضه على ثوبها، وهي بعد متصلِّبة في وقفتهَا، تُحدِّق به!

- قاسم!

اختلجت شفتاهَا، وتَحَجَّرت الدموع في عينيها. جرَّت قدميها إليه جرا، كأنما ترحزح كُتْلَة من الرصاص، ثم هَوَتْ إلى جانبه وهي تتأمله في هلع. مدت يدها المرتجفة لتلامس أناملها أنامله، فبعث دفء أنامله شرارة في جسدها البارد، فانتفضت كمن أصابه مَس! ومع انتفاضها تفجرت الدموع المتجمّدة في مآقيها، فانهالت مدرارا، يأخذ بعضها بأعقاب بعض في صمت كسير، إلا من شهقات صدر تكوبه اللوعات.

ظلت سلمى معلّقة بصَرِّها به، وهي لا تكاد تعي ما حولها، وَخِيْلَ إليها أنها ميتة وليست بحيّة، وأن الزمن توقف فلا يمضي، والكون تَسَمَّر في مكانه فلا يدور. رفعت يدها تتحسس وجهه المنير البشوش، فألفته كما عهدته دائما، يبتسم ابتسامته المطمئنة، حتى كأنه يَهْم أن يقول لها "لا تبكي يا سلماي!".

أرادت أن تنطق باسمه لكن صوتها احتبس في حلقها، واختلجت شفتاها
بقوّة دون أن يصدر عنهما حرف. تأملته بضع دقائق حتى إذا أدركت أخيرا
أنه لن يفتح عينيه ويبتسم لها، أسندت رأسها إلى ركبتيه وهي تتن في
انكسار، وتركت لدموعها العنان، لتنهمر بلا انقطاع.

وإن العين لتدمع..

وإن القلب ليحزن..

ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا..

إنا لله..

وإنا إليه راجعون.

الفصل الحادي والعشرون

فراق، وأشواق

وقفت سلمى عند أولى درجات سلم العمارة مطرقة في وجوم. لقد استمهرت والديها ساعتين من الزمن لتعود لشقتها لجمع بعض ذكرياتها، ووداع البعض الآخر. حاولت أمها إقناعها بالانتظار ريثما تخف حدة شجونها، غير أن شعورا قويا كان يدفعها للحضور بعد الجنازة مباشرة.

أتراها كانت تنتظر أن تستيقظ من ذلك الكابوس المرعب؟

أتراها كانت تتوقع أن تصعد لتجده يتربح مجيئها بلهفة؟

جزء من قلبها سلم بحقيقة فراقه إلى الأبد، غير أن الأجزاء الباقية كانت بعد تستيقظ وجوده وتتوق لرؤيته حاضرا.

رفعت سلمى عينين دامعتين شاردتين، وراحت تحديق في السلالم الرخامية التي صعدتها منذ عام ويزيد قليلا عروسا في أوج فرحها، وها هي ذي الآن تصعدا أرملة في قمة أحزانها. سرت في جسمها رجفة قوية، ثم شرعت تصعد الدرجات. وراحت تجر قدميها جرا نحو شقتها، وكلما صعدت خطوة، ازدادت دموعها انهمارا، فجاهدت أن تمسك صوت نحيبها لئلا يبلغ مسامع أحد الجيران فيخرج لتعزيته.

لقد أضحى وخز التعازي المتقاطرة على سمعها في خضم ألمها الجارف، كطعنات سهام ترمي فؤادها تباعا بلا هوادة، حتى تكسرت النصال على النصال! فما عادت تطيق سماع تعزية ولا تحمّل نظرة تعاطف، ولو من والديها. كانت تشتهي الوحدة والاختلاء بنفسها بعيدا عن كل تلك الأجواء. وكذلك يأبى الفؤاد الملتاع إلا أن يساير الحبيب الراحل في رحلته، ويستوحش من باقي الأحبة بعد غيبته.

بعد لأي وقفت أمام باب الشقة، فأخرجت المفتاح من حقيبتها، وعبثا حاولت إدخال المفتاح في ثقب الباب لفرط غشاوة الدموع على عينيها. لم يتحمل المفتاح وطأة أصابعها وهي تعبت به في عصبية، فسقط أرضا كأنما يحتج على شدتها. زفرت سلمى في استياء، ثم انحنى لتلقطه، وأخذت

نفسا عميقا، ثم عادت تدير المفتاح بروية. وأخيرا دخلت وحدها.. إلى شقتيها.

أوصدت الباب خلفها بإحكام، ووقفت برهة تتسمّع في السكون. ولثوان خُيِّلَ إليها من لهفتها وترقبها، أنها سمعت صوتا صادرا من غرفة النوم. سارعت سلمى نحو الغرفة ودفعت الباب لاهثة، وأمامها امتدت الغرفة الواسعة، خاوية إلا من أثاثها.

نكست سلمى رأسها في أسي، واتجهت لدولابها تلملم منه بعض ثيابها، وهي تتحاشى النظر إلى دولاب قاسم أيما تحاشٍ. فتحت سلمى دولابها، ووقع بصرها أول ما وقع على ثوبها المخملي الأبيض، المُحَلَّى بالدانتيل الدقيقة والرقيقة، أحب أثوابها إلى قاسم وأول هدية منه لها. مررت أصابعها على الثوب وهي تبتسم ابتسامة الحزين، ثم أغلقت الدولاب، وجلست على حافة السرير في صمت كسير.

تأملت حاجياتها في الغرفة، عطورها، فرشاة شعرها، الدُّبّة البيضاء على السرير، كل شيء.. كل أشياءها.. كانت ملكه هو! كل هذا إنما كان له، وله وحده. لن تستطيع أن تستعمل أيا من هذه الأشياء لنفسها بعد الآن، لأن قاسما لن يكون موجودا ليتأملها وهي تمشط شعرها الطويل، ولا ليُثني على

ذوقها في اختيار العطور، ولا ليقذفها بتلك الدبة البيضاء، كلما قالت تعليقاً يغيظه.

قد رحل قاسم! ومعه رحلت قيمة تلك الأشياء، التي كانت بالأمس القريب من أنفَس ممتلكاتها وأعزها، فغادرتها حياتها حين غادر مَنْ كانت تستمد منه قيمتها.

وأخيراً نهضت بتثاقل، وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها، دون أن تأخذ منها شيئاً. ورَغِم أنها استمهلت والديها ساعتين، إلا أنه لم يكد يَمْض على وجودها بضعة دقائق، حتى ودت لو تتصل بهما ليصطحبها بعيداً.

سبحانك ربي مقلب القلوب، ومُبدِع المشاعر الإنسانية الرهيفة. كم آذاها ذلك السكون المُخيم وأَمْصَّتْها تلك الوحدة المُطَبَّقة، وهي التي كانت من قبل تَسْتَلِذ وحدة الانتظار حين تعلم أن قدوم قاسم من عمله يَعْقُبها، وتكون قد أعدت له حَلواه المفضلة مفاجأة له. وكانت تحب السكون بل وترجوه أن يطول، لتصغي لأنفاسه وهو يَغِطُّ في نوم عميق، دون أن يعكر صَفْوَ نومه همس. وما تغير السكون، وما تغيرت الوحدة! ولكنه تغير الحال، وتعاقب الأحوال، ودوامها من المحال، وإلى الله وحده المآل.

مشت سلمى للصالة لتلقي نظرة أخيرة قبل مغادرتها على ذلك الكرسي، كرسي قاسم. إنها تذكر أول يوم رآته فيه فلم تتمالك أن ضحكت منه، كان عتيقا وكلاسيكي الهيئة، مقارنة بالأثاث ذي الطراز الحديث. يومها ابتسم قاسم لتعجبها، ونظر للكرسي بإعزازٍ من هو باقٍ على وفائه له، ولو ظن الآخرون ما ظنوا.

كان ذلك الكرسي هو المفضل لدى والده عبد الملك، وكان يلعبه في طفولته وهو جالس عليه، ويُجلّسه في حجره ليقراً معه كتاباً أو يسمع منه آخر مغامراته مع أخواته وسلمى، وكثيرا ما وعده أن يهديه إياه يوم عرسه. فكان الكرسي بمثابة كنز العائلة العتيق توارثته أبا عن جد. ولم يكن في تصميمه ما يشد الناظرين إليه، ولكنها تلك القيمة المعنوية التي تسبغ على صاحبها رونقا وجمالا ومكانة، ولو كان مجرد كرسي عتيق. يومها قدّرت وجود ذلك "النشاز" بين مجموعتها المختارة، وأكرمت مثواه، وأحبته لأن قاسما أحبه.

مررت سلمى يدها على الكرسي العتيق فألفته دافئا، كما لو أن قاسما كان يجلس عليه منذ دقائق. وهاجت الذكرى فأهاجتها، فجلست على الأرض وأسندت رأسها إلى الكرسي، وتركت لدموعها العنان، فتقاطرت بلا انتظام. وفي أنين مكثوم راح لسانها يلهج بقول "إنّا لله وإنّا إليه راجعون". وبقدر ما كان تردد الذكر يسيرا على اللسان، كان التحقق به صعبا على الجنان.

تذگرت عندها حوارها مع قاسم ليلة خطبتهما. تذكرت قصة أم سليم والعارية المردودة. من كان يدري أنها وهي تتشارك تلك الخواطر الربانية في شرفة منزلها أمام خضرة حديقته، ستدور بها الأيام والشهور، فإذا بها تعيشها بحذافيرها، لكن بغير شرفة، وبغير حديقة، وبغير قاسم! بل بدموعها ولوعاتها وأوجاع نفسها!

وتظل المعاني معانيا، رسمها بالكلام جميل، وتصورها في الخيال بديع. حتى إذا جدّ الجدّ وحن وقت التحقق بحقيقتها، ورسم معانيها بأنفاسٍ معانيها، لم يثبت إلا من صدق الله في الرخاء، فصدقه الله في الشدة .. وما الصبر إلا بالله.

وعاد السكون يخيم على المنزل، والوحدة تجتاح ثناياه. وخشعت الأصوات إلا من زفّرات قلب يكتوي بنار الفراق، ودقات ساعة رتيبة تدق معلنة أن الوقت سيمضي، وأن عجلة الحياة ستدور، وأن العمر سينقضي لا محالة، وأن الموت آتٍ لا ريب وإن على غير ميعاد، ليطوي المختار في جوف الثرى حيث لا رجعة بعد ولا لقاء، ويمضي بالمسافر إلى حيث لا عودة ولا مآب.

فَالْكَيِّسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِدَلِكِ الْيَوْمِ ..

وَالْأَحْمَقُ مِنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي!

"وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ" [البقرة: ٢٨١].

مسجد القاسم

إشارة حمراء مرة أخرى! أوقفتُ سلمي السيارة، وراحت تنتظر. كانت عائدة إلى المنزل، بعد شراء حاجيات طلبتها والدتها. ندّت منها زفرة حارة حين تذكّرت كيف كانت تنزل هي وقاسم - رحمه الله - لشراء حاجتهما. كان الطريق حينها يبدو ممتعا وقصيرا، بما يتبادلانه من أحاديث في شتى الموضوعات. احتشدت الذكريات في رأس سلمي، فشعرت بصدرها ينقبض وبرغبة عارمة في الانفجار باكية، فما كان منها إلا أن أدارت محرك السيارة واتجهت إلى شارع جانبي، لتهرب من الزحام والانتظار اللذين يستجلبان تلك الذكريات المؤلمة.

مضت سلمي بسيارتها على غير هدى، فلم يكن لها عهد بذلك الطريق. راحت تسترشد بمن تقابلهم، لكنها تاهت أكثر في الأزقة الضيقة، وشعرت بالندم على تسرعها. ثم لطف الله بها إذ تبدّى لها منعطف في آخر الرقاق،

وما خرجت سلمى من ذلك المنعطف حتى أوقفت سيارتها بَعْثَةً، ووقفت تُحدِّق في الطريق أمامها. إنه ذلك المكان!

انبسط أمامها مَدَّ البصر شارع طويل، يَحُفُّه عن الجانبين أرض تبدو كالصحراء لشدة جَدِّبِهَا، إلا من بعض حشائش يابسة، وقد تناثرت منازل كثيرة هنا وهناك، ينبئ مظهرها عن تواضع معيشة أهلها. كانت تلك هي المنطقة التي لعبت فيها سلمى مرة، مع قاسم وأخواته وهم صغار، وكانت تلك هي المنطقة التي تمنى قاسم أن يُبنى فيها مسجد يجمع الأهالي للصلاة، ويُحيي الأرض القفر بصوت الأذان، ويَعْمُرَهَا بخطوات المشائين إلى المساجد، وظلالهم بالغدو والآصال.

أَيكون قاسم قد سبقها بالمرور من هنا قبل وفاته؟

جالت سلمى بعينيها في المكان، حتى استوقفها بناء منعزل وحده في ركن قصي عن بقية البنايات. أوقفت محرك السيارة، ثم نزلت متوجهة ناحيته، حتى إذا صارت على مَرْمَى حَجَرٍ منه، تنأى إلى سمعها صوت قرآن يُتلى بترتيل خاشع. اقتربت سلمى بهدوء، فتبينت رجلاً مُسِنًّا قد اشتعل رأسه شيباً، جالسا على كرسي صغير أمام بيت صغير من الطوب الأحمر. وقد بدا من انسجامه واستغراقه في التلاوة كأنه مُحَلِّق في السموات العلاء!

وقفت سلمى في مكانها مترددة، أعود أدراجها؟ أم تقطع على الشيخ لحظات السلام تلك؟ وهي مما يَتَخَطَّفُ المرء مثلها بين الفَيِّنة والفَيِّنة، في زمن أشغلت فيه الدنيا الكثيرين بزخرفها. أنقذها من حَيْرَتها تلك توقف الشيخ تلقائيا حين وصل لآخر الآية، فانتهزت سلمى الفرصة، وضربت حصاة صغيرة بطرف حذائها، فالتفت الشيخ وأَجْفَلَ أول الأمر لما رآها.

- بسم الله الرحمن الرحيم!

- (في تَلَطُّف) سامحني يا عماه، ولكن ترتيلك للقرآن جذبني، وخشيت أن أقطع عليك تلاوتك.

- (يخلق المصحف) لا بأس يا ابنتي، فوجهك ليس بالوجه الذي يأتي بِشَرٍّ. (ينهض محييا، ويأتي بكرسي صغير آخر) تفضلي يا ابنتي، حللتِ أهلا ونزلتِ سهلا بيننا.

جلست سلمى وهي تحدِّق في عَجَب في ذلك الإبريق النحاسي الذي وضع فيه الشيخ الماء للشاي، وراحت تتأمل موارده المتواضعة، وهي تتساءل في نفسها عما حَاقَ بذلك الشيخ الجليل، الذي بدت عليه مَخايل نعمة سابقة تجلت في سَمْتِه وهيئة جلوسه وكلامه، ليصل لتلك الحال من تواضع المعيشة. ناول الشيخ سلمى كوبا من الشاي، وابتسم لما رأى نظرات

التعجب في عينيها. شعرت سلمى بالحرج الشديد لتَطْفُلِها على الشيخ وموارده الضئيلة، فغمغمت في خجل:

- اعذرني يا عمي، لكنني ضللت الطريق، وانتهى بي المطاف هنا.
- (يبتسم) لا يضل طريقه من كان الله وكيله وهاديه.
- ونعم بالله.
- (يتأملها مليا كأنه رآها قبلا، ثم يُطرق، وينكث الأرض بعُود كان معه) لعلك تتساءلين عن معيشتي هذه، فسأخبرك قصتي رجاء أن تعتبري منها:

اسمي حسين. كنت فيما مضى موظفا حكوميا، أسكن شقة متواضعة مع زوجتي. كنا نعيش عيشة متوسطة بحمد الله تعالى. غير أن زوجتي لم تكن قانعة بما نحن فيه، وكانت دوما تحثني على البحث عن موارد أخرى للكسب عسى ان نزيد من دخلنا. فطرقنا أبواب مهن كثيرة، غير أنني لم أحظَ بفرصة، فليس معي من المؤهلات سوى شهادة الإعدادية.

وقد ظللت على حالي تلك حتى شكوت إلى زميل - عفا الله عنه - ما أنا فيه من نكد العيش، لعدم قدرتي على توفير المستوى الذي تتمناه زوجتي، والذي أرجوه لأبنائي حين أرزق بهم. فما كان منه إلا أن أشار علي - سامحه الله - بقبول الرüşوة، التي كانت مُتَفَشِّية عندنا. في البداية رفضتُ رفضا

قاطعا، لأنني كنت أسعى لتحسين وضعنا بالحلل. ولكن الشيطان أخذ يوسوس لي، وأنا أرى أصحاب الرِّشَاوى يزدادون غنى دون أن يُعاقبوا أو يلاموا - في الظاهر.

لم أستطع كتمان الفكرة في صدري، أو بالأحرى كنت أحتاج "لدَفْعَة" تمحو أثر التردد في نفسي. ففاتحت زوجي - عفا الله عنها - بالأمر، ولم يخب ظني فيها - وليته خاب!- (يتهدج صوته من الحزن) لقد أيدتني، بل حرصتني تحريضا، وزَيَّنْتَ لي أننا حين نَغْتَنِي، نستطيع بعدها تَطْهير أموالنا من الشُّبْهَة بالصدقة! وتناسينا حينها أن الحلل لا يُبنى على حرام، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.

في ذلك اليوم ذهبت إلى العمل وأنا أرتجف فَرْقًا، وأعدتُ سرد كل المبررات التي أَمَلْتُهَا علي زوجتي ونفسي الأمانة بالسوء، لأزداد اقتناعا بما أنا مُقَدِّم عليه. غير أنني لما جاء العميل الأول لم أستطع أن أطلب الرشوة، فلما ذهب نِدِمْتُ أنني ضيعت أول فرصة، وعَزَمْتُ أن أكون أقوى في الثانية! فلما جاء العميل الثاني، أخذت أوراقه ثم استجمعت شجاعتي، وهمست له بالعبرة المفتاحية المتعارف عليها للرشوة. وفتحت له درج مكتبي كما هي عادة المُرْتَشِينَ، ليضع فيه مبلغا هو ضعف ثمن الخدمة، ولكن لا يحسب ضمنها! وبالفعل وضع المبلغ دونما اعتراض، إذ كان المتعارف عليه أنَّ مثل تلك المصالح لا تُقْضَى إلا برشوة.

وما ذهب ذلك العميل حتى فتحت الدرج بلهفة، وأخذت الأوراق النقدية بين يديّ، وقبّلتها من الفرحة! لأول مرة أضُمّ بين راحتيّ مثل تلك "الثروة". أعماني منظر النقود وزاد جَشَعِي، فما مضى اليوم إلا وقد جمعت من كل العملاء مزيدا من الحرام، دون أن يعترض واحد منهم – سامحهم الله. ليتهم اعترضوا، ليتهم ذُغروني بالله، أو حتى رفضوا مطاوعتي. وكذلك يَسُود المُنكر حتى يصير عُرفا حين لا نَتَنَاهِي عنه.

يومها عدت لزوجتي أكاد أطير فرحا. وجلسنا نَعُد نقودنا تلك الليلة، وهي تزغرد في سعادة، بصوت خفيض لئلا يَحْسُدَنَا الجيران! وليت جَشَعَنَا توقف عند ذلك الحد، بل رحنا نرسم خططا لرفع ثمن الرشوة. ولم يمضِ عامٌ حتى صرت معروفا بين زملائي "بالداهية"، لَنَبَهَاتِي في جمع الرِّشَاوى! وصار كثير من الموظفين السُّدَج كما نسميهم، أو البريئين كما هي حقيقتهم، يأتون ليأخذوا مني "نصائح" في تحصيل الرشوة. (بيكي) ليتني اكتفيت برمي نفسي في النار، ولكنني كنت آخذ بأيدي هؤلاء المساكين وأرميهم معي. كنت أرى في أعينهم نظرات التردد التي كانت يوما في عينيّ، نظراتِ الحَمَلِ الوديع الذي لا عهد له بِجِيلِ الذئاب، نظرات يرتعش فيها بريق خوف من الله ورهبة انتهاك محارمه، لم يكن يلبث أن يتلاشى بجهودي "الجبارة" في إقناعهم، بأن هذه طريقة الأسماك الصغيرة للعيش في عالم الحيتان. (يتوقف ليلتقط أنفاسه وهو يستغفر)

- (تجلس حائرة لا تدري ماذا تقول، وتنظر إليه بتعاطف شديد)

- (يتابع) استمر بنا الحال على ذلك مدة عامين تقريبا، إلى أن جاءني يوما شاب، قد عَصَّه الفقر بأنياه حتى بدا ذلك جَلِيا في ملامحه وهيئة لباسه. رفضت بالطبع أن أؤدي له عملا حتى يدفع الرشوة، فما كان منه إلا حذق فيّ بذهول، ثم راح يعبث في جيوبه. وبعد جولات فاشلة في جيوب قميصه وبِنطاله، التفت إليّ بنظرات كانت كفيلة بتذويب جبال من الجليد، لكنها لم تؤثر فيّ على الإطلاق.

أخذ يرجوني ويستحلفني بالله، فأمه مريضة مرضا شديدا وتحتاج الأوراق لإتمام علاجها الضروري. ولكنني أبَيْتُ إلا انتزاع الحرام منه انتزاعا، فانتَهَرْتُهُ ورميت أوراقه في وجهه. وفي محاولة يائسة أفرغ لي جيبه، فتساقطت على مكثبي قطع نقدية قليلة العدد والقيمة. فلما رآني غير راضٍ بعد، خلع لي ساعته المتهالكة ورجاني أن أرضى، فليس يملك أكثر من هذا. وكان "قلبي" "رق" حينها، فأخذت القطع النقدية والساعة في درج مكثبي، ثم أمضيت له أوراقه.

فمد يده وتناولها مني، ولكنه قبل أن ينصرف، رمانني بنظرة لا يمكن أن أنساها ما حَيَّيت : نظرة المظلوم حين يظلمه أخوه، ويستبيح جَهَارا أكلَ لَحْمِه حَيًّا ؛ نظرة المستجير بالله ممّن لا يَهْزُه التخويف بالله. سرّت رَعْدَة

في جسدي من نظرتة تلك، ولم أستطع البقاء حتى نهاية العمل، فغادرتُ مبكراً.

عدت إلى منزلي، فإذا الجارات يستقبلنني بالعويل! وإذا زوجتي في المستشفى بعد أن أغمي عليها في أحد محلات تفصيل الملابس! أسرعَت إلى المستشفى وسألت عنها، فإذا الطبيب يخبرني أنه لا بد من عملية جراحية لاستئصال الرحم! لِثَوَانٍ حدقت فيه كالْمَخْبُولِ، ثم صرخت في وجهه غير مصدق: "إذن لمن كان كل هذا؟" لم يفهم المسكين معنى صرختي، وحسبني أهْذِي. أما أنا فقد مادت بي الأرض، وغشَّتني سحابة من الذهول والوُجُوم معا.

أبعد كل ما فعلته باسمهم لن يأتوا؟!!

لن أصير أباً؟!!

لن يكون لي أولاد؟!!

(يبتسم نادماً) ولم أدرك حينها كم أن الله رَأَفَ بهم فلم يجعلني لهم أباً، لأن مثلي لم يكن ليصلح لذلك، ولكنَّ تَمَادِيْتُ في الحرام باسمهم حتى تنبت أجسادهم من سُحت. (يسكت برهة ويعود فينكت الأرض بالعود معه، ثم يردِّف) تَمَّت العملية وكلفتنا مبالغ طائلة، التهمت نصف الحرام الذي ادخرته. وكأن المصائب لا تأتي فُرَادَى، فأصيبت زوجتي بعدوى

فيروسية إثر العملية، فأخذت أدور بها على الأطباء، وأشتري لها الأدوية حتى التهمت النصف الباقي من الحرام، واضطّررنا لبيع الأثاث الفاخر الذي اشتريناه للمباهاة، وقد كنا نجلس على الكراسي العادية فتكفينا ونجزي، لكنه الجشع وحب المنظرة والوجاهة الجوفاء.

ومع كل ذلك العلاج لم يكتب لزوجتي الشفاء تماما، فهي تقضي غالب الوقت في الفراش (يشير للبيت خلفه). وهكذا انتهى بنا المطاف كما ترين في بيت من الطوب، ونقتات من دخل المعاش الضئيل، وضاعت الشقة التي كنا نتدمر منها، والصحة التي أنفقناها في إغصاب الله. (يبتسم) وهذه قصتي!

- (تغمغم في ذهول وقد دمعت عيناها تأثرا) لا حول ولا قوة إلا بالله!

- (يبتسم ابتسامة الحزين) كان ما وقع - بحمد الله - كفيلا بردنا إلى صوابنا، وقد كانت زوجتي من شدة الندم تغض أصابعها حقيقة حتى أدمت كثيرا منها. وكان الله بنا رحيمًا إذ هدانا لهذا المكان الهادئ، فاتخذنا منه ملجأ وخلصنا لأنفسنا، حتى جاءنا ذلك الشاب جزاه الله خيرا.

- (باهتمام) أي شاب؟

- شاب من أولئك الذين ترينهم فتذكرين الله، وتشعرين بالأنس لهم، والألفة معهم.

- متى جاء يا عماه؟

- منذ خمسة أشهر تقريبا أو يزيد قليلا.

- (تغمغم سلمى في نفسها : وقت أن كان قاسم ما زال حيا!) (تنظر إليه في رجاء) حدثني بقصته معكم كاملة بالله عليك يا عمّي!

- لقد جلس معي كجلستك هذه، فرويت له قصتي، فبكى كثيرا وتأثر أيما تأثر، حتى شعرت أنه ولدي الذي لم أنجبه. ثم سألته عما جاء يفعل في مكان كهذا، فأخبرني أنه كان ينوي بناء مسجد في هذه البقعة (تتسع حدقتا سلمى في ذهول)، فسعدتُ بذلك لأنني كنت أدعو الله أن نُمضي - أنا وزوجتي - ما بقي لنا من عُمر في خدمة بيت من بيوت الله. ورجوته حين يبني المسجد أن يجعلني خادما فيه وقيما عليه، فوعدني بذلك. وها نحن ننتظره أن يفي بوعد.

- (تعض على شفتيها في أسى، ثم ترفع إليه عيني دامتيتين) وما أدراك أنه سيعود لي في بوعد.. لعله...

- (يقاطعها مبتسما في ثقة) لقد زارني أمس وطمأنني.

- (تنظر إليه مصعوقة!)

- (يبتسم) لقد رأيته في المنام، في مكان لم تقع عينا مخلوق على مثله في الجمال والنقاء، وكانت عليه ثياب خُضر تفوح منها رائحة المسك. سألته عن وعده، فقال لي إنه لن يرتاح قبل أن ينجزه بإذن الله، ولكنه سيرسل من ينوب عنه.

- (تنظر سلمى إلى الشيخ غير مصدقة) أمتأكد أنه هو؟

- (يومي برأسه) نعم.

- وقال إنه سيرسل من ينوب عنه؟

- (يومي مبتسما)

- (تشهق سلمى غير مصدقة وتسيل الدموع على خديها، فتخفي وجهها بين كفيها وهي تسبح الله)

- (يتحرك في جلسته كأنما يهْم للنهوض لمساندتها) ما بك يا ابنتي؟

- (تمسح دموعها وقد رأت ألا تترك لنفسها العنان أمامه) إنما تأثرت بقصتك يا عمي، فالحمد لله على توبتك. وتقلباً الدنيا مهما اشتدت، أهون من عذاب الآخرة.

- (يعود فيستقر في جلسته وهو يتأملها بقلق) نعم، صحيح.

- (تضع كوب الشاي جانبا استعدادا للنهوض) لقد أثقلت عليك يا عمي، جزاك الله خيرا على حسن ضيافتك (تمد يدها داخل الحقيبة، وتخرج بعض النقود، وتهم بوضعها أمامه) أرجو أن تقبل هذه الـ..

- (يقاطعها) لا يا ابنتي لا أقبل، الحمد لله على ما نحن فيه.

- (تنظر إليه برجاء) أرجوك اقبلها يا عمّ.

- (بحسم) لا يا ابنتي، الحمد لله، نحن في غنى عن الصّدقة.

- إنما هي هدية من ابنتك يا عمي ولك أن تصرفها بعد ذلك كيف شئت. لقد أسديت لي صنيعا الله وحده العليم بقدره عندي، فأستحلفك بالله الذي ترجو عفوه، أن تقبل مني ولا تردني خائبة!

- (يتردد لحظة وهو ينظر لعينيها المتوسلتين، ثم يمد يدا معروقة مرتعشة ويتناول لفة النقود) لولا أنك استحلفتني بالله ما كنت مددت يدي لها.

- (تنهض مغادرة، ثم تستدير فجأة كمن تذكرت أمرا) ما كان اسم ذلك الشاب يا عمي؟

- قاسم عبد الملك!

- يدخل الشيخ حسين بيته الصغير، ويتجه إلى حيث تنام زوجته.

- (يقترّب منها في ترفق) كيف حالك اليوم يا فتحية؟
- (تفتّح عينيها في تهالك) لقد سمعت حديثك معها يا حسين.
- (يجلس على كرسي أمام الفراش)
- أهي زوجة ذلك الشاب رحمه الله؟
- (يومئ برأسه) لقد عرفتها من وصفه لها، وتأكّد عندي ذلك من ردود فعلها.
- لقد أحسستُ بذلك أنا أيضًا. لماذا لم تخبرها أنك تعرف؟
- شعرت بأنها لا تود الكشف عن نفسها الآن، فلم أشأ التدخل في شؤونها.
- لا ريب أن فقدان زوج مثله ليس بالخطب اليسير على شابة مثلها.
- ولا ريب أنها هي من ستنوب عنه، كما وعدني.
- (تغمغم) الحمد لله. كنت أتمنى أن يتم بناء المسجد لأقضي فيه آخر أيامي.
- (يمد إليها يده بالنقود) لقد تركتُ لنا هذا.
- (تنظر إليها ثم تُشيع بوجهها) أبعدّها عني يرحمك الله.

- (في مرارة) الآن يا فتحية! وقد كنت من قبل...
- (تقاطعه باكية) لماذا تصر على تعذيبي بتذكيري بما كنت عليه قبلا؟ قد علمت أنني ندمت كل الندم، وتبت إلى الله وليس إليك! (تبكي)
- (يقرب الكرسي منها ويأخذ بيدها) سامحيني يا فتحية، والله ما قصدت ذلك.
- (تكفكف دمعها وتقول في أسي) لا لَوَم عليك في تأنيبي، فأنا التي ألقيت بك إلى التَّهْلُكَة.
- (يرفع يده داعيا) بل لنقل الحمد لله على ما نحن فيه من التوبة والإنابة، قبل أن يأتي يوم العَرَض على رب العالمين.
- الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه. (تلتفت إليه بعد لحظات صمت) ماذا تنوي أن تفعل بها؟
- (يطرق متفكرا، ثم تتهلل أساريره) سأشتري بها دارا!
- هل جننت يا حسين؟ إنها لا تكفي لتأجير شقة، فضلا عن شراء دار بأكملها!

- (يبتسم وتدمع عيناه في خشوع) إنها لا تكفي بمعايير الخلق، ولكنها تكفي عند الله البرّ الرحيم الكريم. سأشتري لنا بها دارا في الجنة يا فتحية!
- (ترفع حاجبيها في دهشة كأنما تدير المغزى في رأسها، ثم تبتسم في وهن وقد فهمت) ربح البيع وفاز المشتري، جزاك الله خيرا.
- ولكن..
- ما الأمر؟
- ألم نكن نحتاج لشراء الدواء لك؟
- لا تحمل هم هذا الآن، فقد أخذته قبلا ولم أجد منه ما كنت أرجو، وليس هذا ما سيزيدني عمرا فوق عمري، فلنتوكل على الله وهو حسبنا.
- لكن ينبغي أن نأخذ بالأسباب.
- فإننا نأخذ بها ولكن من طريق آخر. أنت معي تقوم على رعايتي - جزاك الله خيرا -، ومعاشك يكفي حاجتنا. وحولنا من الجيران من لا مُعِيل لهم ولا معاش، فهم أحوج منا للمال.
- (ينهض) كما ترين يا فتحية. سأمرّ على أسرة فلان وفلان أوزع المال ثم أعود. لن أتأخر عليك إن شاء الله. (يخرج)

- (تلبث يسيرا حتى تتأكد أن زوجها غادر، فتتنهد وتتلو الآية) "رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" [الأعراف : ٢٣].

- (يناولها مظروفا) وهذا من جارنا الحاج مسعد.
- (تضع المظروف في صندوق أمامهما، ثم تخرج من حقيبتها مظروفين) هذا من أم قاسم – رحمه الله – وأخواته، سلّمَنيّه هالة أمس. وهذا من مرام وحازم استلمته اليوم. (تتأمل ما تجمع في الصندوق مسرورة) ما شاء الله، التبرعات تنهال علينا يا أبي منذ أعلننا عن مشروع بناء المسجد.
- كما قال المصطفى – عليه الصلاة والسلام- يا سلمى، الخير في الأمة إلى يوم الدين. ولكن الناس يحتاجون لمن يرشدهم إلى وجوه الخير لإنفاق المال فيها، ولمن يأتمنونه عليها.
- (تتناول آخر مظروف لتضعه في الصندوق) وهذا ممن؟
- (يبتسم) أنا ووالدتك!
- (تقبّله مسرورة) جزاك الله خيرا يا أبي. (تلتفت حولها) صحيح، أين أمي؟

- (يضحك) مستمرة في حملات الدعاية والإعلان الحماسية بين الجارات، لطالما قلت إن ذلك هو مجالها الذي تبدع فيه.
- (تغمز مبتسمة) وذلك المجال هو الذي جذبك إليها فيما أظن؟
- (يتنحرج متحرجا في البداية) ما هذا السؤال يا بنت؟! (يبتسم ويردف في إعزاز) ليس ذلك المجال فحسب، أمك طراز فريد!
- (تصقق بيديها) الله! الله!
- (يشير لها بالهدوء) إياك أن تخبريها!
- اطمئن يا أبي، لن أنيس بكلمة!
- هذه فتاتي!
- لأنك من سيخبرها بذلك فور رجوعها!
- (يهم بالرد فتقبله على خده، فيبتسم راضيا) تعلمين أنني ضعيف المقاومة عندما تستعملين أسلوب الإقناع ذاك!
- (تضحك) نعم أعلم ذلك تماما أيها الحبيب الغالي.
- (يتأملها في حنان) الحمد لله الذي رد إليك بعضا من صفاء ضحكتك!

- (كأن عبارته أيقظتها من حالة السرور التي تملككها، فتقلصت ابتسامتها هؤنا ما)
- (يستدرك مغيرا الموضوع، وهو يخرج من جيبه مظروفا) بقي واحد أخير. (يناولها إياه)
- (تنظر بدهشة لرُزَمِ النقود داخله) ما شاء الله، تبارك الله، من دفع هذا المبلغ الكبير؟
- (يبتسم ابتسامة غامضة) فاعل خير!
- من يا أبي؟ قل لي بالله عليك!
- لقد استحلّفتني بالله ثلاثا ألا أكشف عن هُويته ولا اسمه، وإنما يرجو أن يكون ذلك صدقة جارية عن زوجته المُتَوَفَّاة – رحمها الله.
- (تتأمل حجم المظروف) رحمها الله وتقبل سعيه. (تضح المظروف مع البقية في الصندوق) إذن متى نبدأ المشروع؟
- (ينهض في حماسة) فورا إن شاء الله!

نزلت سلمى من سيارتها، ووقفت تتأمل البناء القائم أمامها. مضت ثلاثة أشهر والكل يعمل على قَدَمٍ وساق : سلمى وجيرانها، ومرام وزوجها،

وأخوات قاسم، حتى أهل الحي شاركوهم كلّ بما يستطيع، والشيخ حسين
أنهمك في خدمة المهندسين والبنّائين بنشاط منقطع النظير.

اتجهت إلى حيث وقف أبوها، يناقش كبير المهندسين في النقوش
الخارجية. فلما أتما حديثهما، التفت والدها إليها :

- أخيرا، ها أنت يا سلمى!
- أحضرت معي الشاي والغداء للعمّال، كما طلبت يا أبي.
- حسنا فعلتِ، لكنني أودُّ رأيك في أمر أولا. (يأخذها إلى مجموعة صناديق
رُصّت فوق بعضها)
- (تفتح سلمى أحد الصناديق ثم تهتف مسرورة) مصاحف! (تتناول إحداها)
ما شاء الله! ما أجملها يا أبي! وما أكثرها! متى اشتريتها؟
- لم أشتريها، إنما جاء بها فاعل خير.
- (تنظر لوالدها متساءلة) أهو هو؟
- (يبتسم) نعم، هو هو.
- أما زال يصبر على كتمان هُويته؟

- تعلمين يا سلمى ليس هذا مجال الاستعراض، إنما كل يداري على خَبِيئَتِه ليلقى الله بها نقية خالصة.
- (تطرق مفكرة) صحيح. (تلتفت لوالدها) متى يكتمل البناء في تقدير المهندس؟
- إذا ضاعفنا الهمة، سيكون مسجد القاسم جاهزا بإذن الله في غضون شهر بالتمام. وسيؤذن فيه الشيخ حسين إن شاء الله.
- (تنظر لوالدها مندهشة) مسجد القاسم؟
- (يكرر مبتسما) مسجد القاسم!
- (تحتضنه مسرورة) اسم رائع! جزاك الله خيرا يا أبي.
- (يحتضنها بدوره) يدهشني أنك لم تسبقيني إليه!
- (تتأمل المسجد طويلا ثم تقول) لا أدري يا أبي، لكن لطالما داخلني الشعور بأنه.. حقا مسجد القاسم.. بحيث.. بحيث بدى لي الاسم من البداية بمكان.. فلم تخطر لي مطلقا إشكالية التسمية! (تنظر لوالدها مبتسمة في حرج) كلام لا معنى له! أليس كذلك؟!

- (يربت على كتفها متفهماً في حنان) بل إنني أفهمك يا ابنتي الحبيبة.
رحم الله الغالي قاسم وتقبّل العمل في ميزانه وميزاننا، الحمد لله أن
المسجد قارب على الاكتمال.
- (تنظر مسرورة ناحية الشيخ حسين، الذي انهمك في التردد بين العمال
يعاونهم) الحمد لله رب العالمين.

ومضت الأيام تترى كَنَفَحَات النسيم العليل حتى اكتمل بناء مسجد
القاسم. وتقاطر سكان الحي من كل حَدَب وَصَوْب، على صوت الشيخ
حسين يؤذن بصوت عذب.

وقفت سلمى بين نساء الحي، مع أمها والحاجة فتحية، وأم قاسم وأخواته،
في صفوف متراسة سواسية أمام الله تعالى.

وكبّر الشيخ حسين، وكبّر المسلمون خلفه، وارْتَجَّت الجُدُران كلها في
رهبة مع ارتفاع أصوات التكبير، وَصَدَحَت الطيور مُسَبِّحة بحمد الخالق
الذي خشعت له الأصوات، وانحنت له الرقاب، وسجدت له الخلائق.
وَعُمِّرَت الأرض القفر ، بخطوات المصلين المشائين لمسجد القاسم،
وظلالهم بالغُدُو والآصال.

فبذا تحقق لقاسم رجاءه الثاني بتوفيق الله. وإن كان السعي قد انقطع به
حتى حين، فما قطع الله عنه الثواب إلى أجلٍ هو بالغه.
وكذلكم يتولّى الله الصادقين.

مكالمة هاتفية !

- (تقطع ورقة من نتيجة الحائط) تصوّر يا أبا سلمى! انقضت تسعة أشهر منذ وفاة قاسم وعودة سلمى إلينا.
- ولكنني أرى حزنها لم ينقض بعد.
- (تتنهد) صحيح، لقد صارت أهدأ الآن، خاصة بعد بناء المسجد. ولكن نظرة الانكسار تلك لا تكاد تفارقها، وكأنني بها تغمس نفسها في المشاغل لتتلهى بها عما تقاسيه.
- وإنّ ذكرى مثل قاسم لجديرة بأن تظل حية في قلوبنا جميعا. (يطرق الحاج عادل في شيء من التأثر) يرحمك الله يا أخي عبد الملك، كان ابنك خير خَلَفَ لخير سَلَف.

- (تنظر الحاجة فاطمة لزوجها بتعاطف، وكأنَّما ساءها إشاعةُ جَوِّ الكآبةِ هذا) هَوْنٌ عليك يا أبا سلمى، إنما واجبنا أن نخفف من حدة الكآبةِ هذه لا أن نزيدها، ونحتسبهم عند الله من أهل الجنة برحمته .
- صدقت يا فاطمة، نحتسبهم عند الله من أهل رضاه. (يرفع يديه داعيا لهم بالرحمة والمغفرة، وزوجته تؤمن على دعائه، حتى إذا فرغا، حانت منه نظرة إلى الساعة) تأخرت سلمى في الاستيقاظ اليوم.
- لقد أرقّت البارحة كذلك. استيقظتُ قبل الفجر، فألفيتها جالسة تقرأ في القرآن.
- أسأل الله أن يبارك لك يا سلمى، ويفرّج كربك عاجلا غير آجل.
- اللهم آمين. أتعلم يا أبا سلمى أن.. (يقطع حديثهم رنين الهاتف، فتنهض الحاجة فاطمة لترد عليه)
- السلام عليكم.
- ...
- أهلا، أهلا يا هالة..
- ...

- اليوم؟ والله توقيت ممتاز، ستسعد سلمى كثيرا. لا أبدا.. نعم، سنكون في الانتظار على أحرَّ من الجَمَر. (تضع السماعة، وهي تبتسم لزوجها).
- من يا فاطمة؟
- هالة أخت قاسم يرحمه الله. ستأتي هي وأولادها وأختها لزيارتنا اليوم.
- عظيم، ستفرح سلمى كثيرا.
- (تتجه ناحية الدرج)
- إلى أين يا فاطمة؟
- سأذهب لأوقظ سلمى، لتستعد للقائهم.
- دعيها تنم قليلا.
- بل أوقظها الآن أفضل لئلا تَأْرَق ليلا. (تصعد إلى غرفة سلمى).

- "سلمى. سلمى. استيقظي يا حبيبتي، أخوات قاسم سيأتين لزيارتنا".
- ما إن لامس اسم "قاسم" أذنيها حتى انتفضت سلمى، وقالت لأمها كالحالمة في سعادة: "قاسم؟!"
- استدركت أمها في شفقة: "أخواته يا حبيبتي، بناتٌ عمك".

- غَاصَتْ ابتسامة سلمى قليلا، وإن سَرَّها الخبر، وردَّت في نصف يقظة:
"حقا؟ أمهليني بضع دقائق وسأنهض يا أمي". قبلتها أمها على جَبْهتها، ثم
خرجت وأغلقت الباب.

عادت سلمى تريح رأسها على وسادتها، وقد تناثرت خُصَلات شعرها
الطويل عن اليمين والشَّمال، وابتسمت في حنين. كانت زياراتهم تسعدها
كثيرا.

وكذلك كانت تحب كل ما يذكرها به.. قاسم!

كانت الساعة تشير إلى التاسعة ليلا، حين انصرفت أخوات قاسم وأولاد
هالة، وانشغلت سلمى مع أمها ترتبان ما بعثره الصغار.
رن جرس الهاتف، فصاح بهما الحاج عادل: "أنا سأرد".

- السلام عليكم

- ...

- بالطبع أذكرك..

- ...

- نعم، لقد تمّ بناء المسجد، جزاك الله خيرا.

- ...

- لا، لا تقلق. سرك محفوظ.

- ...

- (يتلفت حوله ليتأكد ألا أحد يسمعه) انتظر لحظة. (يأخذ الهاتف،

ويدخل حجرة المكتب، ويغلق الباب عليه) تفضل الآن، نحن في أمان!

مضت نصف ساعة، والحاج عادل يتحدث على الهاتف، وملامح وجهه
تتردد بين التجهّم والتفهم. وأخيرا أنهى المكالمة، ومضت لحظات صمت
وهو يفكر، ثم غمغم بعد بُرهة : سبحان الله! "وكان أمر الله قَدرا
مَقْدُورا"[الأحزاب : ٣٨].

كانت سلمى جالسة تقرأ في كتاب انتقته من مكتبة والدها، حين طرقت
أمها الباب، وأطلّت برأسها بإطلالتها المعهودة، فابتسمت لها سلمى،
ودعتها للدخول.

- أسمحين لي أن أحادثك قليلا يا حبيبتي؟

- (تنهض وتجلس إلى جانب أمها) بالتأكيد، تفضلي يا أمي.

- (تنظر لسلمى مبتسمة في ارتباك، كأنما لا تدري كيف تبدأ)
- (تضحك وهي تحتضن أمها) لا تتعبي نفسك في البحث عن مقدمة أيتها الحبيبة، إلى الموضوع مباشرة!
- (تحتضنها، وتُرَبَّت على شعرها الأملس الطويل) أرحتني من همٍّ كبير يا ابنتي! (بعد لحظات صمت) بالأمس جاءتنا مكالمة هاتفية مهمة.
- ممن؟
- (يبدو عليها التردد) من شخص نعرفه!
- ألا وهو؟
- (يزداد ارتباكها وهي تنظر لسلمى في ترقب) إنه.. إنه.. من معارفنا!
- (متعجبة) ما أكثر من نعرفهم يا أمي، كيف لي أن أخمن؟
- حسنا إنه.. إنه..
- ؟؟
- (تعض على شفتيها في قلق) لا أدري ماذا أقول!
- (تنظر لوالدتها، وعَجَبُها يزداد) قللي اسمه يا أمي!

- (تأخذ نَفْسًا عميقًا، ثم تلقي بالاسم كأنه قنبلة مندفعة من فَوْهَةٍ مَدْفَح) أحمد!
- (دون أن يبدو عليها التأثر) أحمد؟
- نعم، أحمد زوج صفاء، عرف بما حدث لقاسم، وهو يرسل إليك تعازيه.
- (تسكتُ هُنيهة ثم تغغم) أردتُ أن أخبر صفاء منذ فترة، لكن لم أشأ أن أشركها في أحزاني وأفسد عليها فرحتها بوليدتها. كيف حالها الآن؟ وكيف طفلتها؟
- (يبدو عليها الوجوم) سمّية عمُرها الآن ستة أشهر.
- (في شيء من الدهشة المسرورة) ما شاء الله، ستة أشهر؟ كم مضى الوقت سريعاً! شغلني عنها ما كنتُ فيه من خُطوب. لمَ لمَ تبلغيني أمس لأحدثها وأهنئها؟
- الحقيقة.. الحقيقة يا ابنتي أن.. أن..
- (تتأمل ملامح أمها في قلق) ما الأمر يا أمي؟ إنك تخفين عني شيئاً.
- الحقيقة.. إنها..
- ما بها صفاء يا أمي؟

- لم يكن حملها مستقرا.. كما تعلمين.. خاصة بعد وفاة والدتها لمياء..
لقد.. (تنظر لسلمى نظرة ذات مغزى)
- (تشهق في ارتياح) لا! لا! لا تقول لها يا أمي!
- (تسكت في تَهَيُّب)...
- (تسارع الدموع لعينيها) هل.. هل..
- (تومئ في أسى) نعم يا ابنتي، لقد تُوفيت بعد الولادة بشهر! (تشهق
سلمى غير مصدقة) كانت مريضة ومجهددة طوال فترة الحمل كما
تعلمين، ثم زاد مرضها شدة وفاءً أمها المفاجئة، فتدهورت صحتها
ولم تتحمل، يرحمها الله!
- (في ذهول) يرحمها الله؟! صفاء؟!
- (تضع يدها على يديها الباردتين) استرجعي الله يا ابنتي، وادعي لها
بالرحمة.
- (تتطلع لأمها لحظة غير مصدقة، ثم يزيغ بصرها وهي تردد في صدمة)
يرحمها الله؟! صفاء؟! صفاء ماتت؟
- (تحتويها أمها بذراعيها في لوعة) تعالي يا ابنتي، تعالي في حضني!

- (تُسَلِّم نفسها لذراعي والدتها وهي بعد في صدمة) صفاء ماتت؟ صفاء رحلت دون أن أعلم؟! كان يجب أن أكون إلى جانبها! خذلتها! خذلتها! سامحيني يا صفاء! كيف شُغلت عنها؟! كيف تركتها ترحل دون وداع؟! (تدفن وجهها في حضن أمها أكثر وهي تجهش ببكاء مرير)
- (تحتضنها وهي تشاظرها البكاء) إنا لله وإنا إليه راجعون!

واحرّ قلبك يا سلمى!

ركب الأحبة يتساقط من حولها كأوراق الخريف، يغادرونها واحدا تلو الآخر، ويتركونها من بعدهم نهباً لكل تلك الأوجاع وكل ذلك الألم. فإلى جانب وَجَع الفراق، كان وجع الألم نفسه، من حيث ثقل وطأته وطول إقامته وتبّعات وحشته.

وللمرة الثالثة تتقلّب سلمى في فراشها تقلّب المحموم، دون أن يطرف لها جَفَن. الأولى، ليلة نبأ زفاف صفاء لأحمد. والثانية، ليلة وفاة قاسم. وهذه الثالثة، ليلة نعي صفاء. وفي كل ليلة، كان لسانها لا يفتأ يلهج بقول "إنا لله وإنا إليه راجعون".

وبقدر ما كان تردد الذكر يسيرا على اللسان..

كان التحقق به صعبا على الجنان..

وما الصبر إلا بالله.

(الحاج عادل جالس تبدو عليه أمارات التفكير، والحاجة فاطمة تذرّع الصالة جيئةً ودّهابا)

- إلى متى تنوي أن تكثّم عنها الأمر؟
- إلى أن تلتقط أنفاسها من الصدمة الأولى يا فاطمة.
- ومتى تنتهي من التقاط أنفاسها في رأيك؟ مضى أسبوع بكامله وقد انتكست حالتها وعادت لنوبات الأرق والغرق في البكاء .
- لا تلحّ يا فاطمة، علينا اختيار الوقت المناسب.
- سبحان الله! أما إن أمرك لعجيب! عجّلت بإخبارها عن صفاء، والآن تطلب التمهّل في ما يفرحها؟
- (يتنهد) وما يدريك أنه يفرحها وهي وسط كل هذه الأحزان؟
- (تغمغم) لكنها سنة الحياة..

- (يزفر في ضيق) سنة الحياة يمكنها أن تنتظر! صبرا يا فاطمة، ألا ترين أن أعصابها مستَفَرَّة الآن؟
- ولكن..
- (يقاطعها بصبر نافذ) كفي عن الإلحاح يا فاطمة!
- (في عناد) لكنني أمها!
- (في حِدَّة) وأنا أبوها! والآن كفى!
- (تنهض) إذن سأذهب وأصارحها بنفسي!
- تصارحينني بماذا يا أمي؟ (تظهر سلمى واقفة على السلم، وقد أخرجها من غرفتها علو أصواتهما وحِدَّة نقاشهما، فيلوذان بالصمت وهما يتطلعان إلى تلك الزهرة الذابلة. ينظر الحاج عادل لزوجته نظرة ذات مغزى، فتصرف بحجة إعداد الشاي، ويأخذ الحاج عادل سلمى معه إلى غرفة المكتب)
- تعالي يا ابنتي، تعالي اجلسي بجانبني (تجلس) الحقيقة أننا أخفينا عنك طَرَفًا مما قاله أحمد، حتى تتقبلي نبأ وفاة صفاء – رحمها الله – أولاً.

- (في نبرة حزينة، كأنما لا يعنيه ما بعد وفاة صديقتها) وماذا بقي بعد قاسم وصفاء؟
- (يتأملها متعاطفاً، ويسكت متردداً إثر تلك النبذة)...
- (تنظر لوالدها مستفهمة) ما ذاك الطرف يا أبي؟
- (يمرر كفه على جبهته ويتنحى كأنما يبحث عن العبارة المناسبة، ثم يحسم أمره ليقول في إيجاز) : أحمد يطلب الزواج منك يا سلمى!

أَغْصَانُ وَدٍّ وَظِلَالُ وَفَاءٍ

- (تنظر له مستنكرة) أتزوج أحمد؟
- (يزدرد ريقه في تردد، وقد فاجأته نبرتها) وماذا في ذلك يا ابنتي؟
- (تدمع عيناها في غضب) أيفكر في الزواج ولم يمض على وفاة صفاء سوى بضعة أشهر؟
- تمهّلي يا ابنتي ولا تُسيئي الظن بالشاب، فوالله ما علمته إلا صادقاً في حديثه. الحاصل أنه حاول مرارا الاتصال ببيتكم حين تدهورت حال صفاء بعد الوضع، غير أن أحداً لم يجب. وحين عرفت صفاء من صديقة لكما بنبأ وفاة قاسم، طلبت منه كتمان خبرها عنك، لئلا تُورثك غمّاً فوق غم. ولكنها لم تلبث يسيرا حتى توفيت. فرأى زوجها أن ينتظر حتى تنقضي عدّتك أولاً، ويخفّ حزنك ثانياً، ثم...

- (تتمتم في مرارة و دموعها تهطل) ثم يضرب عصفورين بحجر واحد
ثالثا! أليس كذلك؟! يُعزِّيني ثم يَخْطِبُنِي!
- (في دهشة) أما إن أمرك لعجيب! تتهمين الرجل جُزَافا كأنك لا تعرفينه،
وأنت التي كنت تُشيدين به وبخُلُقهِ أيام كان أستاذك في الجامعة!
- (تلوذ بالصمت، وتعض على شفتيها في غيظ مكظوم)
- (في رفق) هَلَّا صبرت يا بُنَيَّتِي حتى أنهي حديثي، ثم تحكمين بما تَرَيْن؟
لقد كانت صفاء هي التي أوصته بذلك، وهي على فراش الموت. ووالله يا
ابنتي لو سمعت نبرته الكسيرة وقد خنقتها العَبَرَات، وهو يقص علي ما
حدث معه، لَرَجِمْتِهِ وتيقنت نُبل مراميه وصدق معاناته. لقد ظلت صفاء
تردد في اللحظات الأخيرة وهي تحتضن طفلتها : "سلمى سترعاها،
سلمى سترعاها!"
- (تدمع عيناها) أختي صفاء..
- خذي وقتك وفكري في الأمر.
- أتزوج بعد قاسم؟ أتزوج على صفاء؟ كيف تريدني أن أفكر في مجرد
احتمالية هذا يا أباي؟!

- ما الذي تقولينه يا سلمى وأنت المؤمنة العاقلة؟! إنها سنة الحياة يا ابنتي. ثم أتحسبين أن لو كان قاسم على قيد الحياة لسره أن يراك هكذا كزهرة ذابلة؟ أليس هو من أوصاك بالزواج من بعده، حين تمنى أن تنجبي طفلا يشبهك ...

- (تقاطعها وهي تخبئ وجهها بيديها) كفى يا أبي، أرجوك!

- (يقترّب منها مربتا على كتفها) سامحيني يا ابنتي، سامحيني، لقد شَطَطْتُ بعيدا. (في قرارة نفسه : وأنا الذي كنت ألوم فاطمة على زَلَّاتِ لسانها!)

- (تنهض سلمى باكية) أريد أن أختلي بنفسي يا أبي، بعد إذنك! (تخرج سلمى، وتدخل الحاجة فاطمة في إثرها غاضبة)

- وتعيّب عليّ أنني لا أعرف لكل حال مقالها!

- أرجوك يا فاطمة، يكفيني ما أنا فيه من الغم.

- ألم نجد معا أمس ما سنقوله لها؟

- بلى، والله! غير أنني ارتجّ علي من ردودها العجيبة تلك!

- أنا سأفاهم معها. (تَهْمُ بالخروج فيستوقفها) ..

- دعيها لتخلو بنفسها قليلا، ثم اصعدي إليها.

- (يبدو عليها الاقتناع، فتجلس إلى جانبه واجمة) .

ما الذي دهاك يا سلمى؟

ألم يكن هذا أحمد الذي حملت له في قلبك ما تحمله الفتاة لفارس أحلامها؟ ألم تكوني تسمعين اسمه يوما فتختلج لذكره كل ذرة في كيانك؟ ويمر طيفه على خيالك فيبتسم له قلبك؟ فلماذا حَمَلْتِ عليه فجأة؟ ولماذا لم يعد اسمه يثير في داخلك نفس المشاعر، ولا يُوقِع في أذنك ذات الرنين؟ بل إن خاطر الزواج منه لم يخطر لك على بال، حتى بعد أن علمت بوفاة صفاء!

أهي هيبة الأموات التي تجعل لهم معزة أكبر من الأحياء؟

أم أن قاسما تمكن من قلبك بعد مماته، ما لم يتمكنه في حياته؟!

لم يكن ما جمعها به مجرد عاطفة قرابة أو هوى عابرا، بل كان شيئا أعظم من حرارة عاطفة وأبقى من نسيمات هوى. إن ما جمعها به كان ميثاقا غليظا، مُكَلَّلًا برباط رحمانيّ أضفى القُدْسِيَّةَ على كل ما شملهما، حتى ذكراه. ولذلك كانت في قَرَارَةِ نفسها تتحاشى الاتصال بصفاء منذ وفاة قاسم، متعللة أن انشغال صفاء بطفلتها لن يشعرها بانقطاعها عن

التواصل معها. لم تكن تريد شفقة أحمد عليها ولا تعاطفه معها، ولا أن يأسى عليها أو يحسب أنها شقيت من بعده.

إيه يا أحمد!

أكان اضطرابها حين يُذكر أمامها اضطراب قلب أم اضطراب قلق؟ لقد أحبتّه حقاً وصدقاً، ولو عاد الزمن بها إلى الوراء لما ارتابت في ذلك. لكنها الآن لا تدري! أتراها تلك القدسية التي تحفظ حلال الحب من الاندثار؟ أتراها المودة والرحمة اللذان يضمنان له الخلود؟ قد تمنّته حيناً بالحلال، ورأته في أحلامها يعقد عليها بذلك الرباط، فلما آل لغيرها تجرّد حبها من طهره، ولم يعد يربطه بأسباب الحياة شيء..

فمات..

لكن.. أحقا "مات" ما كان بينهما؟

إنها تجول في ثنايا قلبها بحثاً عن جواب فلا تجد إلا كما يجد المنادي من رَجَح الصدى في الفيافي. ذكرى قاسم وصفاء يقفان سدا منيعا بين قلوبهما، وكذا يخلد الأموات ذكراهم بما يبنون من حوائل بين الأحياء.

سبحان الله! سبحانك ربي يا مقلب القلوب!

سبحان من خلق تلك العواطف، تلك المشاعر الدفيئة التي لا نحيط لها
بلمس ولا نقف لها على كُنْه، لكنها أحلى وأمتع وألذ من كل ما نلمسه
وندركه بالحواس.

وأي عالم ذاك هذا القلب؟! سبحان من أبدع تلك المضغة لتسع كل تلك
الأحاسيس الإنسانية والتقلبات العاطفية والجيشان الشعوري! وسبحان
من جعل لها الاجتماع بالحلال مصرفاً، وجعل ما سوى ذلك يتلوث بدَنَس
الهُوان، ويجر أذيال المذلّة، ويتلظى بلهب التوجس، لينتزع منها لذتها!

احتوت سلمى رأسها بين راحتيها، وشعرت برغبة عارمة في البكاء، غير أنها
لم تجد من الدمع ما يجيبها، فاككت برقعة حارة، تبعها طرق على الباب.
دخلت أمها وتأمّلتها في صمت هنيهة، ثم قالت في أسى :

- وبعدُ يا سلمى، لماذا تعذبين نفسك كل هذا العذاب يا ابنتي؟
- (تخفي وجهها بكفيها) لقد شلّ تفكيري يا أمي، لم أعد قادرة على التحمّل.
- هذا طبعي يا ابنتي. مضت قرابة العام وأنت بين تألم وبكاء.
- (تتمتم) قرابة العام؟ كأنهما غادرا بالأمس فحسب.

- (تجلس إلى جانبها) الموت يا ابنتي راحة للمؤمن، ولكن الحياة كذلك أمانة لمن مُنِحها. لقد مَدَّ الله تعالى في عمرك بحكمته، لا لتُمضي ما بقي لك تعيشين بجسدك هنا وروحك هناك، بل لتستمري في الحياة رَغْمَ الخُطوب، وتَثْبُتي في وجه النائبات مستعينة بالله. قد نَفَذَ قضاء الله في الأموات وسينفذ في الأحياء بدورهم، فاعملي لمثل ذلك اليوم، بأن تعيشي أيامك التي كُتبت لك على ما يرضي الله.

- (تتحدّر دموعها ويتهدج صوته) صدقيني يا ابنتي، إنني لا أَتَخَيَّلُ نفسي مكانك وقد فقدت زوجي إلا ويكاد قلبي يتمزق لوعة. وهذا لمجرد التخيّل، فكيف بك تعيشينه ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم وشهرا بعد شهر! إنني وأبوك نقدّر حقا ما تقاسينه يا بنيتي، بل نقاسي ضعفه وأنتِ بضعة منا.

- ولو تدركين كم يضرّني مرآك على هذه الحال، وتؤلّمني عبارات التعاطف والتعازي من بنات الجيران اللواتي تزوجن وأنجن، ولا يفتأن يتحدثن عن "أرملة الحي"، وأنت بعد في ربيع العمر وريحان الشباب. فإلى متى تقبعين في هذه القوقعة يا بنيتي، أصلح الله بالك؟ إلى متى تتشاغلين بالهروب عن مواجهة ما ليس منه بدّ آخر المطاف؟ إنما جُعِلت الحياة للأحياء، وللأموات ذكراهم. لكن ذكراهم لا ينبغي أن تصير الحياة التي تعيشين فيها ما بقي لك من عمر.

- (تطرق ساكتة، فتطرق سلمى معها ولا ترد. وبعد قليل تردف معتبرة سكوت سلمى إقراراً بالمُضيّ) وفكري في ذلك المسكين الذي رحلت زوجته تاركة في عنقه أمانة، هي أثقل من أن يحملها وحده وإن ساعدته أمّه بما تستطيع، حتى إنه كاد يستقيل من عمله تحت وطأة ما نزل بساحته من خطوب، لولا أن إدارة الكلية تفهمت موقفه ومنحته إجازة مفتوحة ريثما تستقر أوضاعه، كما أخبرني أبوك. وفكري في تلك الطفلة المسكينة، التي تفتحت عيناها على حياة لا تسعد فيها بطلعة أمّ تحنو عليها! (تزداد دموعها انهماراً) فكري فينا كما تفكرين فيهم يا سلمى، فذلك أجدى لك ولنا ولهم!

- (تنظر إليها برجاء وتشد على يديها) أرجوك لا تبكي يا أمّاه فتزيديني غما فوق غم..

- (تكفكف دموعها بصعوبة) لأجل خاطري أنا يا سلمى، اقبلي ولو أن يأتي لزيارتنا غدا لتحديثه، ونرى وقتها إن كان سينشرح صدرك للأمر أم لا.

- (في تردد قلق) يزورنا غدا؟! بهذه السرعة؟

- (تسترد نبرتها الحماسية) خير البر عاجله يا حبيبتي، ثم إن ذلك أسرع لقطع الشك باليقين!

- ...

- (كأنما تذكرت سرا خطيرا) أتعلمين يا سلمى من صاحب التبرع الضخم وصناديق المصاحف؟
- (ترفع رأسها في دهشة) أهو أحمد؟!
- (تومئ في سعادة) هو بنفسه! لقد سمعت حوارهم مع والدك مصادفة، وقد استحلف والدك ألا يخبر أحدا، خاصة أنت (تغمز) لكنني في حلٍّ من قَسَمه!
- ...
- أرايت كيف كان وفيا لزوجته حين نوى ذلك صدقة عنها؟ ولكن وفاء لها لم يمنعه من التقدم للزواج بعدها.
-
- هيا يا سلمى، لأجل خاطر أمك!
- يا أمي..
- لأجلي أنا يا حبيبتي!
- ولكن..
- أرجوك، لا تردي رجاء أمك! (تقبلها)

- (تطرق احتراماً لأمها، ثم تومئ برأسها موافقة وتهم بالكلام)...
- (تقفز خارجة من الغرفة مكتفية بالإيماءة دون أن تنتظر الرد، وتنادي على زوجها) يا أبا سلمى! يا أبا سلمى!
- (يسرع من غرفة المكتب بالدور السفلي فزعا) ماذا جرى لسلمى؟
- لقد وافقت!
- (في عتاب غاضب) أفزعتني يا فاطمة! سامحك الله!
- (تهبط الدرج جرياً وهي تلهث) بسرعة! هاتِ الساعة! اطلب الرقم (تجري نحو الهاتف).
- (يلحقها عند الهاتف) أحقا وافقت؟
- (في زهو) بالتأكيد! ما زال لي سحري الخاص!
- (يفرقع أصابعه في سعادة) هذه فاطمتي، ويا زين الفواطم!
- (تطلب الرقم المدوّن قريبا من الهاتف) سأحدثه قبل أن تغير رأيها!
- بل سأحدثه أنا!
- (تستمر في ضغط الأرقام بسرعة) لا! بل أنا!
- أنا ولي أمرها!

- (مسترسلة في حماستها) وأنا ولية أمرها! أنا من أقنعتها!
- فاطمة!
- (تناوله السماعة في لهفة) هَاكَ ولا تغضب، كنت أمارحك! (يتناول السماعة وتقف هي وراءه تبتهل في سرّها) يا رب لا تخذلني، يا رب فليرد بسرعة قبل أن تغير رأيها! (تلتفت لباب غرفة سلمى في قلق، ثم يرد أحمد فتتنفس الصعداء، وتلصق أذنها بالسماعة مع زوجها!)

"إنما جُعِلت الحياة للأحياء، وللأموات ذكراهم. لكن ذكراهم لا ينبغي أن تصير الحياة التي تعيشين فيها ما بقي لك من عمر". تقلّبت سلمى في فراشها عدة مرات، وصدى تلك الجمل لا يتوقف عن التردد في أذنيها. ألّهذه الدرجة عَرِقَتْ في أحزانها حتى لم تعد تشعر بغرقها؟ أحقا استحوذ عليها الألم حتى صار جزءا من كيانها، فلا تشعر باستحواذه؟

ولا يزال الإسراف في الحزن بصاحبه حتى يصير له الداء والدواء! فلا يرى أنه مريض ولا يشعر أنه مُعافى! ويصبح ذلك الحزن الصامت كالبركة الرّاكدة، تَسْتَشِيرُهَا نَسَمَات الصّباح وعاتيات الرياح على السّوء، فكلما حَسِبَهَا صاحبُها تلاشت، عادت بين الفَيئة والفينة تذكره بوجودها، وتحرمه التمتع بالمتاح من سائخ المياه.

ألم تحتسب و تصبر قدر استطاعتها؟

بلى!

إنها لم تسخط يوما على مشيئة الله، يوم أن كُتِبَ لحبها الانفصام، ثم يوم أن كُتِبَ لزوجها أن يسبقها إلى دار السلام. كانت تؤمن بالقدر خيره وشره، وبحكمة الله وإن خَفِيت عليها الأسباب. وقد استرجعت سلمى عند رحيل قاسم، وطابت نفسها عنه بأنه في حال أحسن من حال أهل الدنيا. غير أنها لم تزل تذكره، فتدمع عيناها لذكراه، ويثقل قلبها لذكره.

وكذلكم نُسَلِّم بمشيئة الله ونصبر على تصارييف القدر، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، دون أن يمنح كل ذلك دمع العين وحزن القلب. فإِنَّمَا هذا طبع الفراق، يظل ألمه مؤلما، وذكراه محزنة، وإن اكتسى بالرضى والتسليم. وكذلكم يَمْضِي العُمْرُ بالمسافرين، كلٌّ إلى أَجَلٍ هو بالغه، ومستقر هو خالد فيه. فطوبى لعابر سبيل استزاد بما خَفَ حِمْلُهُ وغلا ثمنه، ولم يُذهله التوجُّع على من طواه الغياب عن التزود لما يصير إليه من نفس المآل.

ناء كاهلا سلمى أخيرا بحملهما من تلك الخواطر المتلاطمة، فقامت تتوضأ لمناجاة ربها، ليكشف عنها ما حَلَّ بها من كَرْب. ومضت تدعو الله أن يلهمها رشدًا وَيَقِيَّهَا شر نفسها، ويشرح صدرها لما يحبه تعالى ويرضاه.

وما زالت تدعو وتصلي، حتى غلبتها عيناها قُبَيْلَ الفجر، فنامت جالسة في مصلاها. وما راعها إلا نهنهة خافتة أيقظتها. التفتت حولها وإذا بامرأة تبكي، عليها ثياب بيض، وبين يديها شيء كالكرة الصغيرة ملفوف بعناية. اقتربت منها سلمى، فإذا بها صفاء!

- (مندهشة) صفاء؟! ماذا تفعلين هنا؟
- (تنظر إليها بعينين دامعتين ولا تجيب، ثم تعود لبكائها وهي تحتضن اللفة الصغيرة)
- (تقترب منها وتربت عليها في حنان) ما بك يا صفاء؟
- (تشير للفة الصغيرة في حجرها، فإذا هي طفلة رضيعة) لم أجد من يحملها عني، وأنا تعبت من حَمَلها!
- (تأخذها منها) هاتي ولا تبكي يا صفاء، أنا أحملها عنك.
- (تناولها إياها بسعادة) عرفت أنك لن تَحْذُليني يا سلمى!
- (تحمل الطفلة وتتشاغل بملاعبتها، ثم تلتفت فإذا صفاء قد اختفت) صفاء؟ صفاء! أين أنت يا صفاء؟! (تستدير بحثا عنها، فترد مصعوقة حين ترى أحمد واقفا خلفها يمد لها يده!)

انتفضت سلمى لاهثة، ونظرت حولها، فإذا هي لا تزال جالسة مكانها،
وصوت المؤذن الرَّخيم يشق سكون الظلام. بقيت ساكنة في مكانها تتفكّر
فيما رأت، بينما راحت خيوط القمر التليدة تتسلل خارجة من النافذة
على استحياء، لتفسح المكان لزميلاتها خيوط الشمس الوليدة.

شعرت سلمى بالنور يَكْتَنِفُ قلبها، فيُنِيرُ خلجاته، وكأن الله قد ربط على
قلبها لِيَسَعَ الوفاء القديم والحب الجديد، كما تَجْمَعُ خيوطُ الفجر أواخر
الليل وأوائل النهار .

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ * وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلٌ

[سعيد بن حميد]

دموع الفرع !

وضعت سلمى اللّمسات الأخيرة على حجابها، ووقفت تتأمل منظرها في المرأة. كانت تلبس فستاناً فضفاضاً من القُطيفة، ذا لون أزرق داكن، يتدلى منه عن اليمين والشمال وردتان مثبتتان بشرائط الستان، واختارت حجاباً أبيض فكللها حين ارتدته كهالة من النور، وبدت في هندامها الأخير مشرقة بهيّة، كطلعة البدر ليلة التمام.

دخلت عليها أمها تستحثها، فما وقع بصرها عليها حتى توقفت برهة تتأملها، ثم احتنضتها في حُبور دامع. لقد عادت إليها بنيتها مزهرة بديعة، وعَدّت عروساً مرة أخرى بفضل الله.

ثم دق جرس الباب فشَهِقت الاثنتان في نَفَس واحد :

- لقد جاء، لقد جاء!

- (في توتر) اسبقيني أنتِ يا أمي وسألحق بك.

- (تخرج مسرعة) حسنا، لا تتأخري!

أسرعت سلمى تتأكد من تمام هندامها، ثم سارعت تهبط الدرج في خفة. ووقفت خلف الستائر التي تفصل الممر عن صالة الضيوف، وقد تصاعد الدم إلى وجنتيها، فبدأت كوردتين ناضرتين في أوج التفتّح.

وتناهى إلى سمعها أصوات مختلطة، فوضعت يدها على قلبها، ترجوه ألا يقفز من مكانه. ثم أزاحت الستار بمقدار ما ترى بعين واحدة، وحبست أنفاسها، ودخل! هو نفسه! هو بعينه!

لفت نحوه الأنظار .. كل الأنظار !

أسدلت سلمى الستارة بسرعة وهي تلهث من فرط الانفعال. ثم سمعت صوته وهو يدخل مُسلماً ويحيي والديها. عادت تزيج الستارة قليلا على استحياء، فألفته جالسا على مقعد جانبي، فاستطاعت أن تتأمل ملامحه، وكان آخر عهدا برؤيته عامان إلا قليلا. لم يتغير فيه شيء مما عهدته إلا بمقدار ما حنَّكَته الخطوب والأيام. ظل له نفس السمات الأخاذ والنبرة الرزينة، واطمئنان النفس البادي في سكناته. ثم انتبهت إلى أنه يحمل بين ذراعيه بحرص شديد لفة بيضاء صغيرة. أتكون تلك "سُمِيَّة"؟

أسدلت الستارة للمرة الثانية، وقلبها يكاد يتوقف من تلاحق دقاته. وضعت يديها على خديها الملتهبتين، تماما كما كانت تفعل حين يقف بصره عليها، أيام كان أستاذها وكانت طالبتة. تلك الأيام!

أتراه استيقظ؟ ذلك الحب النائم؟

أتراها ستكون أمها؟ أم ابنة صفاء؟

أحقا ستحل هي بوجودها محل ذكرى صفاء؟

أو يحل هو بوجوده محل غياب قاسم؟

وشعرت بطيفيهما وكأنما يدفعانها حثيثا إلى الخروج، إلى النور الذي لا بد لها منه، والذي كتبت لها أن تعيش لتشهده. وضعت يدها على قلبها المحب العطوف، قلبها الذي أخلص لزوجها في حياته، وأوفى لذكراه بعد مماته. وشعرت كأن ذكرى قاسم تفسح لأحمد مكانا، بما عهده منه من كرم وحب صادق غير مشروط، ومر بها طيفاهما - قاسم وصفاء - فضحك لهما قلبها، ورأت ابتسامة القدر ولطف تدبير العليم الخبير. قد سكن البحر الهائج أخيرا، واستقر المركب الصغير، على بر الأمان.

سمعت سلمى صوت خطوات قادمة فأجفلت وتراجعت للوراء، وإذا بأمها هي المقبلة لتريح الستارة، وتدخل حاملة سمية الرضيعة :

- (هامسة في غضب) سلمى؟! أما زلت واقفة هنا؟! إنه ينتظرك؟
- (على استحياء) ينتظرنى أنا؟
- (تقلد نبرتها) لا، بل ينتظرنى أنا! هيا، أسرعى قبل أن يُفْلِت!
- (تأمل الطفلة بين يدي أمها) أهذه سُمية؟
- (تقربها من سلمى في سعادة) بلى، إنها هي. انظري ما ألطفها!
- (تأملها في سعادة وحنان) دعيني أحملها!
- (تحتضن الطفلة لتصدّها) ليس هذا وقته، أسرعى بالذهاب.
- (تتردد)..
- (تدفعها برفق) هيا يا سلمى! تحركي! (تحمل الطفلة وتذهب بها إلى الصالة الأخرى) وأنت تعالي معي يا صغيرتي!

استنفرت سلمى كل طاقاتها الدافعة، وعدّلت حجابها في مناورة أخيرة، وسمّت الله في تحفّز، ثم أزاحت الستار دفعة واحدة، وخرجت إليه بنفس

الخطوات العسكرية التي دلفت بها إلى مكتبه أول مرة، كأنما كانت بالأمس
فحسب!

- (يقف الحاج عادل مشيرا لابنته المقبلة) وها هي ذي سلمى أخيرا!
- (ينهض أحمد واقفا في ارتباك، ويلتفت إليها، فتخفض بصرها على
استحياء)
- (يتأملهما الحاج عادل في ارتباكهما مسرورا) يبدو أن أمّ سلمى تناديني!
اسمحا لي! (يخرج ويظلان وحدهما واقفين)
- (بعد برهة صمت) ألن تجلسي؟
- (تنتبه إلى أنها ظلت واقفة، فتجلس مغممة) شكرا..
- (يجلس بدوره مبتسما) لا داعي للشكر، إنه بيتك!
- (تغمغم بكلمات لا تكاد هي تسمعها!)
- (تمر لحظات صمت) أحسن الله إليك العزاء في زوجك قاسم، يرحمه
الله.
- (يتقوّس حاجباها في تأثر) وأحسن الله عزاءك في صفاء كذلك!
- نحتسبهما عند الله من أهل الرضوان.

- نرجو ذلك بفضل الله، ولكنه ألم الفراق.
- (الحاج عادل واقف خلف الستار يسمح حديثهما، فيقطّب حاجبيه، ويهرّع إلى زوجته الجالسة في صالة أخرى تلاعب الرضيعة) فاطمة، يا فاطمة! هاتي الطفلة وتعالى!
- (في ارتياح) هل رفضت؟ هل رحل؟
- (في استياء) قومي الآن وإلا سيحدث ذلك! ادفعي الطفلة لسلمى، علّها تغير جو الكتابة ذلك بينهما.
- (تنهض معه، وقد فهمت مقصده) نعم فهمت! (تقطع المسافة بين الصالتين مهرولة، ثم تخرج إلى سلمى، وقد رسمت على شفثيها ابتسامة واسعة مصطنعة، فتضع الطفلة في حجرها) خذي يا سلمى، أبقئها معك ريثما أعد الغداء، فأبوك - كما تعلمين - لا يحسن هذه الأمور وحده!
- (تعود لزوجها خلف الستار قبل أن يتستى لسلمى الرد، فيستقبلها الحاج عادل في عتاب : “أكان لا بد من تلك الجملة الأخيرة؟” تشير له أن يسكت، ويقفان معا يتسمعان الحوار)
- (سلمى تداعب الطفلة) ما شاء الله، تبارك الرحمن! ما أجملها! (تتجاوب سميّة معها بأصوات الهديل الطفولية)

- (مسرورا) قلّما تعتاد سمية أحدا بهذه السرعة.
- (تتأملها، وتداعب أنفها بأناملها) إنها تشبه صفاء كثيرا.
- (بعد هنيهة صمت) أنا شاكر لك يا سلمى. لأنك وافقت على مقابليتي.
- (تطرق مستمعة له) ..
- إنني أعلم جيدا ما لقاسم من مكانة في قلبك، والقليل الذي عرفته عنه وخبرته من لقائي معه حبه إلي. لا أستطيع أن أعدك أنني سأعوضك عنه، ولكنني أعدك - صادقا بإذن الله - أن أحترم ذكراه. وأن أبذل ما في وسعي لإسعادك، وأن نؤسس معا بيتنا على تقوى من الله ورضوان.
- (يسكت هنيهة ويتنحج) إذن، هل تقبليني زوجا لك يا سلمى؟
- (أبوها وأمها واقفان كالتماثيل المنصوبة يتسمعان الحوار، الحاج عادل يعض على شفتيه في ترقّب، والحاجة فاطمة تضع يدها على قلبها وتحبس أنفاسها هامسة : “نعم! نعم! قللي نعم!”)
- كانت سلمى مطرقة وهي تسمح صوت أحمد يترقرق في أذنيها، كخير غدير صافي يتدفق في تودّة.

ها هو أحمد!

أحمد بنفسه، بشخصه الذي شَغَفَهَا حُبًا، يدخل بيتها من بابه، ويطلبها للزواج على نور من الله، وعلى مرأى ومشهد من والديها! ها هو حبها الدِّفِين يَبْزُغ للنور بلا حَرَج! ها هو السؤال الذي طالمت تَمَنَّت أن يُوجِّه إليها، منه!

صحيح أن الرجل الذي أمامها الآن ليس هو ذاك الشاب الغَضَّ العازب، بل صار أبا أرملًا. وصحيح أنها لم تعد هي تلك العروس المُزْهِرَة للتو، كما لن تكون أول من تمسِك يده، ليخطُوا معا أولى خطواتهما لعالم لم يَلِجَاه من قبل.

وَرَغِم كل ذلك، بل مع كل ذلك، استيقظ ذلك الحب الذي دفنته سلمى في مكان ما في جَنَبَات قلبها، ثم نسيت أو تناست مكانه. وها هي ذي تجده اليوم كاملا غير منقوص، وإن كان قد شابته أخلاط من مشاعر أخرى. وها هو ذا السؤال الذي تَأَقَّت له كثيرا يصافح سمعها بكل الحب وكل الود وكل الحنان الذي تطلَّعت له ..

كما لو كان بالأمس القريب.

سبحانك ربي!

تَصَرَّفَ الأَقْدَارُ كيف تشاء، فنَدَّعِي التسليم لذلك بألسنتنا، لكن تظل قلوبنا في حيرة، وأنفسنا في سُخْط. فلا نرى مُوجَّهاً لِدَقَّةِ الحِياةِ سوى أحلامنا وأُمْنِياتنا وخططنا، وضمانات نبتدعها ونتعلَّقُ بها، كأننا اتخذنا عندك عهداً بإنفاذها! فإذا أردنا ثم وقع غيرُ ما أردنا، ثَبَّتَ عند الامتحان القليل ممن يَعِي أنه في امتحان، وَسَخِطَ الكثير ممن استخفهم زُخْرُفُ الحياة الدنيا، وظنَّوا أنهم عليها قادرون.

ولو عَلِمنا الغيب، فقط لو علمناه، لاستكثرتنا من الخير، وما مَسَّنَا السُّوء. ولذلك لا نعلمه، لِيَمِيزَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصَدَقِهِمْ، وليمتحن اللهُ صدق الإيمان بالغيب. فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السُّخْط.

وإن القَدَرَ سيجري على كل حال، فإما أن يجريَ على من يجري عليه مأجوراً، أو مأزوراً، والله غنيٌّ عن العالمين.

- "أتقبليني زوجاً لك؟"

- أذلك يحتاج سؤالاً يا أحمد؟!

كم ودَّت سلمى لو تقذف بكلمة "نعم"، لتُخرج كل الانفعالات التي تعتمل في داخلها. ولكن لسانها احتبس عَوْضًا عن ذلك، واختَلَجَت شفتاها دون أن تُفَتِّرًا عن الكلمة السحرية!

انتزعها من خواطرها حركة بسيطة نَدَّت من سميّة في حجرها، فرفعت بصرها إلى أحمد عَفْوًا، فألفت في عينيه نظرة الترقب الجميل! تلك النظرة الأثيرة، التي طالما حلّمت أن ينظر بها إليها، حين يوجّه إليها ذلك السؤال!

- (يكرر السؤال في ترفق قلق) أتقبلين يا سلمى؟

- (تستجمع أنفاسها وقلبها يكاد يقفز من مكانه ليرتمي بين يديه، ثم تجيب بنصف ابتسامة على استحياء) نعم يا أحمد!

ما كادت سلمى تتّم عبارتها، حتى اندفعت الحاجة فاطمة من خلف الستارة كالسيل الجارف، مطلقة زُغردة طويلة عالية، أزعجت الطفلة في حجر سلمى فعلا صوتها بالبكاء.

مسح الحاج عادل دمعة كادت تتحدر وهو يتبعها، وقال لزوجته مازحا :
"أبكيتِ الطفلة بصيحتك الطرزانية يا فاطمة!".

أخذت الحاجة فاطمة الطفلة الباكية من حجر سلمى المتورّد خدّاها، وقالت
ودموعها تهطل هي الأخرى : "لا عليك منّا! إنها دموع الفرح!" ..

ثم أطلقت زُغردة ثانية أقوى من سابقتها، ثقت أذن الطفلة المسكينة
بين ذراعيها، فاشتد بكاؤها وانهمرت من عينيها المزيد من الدموع..

دموع الفرح!

ختام المسك

- (الحاجة فاطمة تحمل سمية بين ذراعيها، وتبحث عن زوجها، حتى وجدته قرب إحدى القاعات)
- أين اختفيت يا أبا سلمى؟
- أنا مع المدعوين يا فاطمة.
- أبحث عنك منذ ساعة ولم أجده!
- (يمارحها) شيء طبيعي، لأنك تبحثين في ناحية المدعوات!
- (تناوله الطفلة) خذ حفيدتك وكف عن مزاحك الليلة بالله عليك!
- (يأخذ الطفلة بحرص) وإلى أين تذهبين أنت؟
- سأذهب لأطلب إحضار كعكة الزفاف. المدعوون ينتظرون، والعروسان جاهزان!

- فلتحملي أنت الطفلة وأنا سأذهب!
- لا! بل أنا من سيذهب!
- بل أنا!
- بل أنا! أنا أمها!
- وأنا أبوها!
- لن يحتاجوا توقيعك لإحضارها! أريد أن أراها أولاً! (تغادر مسرعة في حماسة) ..
- (ينظر لحفيدته التي تبتسم له ببراءة) إياك أن تكبري لتصبحي مثلها!
- (يذهب عائداً لناحية المدعوين) هيا تعالي معي لأريك قسم الرجال!

- يا حاجة، يا حاجة!
- (تلتفت الحاجة فاطمة إلى مصدر الهمس متعجبة، فإذا بالشيخ حسين يطل برأسه من خارج إحدى الشرفات، فتخرج إليه) لماذا تقف هنا يا حاج حسين؟ ألم نرسل لك وللحاجة فتحية بطاقات الدعوة؟
- (يبتسم) نعم وصلت، وصلكم الله بكل خير يا حاجة.

- (تشير له ليدخل) إذن تفضل.
- (متريدا) قبل ذلك، أرجو أن أتحدث مع العروس على انفراد إذا أمكن.
- (ترفع حاجبيها في دهشة، ثم ترد) حسنا سأبلغها، دقائق وأعود. (تسرع للداخل)
- (تأتي سلمى بعد لحظات في فستانها الأبيض البهيّ، وتنزل درجّات الشُرْفَة بعد أن تغلق الباب خلفها، وتقف في مواجهة الحاج حسين في الحديقة، وتبادره مسرورة) أهلا عمي حسين! كم سَعدت لحضورك. كيف حالك؟ والخالة فتحية، كيف حالها؟
- (يطرق) لقد تَعَمَّدَها الله برحمته منذ أربعة أيام!
- لا حول ولا قوة إلا بالله! الخالة فتحية؟! إنا لله وإنا إليه راجعون.
- (يبتسم في اطمئنان) الحمد لله الذي توفّأها على ما كانت ترجو. لقد قُبِضت روحها وهي تتلو القرآن في مصلاّها في مسجد القاسم. فالحمد لله ذي الفضل العظيم.
- (تبتسم متأثرة) الحمد لله الذي أحسن خاتمتها، أنا سعيدة لأجلها.
- ما من شك لدي في صدق مشاعرك يا ابنتي. بارك الله فيك، وجزاك خيرا على الفرحة التي أدخلتها علينا ببنائكم المسجد.

- الحمد والفضل لله الذي وفقنا لذلك.
- أردت أن أسلّمك أمانة على انفراد (يمد يده إليها بقلادة ذهبية) لقد أوصتني زوجتي قبل وفاتها أن أعطيك هذه القلادة لتبيعيها، وتتصدقني بتمنيتها عنها. (يتأمل القلادة في إعزاز) إنها هديتي الأولى إليها ليلة زفافنا. لم أكن أعلم أنها احتفظت بها كل تلك المدة.
- لماذا لا تبقيها معك ذكرى يا عمي؟
- لقد أوصتني بهذا لأنها ترجو أن تلقاها عند الله محفوظة، كما حَفَظَتْها في حياتها.
- (تأخذ سلمى القلادة بحرص) سأحافظ عليها، وأنفذ وصيتها بإذن الله.
- (يمد يده بساعة قديمة) وهذه كذلك يا ابنتي. إنها ساعة ذلك الفقير الذي ظلمته فنصره الله. لقد حاولت لسنوات البحث عن صاحبها دون جدوى، فبيعيها وتصدقني بها عنه. صحيح أن لا أحد من الخلق يقبل هذه "الخردة"، لكنه سبحانه سيقبلها، إنه تعالى البر الرحيم.
- لا أدري كيف أشكرك يا عمي، لقد غيرت معرفتي بك مفاهيم كثيرة.
- اذكريني في دعائك يا ابنتي، وزوجتي يرحمها الله.

- لن أنساكما ما حييت يا عمي.
- (يتأملها كما يتأمل الأب الشفوق ابنته في سعادة يوم زفافها) أستودعك الله إذن يا ابنتي، وأرجو لك حياة هائلة مطمئنة في طاعة الله.
- ألن تنضم إلينا؟
- اعذريني يا ابنتي، لكنني لا أنسجم مع هذه الأجواء. شكرا للدعوة الكريمة مع ذلك.
- (تومئ في تفهّم) ألا توصيني بشيء يا عمي قبل أن تذهب إذن؟
- (يتأملها برهة، ثم يبتسم مردفا) استمتعي بما أحله الله دون أن تُفْتَنِي به، وإن رأيت الدنيا هنا (يشير إلى قلبه) لا هنا (يشير بيده) فاحذري! واسألي الله السلامة والمعافة في الدين والدنيا والآخرة، فإذا خرجت من الدنيا سالمة الدين ما ضرّك ما فاتك منها، واتقي الله واعلمي أن الله مع المتقين.
- جزاك الله خيرا يا عماه، أسأل الله أن أذكر وصيتك الجامعة ما حييت.
- (يبتسم لها محييا، ثم يبتعد حتى يحتويه الظلام، ويختفي عن ناظريها)
- (تردد في امتنان) جزاك الله خيرا يا حاج حسين، ورحم الخالة فتحية وتغمّدها بواسع رحمته.

(تحفظ الساعة والقلادة في جيب ثوبها، ثم تعود للداخل، فتلقى أحمد وقد جاء بحثا عنها) .

- (يلوّح لها بيده) أخيرا وجدتك! (يأخذ بيدها وينحني ليهمس في أذنها)
ما رأيك أن نخرج للشرفة وحدنا قليلا؟

- (هامسة) ونترك المدعوين؟

- (ضاحكا) يُخَيَّلُ إلي أنهم راشدون كفاية ليتدبروا أمورهم بدوننا!

- (تلكزه برفق في ذراعه وتبتسم) لم تتغير ردودك الحاضرة كما أرى!

- (يأخذ بيدها مستحشا) هيا، تعالي! (يخرج بها للشرفة المطلة على
الحديقة، ويغلق بابها خلفهما).

وقف أحمد وسلمى جنبا إلى جنب، يتأملان المنظر الساحر أمامهما. كان الليل يَجْرُ أذْيَالَهُ على الكون في ثُوْدَةٍ، وأشعة القمر تَنْسَكِبُ على صفحة المياه الرائقة، التي تنساب رَقَاقَةً من النافورة الفضية أمامهما، والنجوم تتناثر منعكسة عليها فتظهر كأنها بساط من القطيفة الزرقاء، تناثرت عليه حبات اللؤلؤ والكهرمان.

هَجَعَ الكون في سلام مُتَنَاعِمٍ، وساد صمت مُحَبَّبٍ إِلَّا من همس الورود
وَحَرِيرِ المياه. مد أحمد ذراعه يَحُوطُ زوجته، فتبسمتْ له وسَكَنتْ إليه.

- اتعلمين يا سلمى؟ أشعر كأن طَيِّفَيْهِمَا يَرَقُبَانِنَا في رضا.
- وأنا كذلك.
- (يلتفت إليها مبتسما) وها نحن أخيرا معا يا سلماي!
- (ترفع حاجبيها في دهشة، ثم تحوّل بصرها عنه في شيء من التأثر)
- (مستغربا) ما الأمر؟
- (بعد هنيهة صمت) كان قاسم دائما يناديني بذلك.. "سلماي".
- (يطرق هنيهة متفهما) اعذريني، لقد جرى على لساني تلقائيا. أتحبين أن أغيّره؟
- (تهز رأسها نفيا) بل يطيب لي أن يصافح سمعي ثانية بعد طول غياب.
- (يبتسم لها في حنان) ويطيب لك أن يكون مني هذه المرة؟
- (تومئ برأسها وتغمغم على استحياء) نعم!
- (يغمز لها مداعبا) نعم.. فحسب؟
- (تغمغم) يطيب لي كثيرا.

- (يبتسم لها، ثم يقول بعد صمت قصير) أتعلمين يا سلامي؟
- (تلتفت له وقد اتسعت ابتسامتها) ماذا؟
- أنك رائعة!
- (تحوّل بصرها عن عينيه المثبتتين عليها، وتحمّر وجنتاها ولا ترد)
- وأناني بعدُ أحبك!
- (ترفع إليه عينين فيهما دمعتا تأثر، فبدتا كلؤلؤتين تسبحان في بحر من الجمال) ما زلت تحبني حقا يا أحمد؟
- أضعاف أضعاف ذي قبل!
- (مستزيدة من استشعار منزلتها عنده) إذن لم يكن زواجك مني إمضاء لوصية صفاء؟
- بل كان استجابة لنداء قلبي منذ أول يوم عرفتك فيه، وعززته وصية صفاء. (يدير وجهها إليها) وإنما هذا السؤال أوجهه لك أنت يا سلمى!
- (تحوّل بصرها عنها مترددة) لي أنا؟!!
- أنتِ من وقع على عاتقها حمل الأمانة التي علقتها صفاء في عنقك، وكذلك رغبة قاسم الأخيرة في أن تتزوجي بعده.

- (تصمت وتطرق ناظرة للخُصرة في شرود)
- (يتأملها ملياً، ثم يسألها في حذر) أكان قبُولك الزواج مني لأجلهما فقط
يا سلمى؟
- (تدمع عيناها وتخفي وجهها بيديها) لا أستطيع يا أحمد!
- (يتراجع قليلاً مندهشاً من ردة فعلها) لا تستطيعين ماذا يا سلمى؟
- أتريدني أن أتكلم بما يسوؤُهُما وذكراهما بعدُ بيننا؟!
- (يردد مندهشاً) يسوؤُهُما؟ (يسكت برهة مطرقاً في تعجّب، ثم يلتفت إليها) اسمعيني يا سلمى، إن الله الذي قضى عليهما الرحيل عنا هو سبحانه الذي أودع فينا هذه المشاعر السامية مادامت في الحلال. ولو كان فيها ما يعيب لَمَّا أوجدها الخالق فينا، ولما كَتَبَ لها أن تستمر حتى بعد فراق أحبّتنا، لنستطيع أن نحب من بعدهم. لن نتوقف الحياة عند من رحلوا يا سلمى، ولكنها ستستمر وتستمر معها أسباب الحياة ودفع المشاعر. فإن جَمَدَتْها أنت عند ذكرى من رحلوا، فكأنك وأدَّتِها وفيها بعدُ نَفْس يتردد.
- (تدمع عيناها) أعلم يا أحمد، قد قالت لي أُمي كلاماً مشابهاً، ولكنني خائفة.

- (في حنان) ممّ تخافين؟
- (تسكت قليلا وشفتاها تختلجان كأنها على وشك البكاء) لست أدري، لكنها مشاعر متداخلة. أخاف ألا أكرم ذكراهما كما ينبغي. أخاف إن تجاوزت مع مشاعر الحاضر أن أنسى الماضي منها. وأخشى أن تجرفني سعادة صحبة اليوم، فتطغى على ألم فقدان صحبة الأمس. لم يكن قاسم اختيار قلبي، ولا كان "حبي الأول"، لكنه كان خير صحبة وأكرم رفيق، وكان - رحمه الله - تقيا كريما برا. (تتوقف وقد بدأت تلهث من الانفعال)
- (يتأملها هنيهة في إكبار، ثم يبتسم متفهما ويربّت على كتفها) لا ريب عندي أنه كان كما تقولين يا سلمى، وما أنكر ذلك ولا أريد لك أن تنكريه، ولا أن تخونني ذكراه كما لا أريد أنا خيانة ذكرى صفاء، لكن أليس لنا في الحبيب المصطفى أسوة حسنة؟
- بلى، صلى الله عليه وسلم.
- فإن وفاءه صلى الله عليه وسلم، للسيدة خديجة رضي الله عنها، لم يمنعه من حب السيدة عائشة رضي الله عنها والتصريح بذلك على الملأ، ولم يمنعه أن يقول لها إن حبه لها كالعقدة في الحبل. وفي ذات الوقت لم يقلل حبه للسيدة عائشة رضي الله عنها من وفائه لذكرى

السيدة خديجة رضوان الله عليها، حتى غارت منها السيدة عائشة وهي مُتَوَفَّاة! الوفاء - يا سلمى - للراحلين لا يمنع استمرار المحبة للأحياء، ولا محبة الأحياء تقف في طريق الوفاء للراحلين.

- (تتفكر في كلامه مقتنعة) نعم، صدقت.. (تلتفت إليه بعينين راجيتين) أريد أن أقولها لك يا أحمد، لكنها محتبسة في حلقي!

- (يتأملها لحظة في حنان، ثم ينحني ليطبع قبلة على جبهتها، ويردِّف) لا عليك، لست متعجلاً على سماعها حتى تحرريها أنت من حبسها. وإن رجلاً يكرمك ويحسن معاملتك هكذا، لجدير باحترام ذكراه.

- (تنظر إليه بتساؤل) وصفاء؟

- (يبتسم) كما كانت دوماً في حياتها يا سلمى : إلى جانبك!

- أَوْ يَتَسَّعَ قَلْبُكَ لَكَلِينَا؟

- إِنْ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا وَجَمَعَنَا عَلَى مَا يَحِبُّ وَيَرْضَى، لَهُوَ أَكْرَمُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يُضَيِّقَ قُلُوبَنَا عَنْ سَعَةِ التَّمَتُّعِ بِمَا أَحَلَّ فِي مَرْضَاتِهِ.

- (تبتسم، ثم تهمس بعد صمت قصير) وأنا يا أحمد.. أحبك.. كثيراً!

- (ينظر إليها بسرور متفاجئاً، ثم يضمها إليه بقوة)

- (تسكن إليه وتهدأ أنفاسها المتسارعة)

- (يسكتان قليلاً مستمتعِينَ بالهدوء الخَلاب، ثم يُردِف أحمد) ما رأيكِ أن نزل ونصلي في تلك البقعة المختفية عن الأعين؟ (يشير لمكان خلف سور نجيل قصير)
- أَلَمْ نتفق أن نصلي عندما ندخل منزلنا؟
- بلى، لكن هذا شيء آخر. أريد أن نصلي معا شكرا لله أن جمعنا على ما يحب ويرضى، وأنه ثبتنا في وجه الخطوب، وأنجَزَ لنا وعده.
- وَعَدَه؟
- “إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ” [يوسف: ٩٠].
- (في ابتهاج) سأبدل حذائي لأنه لا يصلح للمشي في الحديقة، وأعود حالا. (تدخل سريعا)

نَزَلَ أَحْمَدُ إِلَى الْبُقْعَةِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا، وَرَجَعَتْ سَلْمَى بَعْدَ قَلِيلٍ. لَوَّحَ أَحْمَدُ لَهَا مِنْ مَكَانِهِ، فَسَارَعَتْ تَهْبِطُ دَرَجِ الشَّرْفَةِ بِحِذَائِهَا الْأَبْيَضِ الرَّقِيقِ وَثُوبِهَا الْفَضْفَاضِ الْأُنْيَقِ بَيْنَمَا وَقَفَ أَحْمَدُ مَسْرُورًا يَتَأَمَّلُهَا، وَأَرْبَكْتَهَا نَظَرَاتِهِ الْمَثَبَّتَةَ عَلَيْهَا وَهِيَ تَمْشِي إِلَيْهِ، تَتَعَثَّرُ خَطَايَاهَا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، فَبَدَتْ كَحَيْنِ مَاءٍ فَاتِنَةٍ تَدُورُ فِيهَا قَطْرَةٌ دَلَالٍ!

وَلَمَّا لَحِقَتْ بِهِ مَدَّ لَهَا ذِرَاعَهُ لِتَتَكَيَّ عَلَيْهِ، وَسَاعَدَهَا بِالْأُخْرَى فِي رَفْعِ أَذْيَالِ فَسْتَانِهَا لِتَتَجَاوَزَ سُورَ النَّجِيلِ، ثُمَّ وَقَفَتْ خَلْفَهُ. وَسَادَ الْكُونُ سَكُونُ بَدِيحٍ، فَسَكَّتِ الْوُرُودُ عَنْ تَهَامِسِهَا، وَأَمْسَكَ الْمَاءُ عَنْ رَقْرَقَتِهِ، كُلُّ مَنْتَظَرٍ مَتَرَقِبٍ. حَتَّى إِذَا شَقَّ السَّكُونُ صَوْتَ تَكْبِيرٍ قَوِيٍّ، هَمَسَتْ الْوُرُودُ بِالتَّسْبِيحِ، وَجَرَى الْغَدِيرُ بِالتَّقْدِيسِ. وَغَادَرَتْ صِغَارُ الْعَصَافِيرِ أَعْشَاشَهَا تَتَسَمَّحُ لِذَلِكَ الصَّوْتِ النَّدِيِّ مَرْتَلَا آيَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

وَأَمْسَكَتِ السَّحْبُ عَنْ حَجَبِ أَشْعَةِ الْقَمَرِ، فَأَرْسَلَهَا شَاكِرًا لِتَغْمُرَ فِي عَتَمَةِ اللَّيْلِ السَّاجِي حَبِيبِينَ وَقَفَا بَيْنَ يَدَيِ خَالِقِهِمَا، فَرَقَهُمَا الصَّفِّ وَجَمَعَتْ بَيْنَهُمَا الصَّلَاةَ لِرَبِّ وَاحِدٍ، وَتَوَجَّهَ إِكْلِيلُ رِبَاطِ مُبَارَكٍ أَضْفَى الْبَرَكَاتِ عَلَى كُلِّ مَا حَوْلَهُ، وَرَفَرَتْ عَلَيْهِمَا رَحِمَاتُ مِيثَاقِ غَلِيظٍ.

وغير بعيد عنهما كان صدى صوت رتيب، صوت دقات ساعة تدق بانتظام، لتعلن في تأكيد، أن العمر سيمضي، والقدر سيجري، وعجلة الحياة ستدور، ما شاء الله بالمضي والجريان والدوران، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، والله غني عن العالمين.

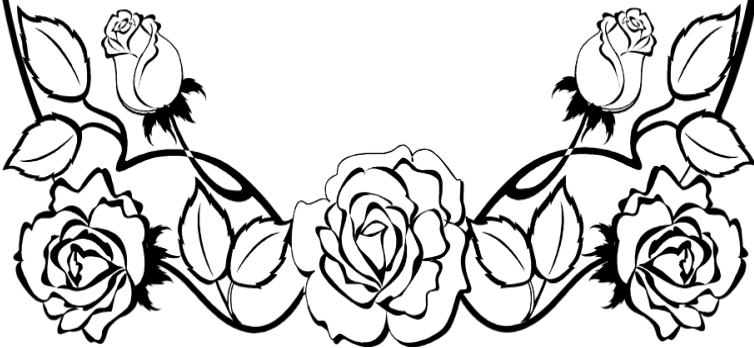
"وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا"

[الأحزاب : ٣٨]

تم

بحمد الله تعالى

الجزء الأول



هَدَىٰ عَبْدُ الرَّحْمَنِ النِّمْرُ



<https://linktr.ee/hoda.alnimr>